

ألكسندر دوما

الفرسان الثلاثة

ترجمة: سعيد بوكرامي

كلاسيكيات كلمات



الفرسان الثلاثة

Les Trois Mousquetaires

ألكسندر دوما

Alexandre Dumas

ترجمة: سعيد بوكرامي

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

المملكة العربية السعودية

جميع الحقوق محفوظة للناشر: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أو تخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو تقله بأيّ شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

* All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without the prior written permission of the publisher.

طبع في مطابع الصفا - الكويت

مكتبة الملك فهد الوطنية

رقم الإيداع: 1445/21427

ردمك: 978-603-05-0834-1

الفرسان الثلاثة

Les Trois Mousquetaires

ألكسندر دوما

Alexandre Dumas

ترجمة:

سعيد بوكرامي

الجزء الأوّل

2024

kalemat

تم تجهيز هده النسخة بواسطة:

• ميساء طه •

جميـع الحقوق محفوظة ©

مكتبة ضَـــاد الإلكترونية
t.me/twinkling4

أمسح الكود وانضم لأسرة ضـــاد

https://t.me/twinkling4

مُقَدّمة

منذ حوالي عام، كنتُ أقوم ببحثٍ في المكتبة الملكيّة لإنجاز حكاية عن لوي الرابع عشر(1)، فَعثرتُ على مذكّرات السيّد دارتانيان(2) مطبوعة في أمستردام لدى دار بيير روج، وكما جرتِ العادة بالنسبة لمعظم الأعمال في ذلك العصر، عندما يريد المؤلفون قول الحقيقة دون الذهاب في جولة طويلة أو قصيرة إلى سجن الباستيل فأغواتي العنوان، وبعد أنْ حصلتُ على موافقة المحافظ، أخذتُها معي إلى منزلي، فعكفتُ على قراءتها بنَهَمٍ شديدٍ.

ولا أنوي، في هذا المقام، إجراء تحليل لهذا العمل الغريب، ولكنني أحيل عليه الذين يقدّرون من قرائي لوحات تلك الفترة، إذ سيجدون صورًا مرسومة ببراعة، وعلى الرغم من أن الرسومات في معظمها مرسومة عند أبواب الثّكنات وعلى جدران الحانات، فإنّه لن يتعرّف إليها بشكل واضح، كما هو الحال في قصّة السيد أنكتيل، وصور لوي الثالث عشر، وآن النمساوية، ودو ريشيليو، ودو مازاران، ومعظم رجال الحاشية في ذلك الأوان.

ولكنْ كما نعلم، فإن ما يُذهل عقل الشاعر المتقلّب المزاج ليس دائمًا ما يثير إعجاب جمهور القرّاء، ومع ذلك، فما دامت التفاصيل التي أشرنا إليها قد أعجبتنا، فبلا شكّ ستعجب الآخرين أيضًا، لكن الشيء الذي يشغلنا أكثر هو الشيء الذي لم يولِه أحد من قبل أدنى اهتمام.

يروي دارتانيان أنّه خلال زيارته الأولى إلى السيّد دو تريفيل قائد فرسان الملك، التقى في قاعة انتظاره ثلاثة شبّان يخدمون في الحرس اللامع، كانوا يلتمسون شرف

استقبالهم، وكانت أسماؤهم كالآتي: آتوس وبورثوس وأراميس.

نقرّ أنَّ هذه الأسماء الأجنبية الثلاثة كانت غريبة ولافتة للانتباه، وخطر لنا على الفور أنّها ليست سوى أسماء مستعارة أخفى دارتانيان بوسطتها أسماءهم الحقيقية، ربّما كانت شخصيّات لامعة، هذا إذا لم يكنْ حاملو هذه الأسماء المستعارة قد قاموا ذات يوم باختيارها بأنفسهم نزوة، أو إثر نوبة غضب أو بسبب حاجتهم إلى الثروة، فارتدوا ببساطة زيّ الفرسان.

منذ ذلك الحين، لم أعد أشعر براحة البال التي كنت أنعم بها من قبل. توجد في الأعمال المعاصرة بعض الآثار لتلك الأسماء المدهشة التي أثارت فضولنا بشكل كبير. إنّ القائمة الوحيدة للكتب التي اطّلعنا عليها لتحقيق ذلك يمكن أن تشغل مساحة رواية كاملة مسلسلة، وقد تكون مفيدة للغاية، لكنّها بالتأكيد لن تكون في منتهى الإمتاع لقرّائنا، لذلك، سنكتفي بإخبارهم في الوقت الحالي، أننا عندما أحبطنا كثيرٌ من البحث غير المثمر حتّى أوشكنا على ترك مرادنا، عثرنا أخيرًا -مسترشدين بنصيحة صديقنا اللامع والمعلم بولان الباريسي- على مخطوطة مجهولة مطويّة، تحت رقم 4772 أو 4773، وقد كان عنوانها:

"مذكّرات السيّد كونت دو لافير، وهي تتعلق ببعض الأحداث التي وقعت في فرنسا في نهاية عهد الملك لوي الثالث عشر وبداية عهد الملك لوي الرابع عشر".

يمكن للقارئ أن يتخيّل حجم فرحتنا العارمة عندما عثرت أثناء تصفُّحي لهذه المخطوطة على أملي الأخير؛ ففي الصفحة العشرين وجدت اسم آثوس، واسم بورثوس في الصفحة السابعة والعشرين، واسم أراميس في الصفحة الحادية والثلاثين...

بدأ اكتشاف مخطوطة مجهولة تمامًا في وقت ازدهرت فيه العلوم التاريخية ازدهارًا كبيرًا، شبه معجزة تقريبًا، لذلك سارعنا إلى طلب الإذن بطباعتها، بهدف ترشيح أنفسنا يومًا ما إلى أكاديمية النقوش والآداب الجميلة معتمدين في ذلك على معارف الآخرين، وإذا لم نُوفَّق في ذلك، فمن المحتمل جدًّا أن ندخل إلى

الأكاديمية الفرنسية متوجين بمعارفنا وثقافتنا الخاصّة، ويجدر بنا أن نقول إنّنا حصلنا على هذا الإذن بلطف وسخاء، وهذا ما يدفعنا إلى تكذيب علني لمزاعم الأشخاص الخبثاء الذين يدّعون أنّنا نعيش في ظلّ حكومة تسيء التعامل مع أهل الأدب.

ومع ذلك، فإنّنا اليوم نقدّم للقارئ الجزء الأوّل من هذه المخطوطة النفيسة، بعد إعادة صياغة العنوان الذي يناسبها، والالتزام بنشر الجزء الثاني قريبًا، ما دام لا يساورنا شك في أنّ هذا الجزء الأوّل سينال النجاح الذي يستحقّه، وفي غضون ذلك، وبما أنَّ الأب الروحي هو الأب الثاني، فإنّنا ندعو القارئ أن يردّ إلينا وليس إلى الكونت دو لافير أسباب متعته في القراءة أو ضجره منها.

وبعد قولي هذا، أدعوكم إلى قراءة حكايتنا.

ألكسندر دوما.

1

ثلاث هدايا من السّيّد دارتانيان الأب.

في الاثنين الأول من شهر أبريل عام 1625م، كانت بلدة مونغ، حيث وُلِد مؤلّف رواية الوردة، تبدو وكأنّها تقوم بثورة كاملة، كما لو أن الهوغونوتيين قد جاؤوا ليصنعوا كارثة روشيل مرّة أخرى، وعندما رأى عديد من البرجوازيين النساء يهربن على قارعة الشارع الكبير، وسمعوا صراخ الأطفال على عتبات الأبواب، سارعوا إلى ارتداء دروعهم الصدرية، ودعموا قدرتهم المريبة ببندقية أو رمح، واتّجهوا نحو نزل فرانك مونييه، حيث احتشدت أمامه مجموعة مكتظّة يتزايد عددها شيئًا فشيئًا، إذ كانت الحشود مستعجلة وصاخبة مفعمة بالفضول.

في تلك الأيام، كان الذعر مستشريًا في كل مكان، ولا تمضي أيام دون أن تسجّل بلدة أو أخرى بعضًا من هذه الأحداث المريعة في أرشيفها، كما كان هناك أمراء يشنّون الحرب على بعضهم بعضًا، والملك يشن حربًا على الكاردينال، والإسبان يشنّون حربًا على الملك، وبالإضافة إلى هذه الحروب الصامتة أو العلنية، السريّة أو الواضحة، استمرّ اللصوص المتسوّلون والهوغونوتيون والذئاب والمستضعفون، يشنّون الحرب على الجميع. لقد سلّح البرجوازيون أنفسهم دائمًا لمواجهة اللصوص والذئاب، والمستضعفين، وفي كثير من الأحيان لمواجهة الأسياد والهوغونوتيين -وأحيانًا يواجهون الملك نفسه- لكنّهم لا يجابهون أبدًا الكاردينال والإسبان. وقد نتج عن هذه العادة المكتسَبة، ما حدث يوم الاثنين الأول المذكور أعلاه من شهر أبريل عام 1625م، حينما اندفع المواطنون نحو قصر فرانك مونييه وهم يسمعون ضجيجًا، ولا يلمحون الراية الصفراء والحمراء، ولا حلّة دوق ريشيليو.

وعندما وصلوا إلى هناك، تمكّن الجميع من أن يرى ويتعرف إلى مصدر هذه

الإشاعة.

كان هناك شاب، يمكن أن رسم صورته؛ تخيّل معي الدون كيشوت في سنّ الثامنة عشرة، لكن هذا الدون كيشوت كان متجردًا من عتاده الحربي، من دون درع للصدر أو الفخذين، متّشحًا بصدرية من الصوف استعمال لونها الأزرق إلى لون حائل لا معالم له، يتدرّج بين النبيذي الداكن والأزرق السماوي. كان وجهه طويلًا بعظمتَي وجنتين بارزتين، وهي إن دلّت، فإنما هي سيماء على الدهاء، وعضلات فكّين منبسطة بشكل هائل، وهما مؤشر على الشجاعة والثبات، تتعرّف في هذه الملامح إلى العرق الجاسكوني، حتّى دون أن يرتدي قبعة. كان الشابّ يرتدي قبعة مزينة بنوع من الريش، عيناه متيقظتان وذكيّتان والأنف معقوف، لكنّه مرسوم بدقّة، مظهره لا يدل على أنه في سنّ المراهقة، صغير جدًّا بالنسبة لرجل بالغ، يبدو للناظر الحصيف قرويًّا ابن مزارع، يقوم برحلة وبلا سيفه الطويل الذي يتدلّى من حزامه الجلدي، يبدو فلاحًا للأرض وراعيًا لضرب من العجول، يصاحبها عندما يسير على قدميه أو ممتطيًا حصانه الخشن.

لكنّ فتانا هنا يمتطي حصانًا رائعًا مثيرًا للانتباه، كان الحصان كديشيا من منطقة بيرن، يبلغ من العمر اثني عشر أو أربعة عشر عامًا، حصان سهروي بين الصفرة واللون السوسنيّ، ذيله خالٍ من الشعر، لكن قوائمه متشققة، يخب ورأسه منخفض إلى ركبتيه، ممّا يجعل استخدام السيور التي تشدّ السرج غير ضروري أثناء سيره فراسخه الثمانية كل اليوم. لسوء الحظ، كانت صفات هذا الحصان مخفيّة جيدًا تحت شعره الغريب ومشيته المتناقضة، لدرجة أن كل من يفهم في الخيول سيعتريه تجاه ظهور الحصان المذكور في مونغ حيث دخل هناك منذ ربع ساعة أو نحو ذلك عبر بوابة بوجونسي، إحساس مفعم بالضغينة يمتد ليشمل راكبه أيضًا، وكان هذا الإحساس أكثر إيلامًا للشاب دارتانيان (هكذا يدعى الدونكيشوت صاحب هذا الحصان الرديء)، ولأنه لم يستطع إخفاء الجانب المضحك الذي قدمه مهما كان فارسًا جيدًا، فقد كان مظهره مزريًا، لكنه قَبِل على مضض الهدية التي قدمها له والده دارتانيان. كان يدرك جيدًا أن مثل هذه الدابة كانت تساوي عشرين جنيهًا على الأقل، صحيح أن العبارات التي رافقت هــدية

الأب لا تُقدّر بثمن.

قال الرجل الجاسكوني النبيل بلهجته البيرنية النقية التي لم يتمكّن هنري الرابع من القضاء عليها: «يا بني، وُلِد هذا الحصان في منزل والدك قبل ثلاثة عشر عامًا، وبقي هنا منذ ذلك الحين، وهذا يستدعي منك أن تحبّه، فلا تبعه أبدًا، دعه يموت من الشيخوخة بهدوء وشرف، وإذا قمتَ بحملة بمعيته، عامِلْه كما تعامل خادمًا عجوزًا».

وأضاف السيّد دارتانيان الأب، في البلاط: «إذا نلتَ شرف الذهاب إليه، وهو شرف تستحقه، فعلاوة على صفة النّبالة القديمة الخاصة بعائلتك، حافظْ على اسمك النبيل الذي حمله أسلافك بكبرياء لأكثر من خمسمئة سنة من أجلك ومن أجل قومك -وأعني بقومك والديك وأصدقاءك-، لا تقبل اللائمة أبدًا من أي أحد إلا من طرف الكاردينال والملك. يمكن للرجل النبيل بشجاعته، هل تسمعني؟ بشجاعته وحدها، أن يشق طريقه اليوم نحو السؤدد، وإذا ارتجف الشخص لثانية خوفًا فربما سيفلت منك الطعم الذي كان خلال تلك الثانية بالذات فرصة للحصول على الثروة المرتجاة.

أنت شابّ، يجب أن تكون شجاعًا لسببين؛ الأول أنك جاسكوني، والثاني أنك ابني، لا تخف من الفرص وابحث عن المغامرات، علمتك أن تستخدم السيف، لديك أقدام حديدية وزند فولاذي، قاتل من أجل كل شيء، قاتل بعيدًا عن المبارزات لأن الجبهة أكثر شجاعة في القتال. لا أملك -يا بني- ما أعطيك سوى خمسة عشر إيكو(3)، وحصاني والنصائح التي سمعتها توًّا، ستضيف أمك وصفة لنوع من البلسم حصلت عليه من الغجر، له قوة خارقة في شفاء أي جرح لا يصل إلى القلب، استفد من هذا كل، وعش سعيدًا وعمّر طويلًا، ليس لديّ سوى كلمة واحدة لأضيفها، وهذا مثال أقدمه، ولا يخصني، لأنني لم أحضر قط مناسبة في بلاط ولم أشارك في حرب سوى الحروب الدينية كمتطوع، أنا أتحدث عن دو تريفيل الذي كان جاري وحظِيَ بشرف اللعب وهو طفل مع ملكتا لوي الثالث عشر، يحفظه الإله! في بعض الأحيان، كانت ألعابهم تتحوّل إلى معركة وفي هذه

المعارك لم يكن الملك دائمًا هو الأقوى، وقد منحته الضربات التي تلقّاها منه الكثير من التقدير والصداقة للسيد دو تريفيل، لاحقًا، حارب السيد دو تريفيل ضد آخرين في رحلته الأولى إلى باريس خمس مرّات؛ منذ وفاة الملك الراحل حتى بلوغ سن الرشد ما يقارب سبع مرّات دون احتساب الحروب والحصارات، ومنذ سن الرشد وحتى اليوم، حارب ربما مئة مرة أيضًا، على الرغم من الصعوبات والتهديدات التي عرقلت مسيرته، ها هو اليوم قائد الفرسان(4)، أي رئيس فيلق القياصرة الذي يحظى من الملك بتقدير كبير، ويخشاه الكاردينال، وهو الذي لا يهاب أحدًا، كما يعلم الجميع. بالإضافة إلى ذلك، يكسب السيد دو تريفيل عشرة آلاف إيكو سنويًّا، لذلك فهو سيد عظيم جدًّا لقد ابتدأ مثلك، اذهب إليه وسلمه هذه الرسالة، وكُن معه، وافعل ما يفعله لتصير مثله".

عقب ذلك، قلد الأب دارتانيان سيفه لابنه، وقبّله بحنان على خدّيه ومنحه مباركته.

عند مغادرة غرفة الأب، وجد الشاب أمه تنتظره، فسلمته وصفتها وأوصته باستخدامها في حالات الجرح بصفة متكررة. كان الوداع أطول وأكثر حنانًا في هذا الجانب مما كان عليه في الجانب الآخر، ليس لأن السيد دارتانيان(5) لا يُحب ابنه الوحيد، لكنه كان رجلًا، ومن غير اللائق للرجل أن ينغمس في شؤون عاطفية، بينما كانت السيدة دارتانيان امرأة، وعلاوة على ذلك فهي أم، لهذا بكت بغزارة، ودعونا نقول ذلك لمدح السيد دارتانيان الابن، فهما كانت الجهود التي بذلها للمحافظة على حزمه كما ينبغي أن يكون الفرسان المستقبليون، فقد تغلّبت عليه الطبيعة وذرف عبرات غزيرة وجد صعوبة كبيرة في إخفاء نصفها.

في اليوم نفسه انطلق الشاب مصحوبًا بالهدايا الأبوية الثلاث التي تتكوّن -كما قلنا- من خمسة عشر إيكو، وحصان ورسالة إلى السيد دو تريفيل، وكما نعتقد جيدًا، كانت النصائح على رأس ذلك كله.

بوساطة النصائح الملازمة وجد دارتانيان نفسه، معنويًّا وجسديًّا، نسخة طبق الأصل من بطل سيرفانتيس(6)، الذي شبهناه به عندما فرضت علينا واجبات

المؤرخ رسم صورته. كان الدون كيشوت يتوهم طواحين الهواء عملاقة والأغنام جيوشًا، وتوهم دارتانيان كل ابتسامة إهانة، وكل نظرة استفزازًا، ونتيجة ذلك، شدّ قبضته وجعلها متأهّبة دائمًا. وطوال الطريق من تاريس إلى مونغ كان بين الفينة والأخرى يضع يده على مقبض سيفه عشر مرات في اليوم، لكنه لم يُخرِج السيف من غمده، ليس بسبب منظر الحصان الأصفر المؤسف الذي استدعى ابتسامات كثيرة على وجوه المارّة، ولكن كما ورد أعلاه، كان يقلّد سيفًا مجلجلًا ذا حجم معتبر، وفوق الحصان أضاءت عين شرسة بدل أن تكون فخورة، لهذا قام المارة بإيقاف مرحهم الصاخب، وإذا كان ضحكهم لم يتفوق على حذرهم، فإنهم حاولوا على الأقل الضحك من جانب واحد فقط، مثل الأقنعة القديمة، لذلك ظل دارتانيان مهيبًا، لا تهتز مشاعره حتى بلوغه هذه المدينة المؤسفة المسماة مونغ.

ولكن هنا، وعندما نزل عند باب، نزل الفرانك مونييه وقف منتظرًا أن يأتي المضيف، أو صبيًّا أو سائسًا لأخذ الحصان إلى الإسطبل، فلاحظ دارتانيان في نافذة نصف مفتوحة في الطابق الأرضي رجلًا نبيلًا حسن المظهر وطويل القامة، وعلى الرغم من تجهّمه، كان يتحدّث إلى شخصين بدا أنهما يستمعان إليه باحترام، فاعتقد دارتانيان بشكل طبيعي تمامًا، كما كان معتادًا، أنّه صار موضوع المحادثة، فأرخى سمعه. هذه المرة كان دارتانيان نصف مخطئ فقط، لم يكن الأمر يتعلّق به، ولكن كان الحديث عن حصانه، وبدا أن السيد المحترم كان يعدّد لمستمعيه مميزاته، وكما قلت، بدا أن المستمعين يحترمان الراوي، فقد كانا في اللحظات كلها يقهقهان عاليًا، والآن، بما أنّ نصف ابتسامة كانت كافية لإثارة غضب الشاب، فإننا نتفهم تأثير هذا المرح الصاخب عليه.

ومع ذلك، أراد دارتانيان أولًا أن يُمعن النظر إلى وجه الرجل الوغد الذي كان يسخر منه، فنظر إلى الغريب نظرة كبرياء وتعرّف إلى رجل ما بين الأربعين والخامسة والأربعين، ذي عينين سوداوين ثاقبتين، وبشرة شاحبة، وأنف بارز بشدة، وشارب أسود مشذب بعناية، كان يرتدي صدرية أرجوانيّة، وبنطلونًا قصيرًا باللون نفسه من دون أي زخرفة، بخلاف فتحة الكم المعتادة التي يمرّ بها

القميص، على الرغم من أن هذه الصديرية والبنطلون المزدوج جديدان، فإنهما بدوا مجعدين يشبهان ملابس من قام برحلة طويلة. قام دارتانيان بهذه الملاحظات كلها بسرعة مراقب دقيق جدًا، ولا شك أن شعورًا غريزيًا نبأه أن هذا الغريب سيكون له تأثير كبير على حياته القادمة.

الآن، كما هي الحال في اللحظة التي ركّز فيها دارتانيان نظرته على الرجل النبيل ذي الصديرية الأرجوانية، ذكر الرجل النبيل واحدة من ملاحظاته الأكثر تعليمًا وعمقًا، فانفجر مستمعاه ضاحكين، ومن الواضح أنه رسم ابتسامة شاحبة على وجهه على عكس عادته، إذا جاز لنا التعبير بهذه الطريقة هذه المرة لم يعد هناك أي شك، لقد شعر دارتانيان بإهانة حقيقية، لذا سحب قبّعته فوق عينيه بغضب شديد، وحاول تقليد بعض تصرفات أهل البلاط التي رآها في جاسكون لدى أمراء مسافرين، فتقدم ويده على مقبض سيفه، واليد الأخرى تتكئ على الوِرْك. لسوء الحظ، كلّما تقدَّم كاد الغضب يعميه أكثر فأكثر، فبدلًا من الخطاب الكريم والمتغطرس الذي أعدّه لصياغة استفزازه، وجد نفسه شخصية فظّة ترافقها حركة غاضبة.

ناداه قائلًا:

- مهلًا أيها السيّد، أنت من تختبئ خلف مصراع النافذة! نعم، أخبرني قليلًا بما يضحكك كي نضحك معًا.

حوَّل السيد النبيل ببطء عينيه من مشاهدة الفرس إلى الفارس، بدا كأنّه استغرق بعض الوقت ليدرك أن مثل هذا العتاب الغريب كان موجّهًا إليه، وعندما تأكّد وزال شكه، قطب حاجبيه قليلًا، وبعد لحظة مديدة من التفكير، أجاب دارتانيان بنبرة من السخرية والوقاحة منقطعي النظير:

- أنا لا أتحدث إليك يا سيّدي.

- لكنّي أتحدّث إليكم!

صاح الشابّ غاضبًا من هذا المزيج من الوقاحة والأخلاق واللياقة والازدراء،

فنظر إليه الغريب برهة أطول بابتسامته السريعة، وبعد انسحابه من النافذة، غادر النزل ببطء، ليقترب من دارتانيان، وعلى بعد خطوتين وقف أمام الحصان، لقد ضاعف سلوكه الهادئ ووجهه الساخر من مرح اللذين كان يتحدث إليهما واللذين مكثا بجوار النافذة.

عندما رآه دارتانيان يقف أمامه، سحب سيفه بخفة من غمده، وتابع الغريب:

- كان هذا الحصان حتمًا أو بالأحرى كان زهرة ذهبية في شبابه، متابعًا تقصّيه الذي بدأه مخاطبًا مستمعيه الواقفين خلف النافذة، دون أن يظهر عليه بأي شكل من الأشكال اهتمام بسخط دارتانيان، ثم أضاف الغريب:

- إنه لون معروف جيدًا في علم النباتات، لكنّه نادر جدًا حتى الآن في الخيول.

صرخ دارتانيان غاضبًا:

- الشخص الذي يضحك من الحصان، لن يجرؤ على الضحك من السيّد!

قال الغريب:

- لا أضحك إلّا لماما يا سيّدي، وقد لاحظت ذلك بنفسك من ملامح وجهي؛ لكنّني ما زلت أريد الضحك عندما يعجبني ذلك.

صاح دارتانيان:

- وأنا لا أريد أن يضحك الناس عندما لا أحب ذلك!

واصل الغريب هدوءه الشديد أكثر من أي وقت مضى وقال:

- في الحقيقة يا سيدي، أجد أن هذا صحيح تمامًا.

بعد ذلك استدار ليعود من حيث أتى، وتهيَّأ لدخول النزل من الباب الكبير.

لكنَّ دارتانيان لم يَكُنْ من الأشخاص الذين يستسلمون لوقاحة وسخرية أي رجل كيفما كان شأنه، فأخرج سيفه من غمده وبدأ المهجوم صارخًا:

- استدِرْ، استدِرْ، أيها الساخر الضاحك، حتى لا أضربك من الخلف.

- تضربني! فقال الآخر وهو يلتفت بسرعة وينظر إلى الشاب نظرة تعبّر عن الدهشة أكثر من الاحتقار: "هوّن عليك، مهلًا يا عزيزي، هل أنت مجنون؟"

ثمّ بصوت خفيض كأنه يتحدّث إلى نفسه:

- إنه أمر مؤسف، يا له من اكتشاف لجلالة الملك الذي يبحث عن رجال شجعان من الجهات جميعها لتجنيدهم فرسانًا له!

ولم يكَد ينهي كلامه حتى هاجمه دارتانيان بضربة عنيفة بحد سيفه، ولو لم يقفز الغريب سريعًا إلى الخلف، لكانت تلك مزحته الأخيرة، رأى الغريب أنَّ المسألة تجاوزت التهكّم، فاستلّ سيفه، وحيّا خصمه، وحذره بشدة.

لكن في هذه اللحظة ذاتها، انقضَّ اثنان من مرافقيه يساندهما صاحب النزل، وانهالوا على دارتانيان بضربات قوية بوساطة عِصي ومجارف وملاقط، أدّى هذا إلى تحوّل سريع وكامل في وضعية المعركة، حتى إنَّ خصم دارتانيان توقّف مكانه، وانشغل دارتانيان بمواجهة هذا الوابل من الضربات، فأصبح الغريب في منأى عن القتال، وغدا مرةً أخرى مجرد متفرّج على القتال، وهو الدور الذي قام به بهدوئه المعتاد، بينما شرع يتمتم ساخطًا:

- يا هؤلاء الجاسكونيين!

- ضعه على حصانه البرتقالي، واتركهُ يذهب!

- ليس قبل أن أقتلك أيها الجبان! صرخ دارتانيان وهو يبدّل كل ما في وسعه للدفاع عن نفسه، ودون أن يتراجع خطوة عن مواجهة أعدائه الثلاثة المنهمكين في ضربه.

- جاسكونيّ آخر، غمغم الرجل النبيل: "أقسم إنّ هؤلاء الجاسكونيين لا يمكن إصلاحهم أبدًا! لذا استمر في ضربه؛ لأنه يريد ذلك تمامًا، وعندما يصير منهمكًا، سيطلب العفو". لكن الغريب لم يعرف بعد أي نوع من الرجال العتيدين كان

يتعامل معه؛ لم يكن رجلًا يطلب الرحمة مطلقًا، لذلك استمر القتال ليضع ثوان أخرى؛ وأخيرًا، صار دارتانيان منهكًا، فترك سيفه يسقط بعدما تلقى ضربة بعصًا، فانكسر إلى قطعتين.

ثم تلقى ضربة أخرى جشت جبهته، فأسقطته أرضًا في اللحظة نفسها تقريبًا، وتضرَّج بالدماء، وكاد يفقد وعيه، عندها هرع الناس من الجهات جميعها إلى مكان الحادث خوفًا من الفضيحة، فقام صاحب النزل يحمل الجريح بمساعدة خدمه، فأدخلوه إلى المطبخ حيث تلقّى بعض العلاجات. أما بالنسبة للرجل النبيل، فقد عاد ليحتلّ مكانه خلف النافذة ناظرًا بفارغ الصبر إلى هذا الحشد كله، والظاهر أن مكوثه هناك أزعجه كثيرًا.

- حسنًا، كيف حال هذا المجنون؟

وتابع مستديرًا عند سماع صوت الباب المنفتح مخاطبًا صاحب النزل الذي جاء للاستفسار عن حالته الصحيّة.

- هل سعادتكم سالمون؟ سأل صاحب النزل.

- نعم، سليم تمامًا أيها المضيف العزيز، وأنا من يسألك عمَّا حل بفتانا.

- قال صاحب النزل: إنه أفضل، لكنّه فقد وعيه تمامًا.

- حقًا؟ قال السيد النبيل.

- ولكن قبل أن يفقد وعيه، استجمع قواه كلها وناداك وطالب بتحديك.

- إنه إذن الشيطان نفسه، هذا الفتى الصنديد! صاح الغريب.

ردّ صاحب النزل بتجهّمٍ وازدراء:

- أوه! لا يا صاحب السعادة ليس شيطانًا، لأنه أثناء فقدانه للوعي، قمنا بتفتيشه، فوجدنا قميصًا واحدًا في حقيبته وفي كيسه أحد عشر إيكو فقط، وهو ما لم يمنعه من أن يقول وهو يغمى عليه إنه إذا حدث شيء كهذا في باريس، فإنّك

ستندم عليه فورًا، بينما هنا ستندم عليه لاحقًا.

قال الغريب ببرود:

- إذن هو سليل أمراء يخفي نفسه.

قال صاحب النزل:

- أقل لك هذا يا سيّدي كي تكون على أهبة الاستعداد.

- ألم يذكر اسم أحد أثناء غضبه؟

- نعم، كان يضرب جبينه ويقول: سنرى ما سيقول السيّد دو تريفيل بشأن هذه الإهانة التي يتعرّض لها من في حمايته.

قال الغريب منتبهًا:

- السيّد دو تريفيل؟ ضرب جبينه بينما كان ينطق باسم دو تريفيل؟ حسنًا يا مضيفي العزيز، بينما كان شابُّك فاقدًا للوعي، أنا متأكّد أنك لم تتوانَ لحظة عن تفتيش الجيب الذي كان يشير إليه!

- رسالة موجّهة إلى قائد الفرسان السيد دو تريفيل.

- حقيقية!

- نعم حقيقية، كما يُشرّفني أن أُحدّثك يا سيّدي.

لم يكن صاحب النزل موهوبًا ببصيرة عظيمة، فلم يلاحظ التعبير الذي خلّفته كلماته على محيا الغريب، ترك هذا الأخير حافة النافذة التي ما زال يستند عليها بطرف مرفقه، وقطب عابسًا وهمس قلقًا:

- يا له من شيطان! هل أرسل لي تريفيل هذا الجاسكوني؟ إنه صغير جدًا! لكنّ ضربة السيف هي ضربة سيف، بغض النظر عن عمر من يُسدّدها، وتحدّي طفل واحد أقل ثقة من أي طفل آخر في بعض الأحيان تكون عقـــــبة صغيرة كافية

لإحباط تصميم كبير.

وأطرق الغريب مستغرقًا في تفكيره الذي دام بضع دقائق.

قال: "هيّا يا مضيفي، ألن تخلّصني من هذا المجنون؟ ضميري لا يسمح لي بقتله"، ومع ذلك، أضاف بتعبير ينطوي على تهديد مُبطَّن:

- لكنُّه يحرجني، أين هو؟

- في غرفة زوجتي في الطابق الأول حيث تضمّد جراحه.

- هل ملابسه وحقيبته معه؟ لم يخلع معطفه؟

- على العكس من ذلك، متاعه في الطابق السُّفلي في المطبخ، لكنْ بِمَ يزعجك هذا الشاب المجنون؟

- من دون شكّ، سيتسبب في فضيحة تُهدّد سمعة نزلك، لا يستطيع زبائنك الشرفاء تحمّلها، اصعد إلى نزلك، وجهّز لي حسابي ونبّه خادمي.

- ماذا؟! هل سترحل الآن يا سيّدي؟

- أنت تعرف ذلك، لأنّني أمرتك أن تسرج لي حصاني، هل قمت بذلك؟

- نعم، وكما ترى سعادتكم، فإنّ حصانك تحت الباب الأمامي، كلُّ شيء على أهبة الاستعداد للمغادرة.

- حسنًا، افعل إذن ما قلت لك.

- حاضر!

فكّر صاحب النزل في نفسه هل يخاف من هذا الفتى؟ لكن الغريب حدجه بنظرة آمرة منعته من التمادي في السؤال، فانحنى بتواضع وغادر.

- لا يجب أن يرى هذا الرجل المضحك ميلادي(7)

وتابع الغريب كلامه:

- لن يمرَّ وقت طويل لتصل، لقد تأخرت حقًّا، من الأفضل حتمًا أن أركب حصانًا وأسعى لمقابلتها... لو كان بإمكاني فقط معرفة ما تحويه هذه الرسالة الموجهة إلى تريفيل! ثم توجّه الغريب إلى المطبخ، وخلال هذا الوقت، كان صاحب النزل الذي لم يكن لديه شكّ في أنَّ وجود الصبيُّ الصغير هو ما تسبب في طرد الغريب من نزله، فعاد إلى زوجته ووجد دارتانيان قد استعاد وعيه أخيرًا.

لذلك، حاول أن يُفهِمه أن الشرطة يمكن أن تتدخل بسوء في الأمر، لأنّه سعى إلى الشجار مع سيّد عظيم -ولأن الغريب، في رأي صاحب النزل، قد يكون سيّدًا عظيمًا فعلًا، لهذا حثّه أن يغادر النزل بسرعة، بالرغم من وضعيته الصحية الضعيفة.

قام دارتانيان شبه مذهول، دون صدرية ورأسه ملفوف بأشرطة الكتّان، حثّه صاحب النزل، فبدأ بالنزول، لكن عندما وصل إلى المطبخ، كان أول ما رآه هو مستفزّه الذي كان يتحدث بهدوء مستندًا إلى سُلّم عربة يجرّها حصانان نورمانديان كبيران، كانت محاورته التي ظهر رأسها محاطًا بإطار الباب، امرأة ما بين العشرين والثانية والعشرين من العمر، وقد سبق أن ذكرنا بالفعل ما كان يتميز به دارتانيان من سرعة فراسة عالية، لذلك رأى للوهلة الأولى أنّ المرأة كانت شابة وجميلة، والآن أذهله هذا الجمال أكثر، لأنّه كان غريبًا ونادرًا تمامًا في البلدان الجنوبية حيث يقيم دارتانيان حتّى ذلك الحين. كانت المرأة شاحبة وشقراء، ذات شعر طويل مُجعّد يتداعى على كتفيها، وعيناها زرقاوان كبيرتان، وشفتاها ورديتان، ويداها مرمريتان، كانت تتحدّث بحيويّة مع الشخص الغريب.

قالت السّيدة:

- هل هذا ما تأمرني به سماحتك... أن أعود فورًا إلى إنجلترا وإخطارك مباشرة إذا غادر الدوق لندن؟ وماذا عن تعليماتي الأخرى؟ سألت المسافرة الجميلة.

- وضعتُ في هذه العلبة، ولن تفتحيها إلا على الجانب الآخر من المانش.

- جيد جدًّا، وأنت ماذا ستفعل؟

- سأعود إلى باريس.

- دون معاقبة هذا الصبيِّ الصغير الوقح؟ سألت السيدة.

كان الغريب على وشك الإجابة، لكنّه ما كاد يفتح فمه حتى اندفع دارتانيان الذي سمع كلّ شيء إلى عتبة الباب، وصرخ قائلًا:

- إنَّ هذا الطفل الصغير الوقح هو من يعاقب الآخرين، وآمل أن لا يفلت مَن سيعاقبه مثل المرة الأولى.

- لن يهرب منه؟ قال الغريب مقطبًا.

- لا أعتقد أنك ستجرؤ على الهرب في حضرة امرأة.

هتفت المرأة عندما رأت الرجل النبيل يمدُّ يده إلى سيفه:

- فكّر، أعتقد أن أدنى تأخير يمكن أن يفسد كلُّ شيء.

صرخ السيد:

- أنتِ محقّة، لذا ارحلي من جانبك، وأنا سأغادر من جانبي.

أومأ برأسه للسيدة، وقفز على متن حصانه، بينما الحوذي فرقع سوطه بقوة، فانطلق المتحاوران في عدوهما، فابتعد كلّ منهما في اتجاه معاكس من الشارع.

صاحب صاحب النزل الذي تحوّلت محبته لمسافره إلى ازدراء عميق عندما رآه يتجوّل دون تسوية مصاريف الخدمة.

- مهلاً! أين المصاريف؟

صاح المسافر الذي كان ما زال يركض مخاطبًا خادمه:

- ادفع للوغد.

ألقى الخادم قطعتين أو ثلاث قطع من الفضة عند قدميّ صاحب النزل وطفق يركض خلف سيده.

- أنت أيّها الجبان، أيّها البائس، يا لك من رجل كاذب! صرخ دارتانيان، وانطلق بدوره وراء الخادم، لكن الجريح كان ما يزال أضعف من أن يتحمل مثل هذا الركض العنيف، ما إن خطا عشر خطوات حتى سمع طنينًا في أذنيه، وشعر بلطمة وهج، وغشيتْ سحابة قانية عينيه فسقط في منتصف الشارع وهو يصرخ مرّة أخرى:

- أيّها الجبان! أيّها الجبان! أيّها الجبان!

تمتم صاحب النزل:

«إنّه حقًّا أشدُّ جبنًا».

واقترب من دارتانيان، وحاول من خلال هذا الإطراء أن يتصالح مع الصبيِّ المسكين، تمامًا كما حدث في الخرافة بين مالك الحزين وحلزون المساء.

- نعم، جبان جدًّا، غمغم دارتانيان: لكنّها جميلة جدّاً!

- من؟ سأل صاحب النزل. «ميلادي»، قال دارتانيان مُتلعثمًا، وأغمي عليه مرّة ثانية، وقال صاحب النزل:

- لا يهمّ، لقد خسرت اثنين، لكن بقي هذا، وأنا متأكّد أنّني سأحتفظ به لبضعة أيام على الأقل، ما زال بإمكاني الحصول على أحد عشر إيكو.

نعلم أنّ أحد عشر إيكو كان المال المتبقّي في محفظة دارتانيان.

عدّ صاحب النزل أحد عشر يومًا من العناية الصحية وهي تساوي إيكو واحدًا عن كلّ يوم، لكنّه كان يعدّ في غياب المسافر. وفي اليوم التالي، استيقظ دارتانيان ما يقارب الساعة الخامسة صباحًا، ونزل بنفسه إلى المطبخ وسأل، بالإضافة إلى بعض المكونات الأخرى التي لم تتضمّنها قائمة طعامه، مثل الشراب، والزيت،

وإكليل الجبل، وكانت وصفة والدته في متناول يده، التي تتكوّن من بلسم يدهن به جروحه العديدة، ويجدّد لها الضمادات بنفسه ولم يقبل تدخّل أي طبيب، بلا شكّ، بفضل فعالية البلسم البوهيميّ، ربّما أيضًا بفضل غياب أي طبيب، كان دارتانيان واقفًا على قدميه في المساء نفسه، وصار في حالة جيّدة في اليوم التالي.

ولكن، عندما حان الوقت ليدفع ثمن إكليل الجبل، والزيت والشراب، وهو حساب السيّد الوحيد الذي حافظ على نظام غذائي مطلق، لكن في الجهة المقابلة كان حصانه الأصفر عكسه، فحسب ادعاء صاحب النزل، فقد أكل ثلاث مرّات ما لا يمكن للمرء أن يصدّقه مقارنة بحجمه، فوجد دارتانيان في جيبه كيسه الصغير المخمليّ فقط بالإضافة إلى الأحد عشر إيكو الموجودة داخله، أمّا الرسالة الموجهة إلى السّيّد دو تريفيل، فقد اختفت.

بدأ الشاب بالبحث عن الرسالة بصبر كبير، ففتّش جيوبه وحجرته عشرين مرّة، ثمّ قام بتفتيش حقيبته وأعاد إفراغها، وفتح كيسه وأغلقه، لكن عندما وصل إلى قناعة أنّ الرسالة لا يمكن العثور عليها في أيّ مكان، دخل في نوبة غضب ثالثة، ممّا جعله يستهلك مزيدًا من الشراب والزيت المنكّه، وعندما رأى صاحب النزل هذا الرأس الشرير يسخن ويهدّد بتحطيم محتويات النزل كلّها إذا لم يعثر على رسالته، سارع بالفعل إلى تناول رمح، وأخذت زوجته مكنسة، وتناول أولاده العصي نفسها التي استخدمت في الحراسة.

صرخ دارتانيان:

- أين هي رسالة التوصية خاصّتي؟ أين هي رسالة التوصية خاصّتي؟ اللعنة! وإلا سأفقأكم جميعًا مثل البثور!

لسوء الحظ، طرأ ظرف واحد منع الشاب من تنفيذ تهديده -كما قلنا-، وكان سيفه في معركته الأولى قد كُسِرَ إلى قطعتين وهو الأمر الذي نسيه تمامًا.

نتيجة ذلك، عندما عمدَ دارتانيان بالفعل إلى استلال سيفه، وجد نفسه مسلّحًا تمامًا وببساطة بقطعة صغيرة من السيف لا تراوح ثماني أو عشر بوصات،

والتي أدخلها صاحب النزل بعناية في الغمد، أما بقيّة النصل، فقد استولى عليه صاحب النزل وحوّله ببراعة إلى وتد، ومع ذلك، فإنّ خيبة الأمل هذه ربّما لم تكن لتوقف الشاب المستعر غضبًا، إذا لم يفكّر صاحب النزل أنَّ مطالبة المسافر واحتجاجه كان صحيحًا تمامًا، فقال وهو ينزل رمحه:

- ولكن، على فكرة أين تلك الرسالة؟

- نعم أين هذه الرسالة؟ صرخ دارتانيان: «أوّلًا، أحذرك، فهذه الرسالة موجّهة إلى السيد دو تورفيل، ويجب العثور عليها، وإذا لم نعثر عليها، سيعرف هو كيف يجدها!

انتهى هذا التهديد بأن شعر صاحب النزل بالذّعر.

كان السيد دو تورفيل بعد الملك والكاردينال الرجل الذي ربّما يتكرر اسمه في أغلب الأحيان من قِبل الجيش وحتى من قبل البورجوازية. كان الأب جوزيف «يوسف» أيضًا، هذا صحيح، لكن اسمه لا يُنطق إلا همسًا، وكان الرعب المستشري من السماحة الرماديّة عظيمًا، كما كان يُطلق على الكاردينال المألوف.

لذلك، ألقى رمحه بعيدًا، وأمر زوجته أن تفعل الشيء نفسه بعصا المكنسة وأبناءه وخدمه بعِصيّهم، فأسرع إلى البحث عن الرسالة المفقودة، ليكون مثالاً للآخرين.

- هل تحتوي هذه الرسالة على أيّ شيء ذي قيمة؟ سأل صاحب النزل، بعد لحظة من التفتيش غير المجدي.

- يا إلهي! لا أصدّق ذلك! صاح الجاسكوني الذي كان يعتمد على هذه الرسالة ليشقّ طريقه إلى البلاط: كانت تضمّ ثروتي.

- هل هي سندات للادخار؟ سأل صاحب النزل قلِقًا.

أجاب دارتانيان: سندات من أجل خزانة صاحب الجلالة الخاصة.

كان يعتقد أنّه سيدخل خدمة الملك بفضل هذه التوصية، لهذا ردّ بطريقة تلقائية، ودون موارية أو كذب.

- اللعنة! قال صاحب النزل يائسًا.

- لكن لا يهم، وواصل دارتانيان حديثه بثقة بالنفس: لا يهمّ، المال لا شيء، كانت هذه الرسالة كلَّ شيء، كنت أفضل أن أفقد ألف بستول بدلًا من أن أفقدها.

لم يجازف بقول عشرين ألفًا، لأن حياء الفتوة منعه من ذلك.

وفجأة ظهر بصيص من الضوء؛ إذ فكر صاحب النزل متذكرًا تفصيلًا مهمًّا، فصرخ:

- هذه الرسالة لم تضِعْ.

- عجبًا! قال دارتانيان.

- لا، لقد سُرقت منك.

- سُرِقَتْ! ومن سرقها؟

- سرقها سيّد البارحة، لقد نزل إلى المطبخ حيث كانت صدريّتك، ومكث هناك وحده، أراهن أنه هو من سرقها.

- هل تعتقد ذلك؟ أجاب دارتانيان دون اقتناع، لأنّه كان يعلم أكثر من أيّ شخص آخر الأهمية الشخصية لهذه الرسالة، ولم يرَ فيها شيئًا يغري بالجشع.

الحقيقة أن لا أحد من الخدم ولا من المسافرين الحاضرين سيحصل على أي شيء باستحواذه على هذه الورقة.

أجاب دارتانيان: أنت تقول إذن إنّك تشكُّ في هذا الرجل الوقح.

- أقول لك إنّني متأكّد من ذلك، تابع صاحب النزل، عندما أعلنتُ له أنّ سيادتكم كنت تحت رعاية السيّد دو تريفيل، وأنّك تملك رسالة موجّهة لهذا

الرجل اللامع، بدا قلِقًا للغاية، وسألني عن مكان هذه الرسالة، ونزل على الفور إلى المطبخ حيث يعلَم أنّ صدريتك هناك.

أجاب دارتانيان:

- إذن، هو من سرقني. سأقدّمُ شكوى إلى السيد دو تريفيل، وسيتقدّم السيد دو تريفيل بشكوى إلى الملك.

ثمّ قام بسحب عُملتَي إيكو من جيبه وقَدّمَهما بشكل مهيب للمضيف وهو يرافقه إلى الباب وقبّعته في يده، وامتطى فرسه الأصفر الذي قادَته دون وقوع مزيد من الحوادث إلى باب سان أنطوان في باريس، حيث باعها بثلاث إيكوات، وهو ثمن جيّد، بحكم أن دارتانيان أجهدها كثيرًا خلال المرحلة الأخيرة.

كما أنّ تاجر الخيول الذي باعه دارتانيان مقابل تسعة جنيهات سالفة الذكر لم يخف عن الشاب أنّه أعطى هذا المبلغ الباهظ فقط بسبب أصالة لونه، لذلك، دخل دارتانيان إلى باريس سيرًا على الأقدام حاملًا صُرَّة صغيرة تحت ذراعه، وسار بحثًا عن غرفة للإيجار تتناسب مع ضآلة موارده. كانت هذه الغرفة نوعًا من العلّيّة، وتقع في شارع الفوسوايور، بالقرب من لوكسمبورغ.

بمجرّد أن حصل دارتانيان على مسكنه، قضى بقية اليوم في خياطة صدريّته وملابسه الداخلية التي فصّلتها والدته من صدرية جديدة تقريبًا لوالده السيد دارتانيان الأب والتي أعطتها له سرًّا، ثم ذهب إلى رصيف الخردة ليعيد النصل إلى سيفه، ثمّ عاد إلى متحف اللوفر للاستعلام مِن أوّل فارس سيقابله عن موقع قصر دو تريفيل الذي كان يقع في شارع فود كولومبييه، أيّ بالتحديد في حيّ الغرفة التي ججزها دارتانيان، ظرف بدا له فألًا سعيدًا ليساعده في نجاح رحلته.

وعقب ذلك، رضي بالطريقة التي تصرّف بها في مونغ، غير نادم على الماضي، واثق من الحاضر ومليء بالأمل في المستقبل، استلقى ونام نوم الشجعان، هذا النوم الذي ما زال ريفيًّا تمامًا، استطابه حتّى الساعة التّاسعة صباحًا، الساعة التي

قرّر فيها الذهاب إلى منزل السيّد دو تريفيل الشهير؛ الشخص الثالث في المملكة وفقًا لتقدير والده.

2

في غرفة انتظار السيد دو تريفيل

كان السيِّد دو تريفيل، كما كانت تدعى عائلته في جاسكون، أو السيد دو تريفيل، كما أطلق على نفسه في باريس، قد بدأ مشواره مثل دارتانيان قطعًا دون أي فلس في الجيب، ولكن برصيد من الشجاعة والجرأة والذكاء والتفاهم. وهذا يعني أن أفقر شخص في جاسكون كان غالبًا ما يتلقى من آماله في الميراث الأبوي أكثر ممّا يتلقاه أغنى رجل نبيل من بيريغور أو بيري. إن شجاعته الوحشية، وسعادته الأكثر وقاحة في وقت كانت الضربات تمطر مثل البرد تجعله يصعد إلى قمّة السلم الصعب المسمى خدمة البلاط بخفة وسرعة. كان دو تريفيل صديق الملك، يحبه ويكرمه كثيرًا، لذكرى والده هنري الرابع كما يعلم الجميع؛ لقد خدمه والد السيد دو تريفيل بأمانة في حروبه ضد العصبة.

كان يبذل الكثير من أجل الشرف، لكنه كان سيئًا في حياة الرفاهية أيضًا. عندما توفي الصديق اللّامع لهنري العظيم، كان ميراث ابنه الوحيد سيفه وسمعته. بفضل هذه الهدية المزدوجة والاسم الناصع الذي رافقته، قبل السيد دو تريفيل في منزل الأمير الشاب، حيث استخدم سيفه جيدًا وكان مخلصًا جدًّا لشعاره، أن لوي الثالث عشر أحد سيوف المملكة الماهرين -كما كان معتادًا أن يقول- إذا كان لديه صديق مقاتل، فسوف ينصحه أن يحتلّ المرتبة الثانية، هو أولًا، وتريفيل بعده، وربّما حتى قبله.

إذن كان لوي الثالث عشر مرتبطًا ارتباطًا حقيقيًّا بتريفيل، ارتباطًا ملكيًّا، وارتباطًا أنانيًّا، هذا صحيح، لكنّه مع ذلك كان ارتباطًا؛ لأن في هذه الأوقات العصبية، حاول كثير من الأشخاص جاهدين إحاطة أنفسهم برجال مخلصين من عيار تريفيل. كان تريفيل واحدًا من هؤلاء المخلصين العتيدين، كان يشكل واحدًا من التنظيمات النادرة، بذكاء مطيع مثل ذكاء كلب الدرواس، وبشجاعة أعمى،

وعين ثاقبة، ويد سريعة، لم يمنح العين المتيقّظة إلا لمعرفة ما إذا كان الملك مستاءً من شخص واليد إلا ليضرب بها هذا الشخص البغيض، من نوع البيسمي، والموريفير، والبولترو دو ميري، وفيتري.

وأخيرًا فإنَّ تريفيل كان ينتظر الفرصة فقط، لكنه كان يُراقبها، وقرر أن يمسكها من شعراتها الثلاث إذا صارت في متناول يده، كما صنع لوي الثالث عشر مع تريفيل قائد فرسانه، الذي ينتمي إلى لوي الثالث عشر، من أجل تفانيه أو بالأحرى من أجل تعصّبه. من جانبه، وفي سياق هذه العلاقة، لم يكن الكاردينال متوافقًا مع الملك، عندما رأى النخبة الهائلة التي أحاط بها لوي الثالث عشر نفسه، أراد هذا الملك الثاني، أو بالأحرى هذا الملك الأول لفرنسا أن يكون له حراسه أيضًا، لذلك كان لديه فرسانه مثل لوي الثالث عشر، ورأينا هاتين القوتين المتنافستين تنتقيان من يكون في خدمتهما، في مقاطعات فرنسا كلها وحتى في الولايات الأجنبية جميعها، من الرجال المشهورين بضربات السيف العظيمة، كما كان يتشاجر ريشليو ولوي الثالث عشر في كثير من الأحيان، وهما يلعبان في المساء لعبة الشطرنج، حول مزايا خدمهما، وكان كل واحد منهما يثني على سلوك وشجاعة فرسانه، وبينما كانا يتحدثان بصوت عالٍ ضد المبارزات والمشاجرات، كانا يستثيرانها خلسة، مدعين حزنًا حقيقيًّا أو فرحة لا حصر لها لهزائمهما أو انتصاراتهما.

كان تريفيل قد استغل الجانب الضعيف لدى سيده، وكان يدين لهذه المهارة بالخدمة الطويلة والثابتة لدى ملك لم يتخلَّ عنه لكونه مخلصًا جدًّا وأحد أصدقائه، لقد عرض فرسانه أمام الكاردينال آر ماند دوبليسيس بابتسامة متكلفة جعلت الشارب الرمادي لسماحته ينتفش من شدة الغضب، فهم تريفيل في ذلك الوقت بشكل مثير للإعجاب أسرار الحرب، عندما لا يستطيع المرء العيش على حساب العدو، يعيش على حساب مواطنيه، شكل تريفيل من جنوده فيلقًا من الشياطين من أربعة فرسان، لا يطيعون أي شخص آخر سواه.

كـــان فرسان الملك، أو بالأحرى فرسان السيد دو تريفيل وقحين، متأهبين

للقتال، ينتشرون في الملاهي، في المتنزهات، في الألعاب العامة، وهم يصرخون بصوت عالٍ وهم يفتلون شواربهم، ويقرعون سيوفهم، وبسرور يصطدمون مع حراس الكاردينال عندما يقابلونهم، فيسخرون منهم فيقاتلون أحيانًا، لكن من المؤكد أنهم في كثير من الأحيان يَقتلون، ودون أن يعاقبوا بالسجن، لأن السيد دو تريفيل كان على كل لسان، ويستوجب الإشادة والطاعة في كل مكان.

بدا فناء المنزل الذي يُقيم فيه، والكائن في شارع دو فو - كولومبييه كأنه معسكر، يبدأ من الساعة السّادسة صباحًا في الصيف ومن الساعة الثامنة صباحًا في الشتاء، يتكوّن من خمسين إلى ستين فارسًا، كانوا يتناوبون على تقديم عدد كبير دائمًا، كانوا يتجوّلون بلا توقف، مسلحين للحرب ومستعدين لأي شيء، على طول أحد سلالمها العظيمة في الموقع الذي ستبني فيه حضارتنا منزلًا كاملًا، كان ملتمسو باريس يسعون وراء أي نوع من الحظوة، من سادة الأقاليم المتحمّسين للتجنيد، والخدم المبرقشون بمُختلف الألوان الذين جاؤوا عند السيّد دو تريفيل ليطلعوه على رسائل أسيادهم.

في غرفة الانتظار، وعلى مقاعد دائرية طويلة، جلس المنتخبون، أي أولئك الذين تم استدعاؤهم، يستمر الضجيج هناك من الصباح حتى المساء، بينما السيد دو تريفيل، في مكتبه المجاور لغرفة الانتظار يستقبل الزوّار، ويستمع إلى الشكاوى، ويصدر أوامره، ومثل الملك في شرفته في اللوفر كل ما كان عليه فعله هو الوقوف في شرفته ومشاهدة الرجال والأسلحة.

في اليوم الذي قدّم فيه دارتانيان نفسه، كان الحشد غفيرًا، خاصة بالنسبة لقروي قادم من الريف، صحيح أن هذا الريف كان غاسكون، وخاصة في ذلك الوقت، كان أبناء منطقة دارتانيان يتمتّعون بسمعة الذين لا يرهبهم شيء، في الواقع، بمجرد أن نعبر الباب الضخم، المشدود بمسامير طويلة ذات رؤوس شبه مستديرة، نجد أنفسنا وسط مجموعة الفرسان يتقاطعون في السير مع بعضهم في الفناء، وينادون بعضهم، ويتشاجرون ويلعبون فيما بينهم. لتمهيد طريقك عبر كل هذه الموجات الدُّوارة، يجدر بك أن تكون ضابطًا أو قائدًا عظيمًا أو امـــرأة

جميلة.

لذلك، في وسط هذا الحشد وهذا الاضطراب، تقدم فتانا، نابض القلب، واضعًا سيفه الطويل على جانب ساقيه النحيفتين، وممسكًا حافة قبعته بيده تعلو محياه ابتسامة قروية خجولة ومحرجة تريد أن تظهر عزمًا وشجاعة، وإذا ما مرَّ بمجموعة، تنفَّس الصعداء بحرية أكبر، لكنه فهم أن أحدهم استدار لينظر إليه، وأول مرة في حياته، وجد دارتانيان، الذي كان حتى يومنا يحتفظ برأي جيد عن نفسه، أنه في منتهى السخافة.

عندما وصل إلى الدرج، كان الأمر أسوأ: كان في الدرجات الأولى أربعة فرسان يتسلَّون قبل التمرن التالي، بينما ينتظر عشرة أو اثنا عشر من رفاقهم عند صحن الدرج ينتظرون دورهم ليشاركوا في التمرين.

وقف أحدهم فوق الدرجة العلوية، وسل سيفًا رفعه بيده، ثم منع أو على الأقل حاول منع الثلاثة الآخرين من الصعود.

فواجهه الثلاثة الآخرون بسيوفهم الخفيفة الحركة والشديدة القوة، في البداية ظن دارتانيان أن هذه السيوف حسمت المبارزة، كما اعتقد أنها مزوّدة بأزرار واقية على رأس شفراتها، لكنه سرعان ما أدرك من خدوش معينة أن كل سلاح على العكس من ذلك كان حادًّا ومشفرًا حسب رغبة حامله، وعند صليل كل واحدة من هذه الخدوش، لم يكن المتفرّجون وحدهم من يستمتعون، بل كان الممثلون أنفسهم يضحكون بجنون.

كان صاحب الدّرجة العلوية في الوقت الحالي يوقف خصومه بشكل رائع، بحيث حاصرهم بحركة دائرية حولهم، كان الشرط أنه مع كل لمسة، سيغادر الملموس اللعبة، ويفقد دوره لصالح اللامس، خلال خمس دقائق، لُمس الثلاثة، واحد على الرسغ، والثاني على الذقن، والآخر على الأذن من طرف المدافع عن الدرجة العلوية، التي لم يتمكَّن الفرسان الثلاثة من الوصول إليها أو الوصول إليه نفسه.

عند صحن الدرج توقفوا عن المبارزات، وشرعوا في رواية قصص النساء، وقصص البلاط وحجرة الانتظار، في صحن الدرج شعر دارتانيان بالخجل، وفي قاعة الانتظار أحس بالرجفة، لم يكن خياله المتيقّظ والمتجول يجعل من الجاسكوني شخصًا مرتابًا من خادمات الغرف الصبيات وحتى في بعض الأحيان من الشابات، لم يحلم قط حتى في لحظات الهذيان هذه بنصف هذه الأعاجيب الغرامية وربع هذه الجرأة والبراعة الفائقة، المعززة بأشهر الأسماء، والتفاصيل الأقل تكتمًا، لكن إذا كان شغفه بالأخلاق الحميدة قد هوى عند صحن الدّرج، فإن احترامه للكاردينال قد تبخَّر مما سمعه من فضائح عنه في غرفة الانتظار.

كم كانت دهشته كبيرة، عندما سمع دارتانيان بصوت عالٍ انتقادات للسياسة التي تجعل أوروبا ترتعد، والحياة الخاصّة للكاردينال، والتي عوقب الكثير من الأسياد رفيعي المستوى والأقوياء لمحاولتهم البحث فيها وتأويلها: هذا الرجل العظيم الذي يحترمه السيد دارتانيان الأب كان أضحوكة بين فرسان السيد دو تريفيل، الذين سخروا من ساقيه وظهره المنحني، وتغنّى البعض بالسيدة دايغيلون عشيقته، والسيدة دي كومباليه ابنة أخته، بدت لدارتانيان كل هذه الأشياء الرهيبة أشدّ استحالة.

في حين عندما ذكر اسم الملك فجأة في خضم كل هذه الاستهزاءات الكاردينالية، فإن نوعًا من الكمامة تغلق لبرهة كل تلك الأفواه الساخرة، فينظر المرء حوله بتردد وكأنه يخشى من سماع السيد دو تريفير، ولكن سرعان ما تقدح إشارة إلى سماحته، ثم انطلقت الأحاديث مرة أخرى مفشية أدق أسراره وأفعاله.

- «بلا ريب، سيُعتقل هؤلاء الأشخاص ويتم شنقهم»، فكر دارتانيان مرعوبًا، وأنا معهم بلا شك، لأنني منذ اللحظة التي سمعتهم، صرت شريكًا لهم، ماذا سيقول والدي الذي حثني بشدة على احترام الكاردينال، إذا علم أنني كنت بصحبة مثل هؤلاء الملحدين؟

يمكن للمرء أن يتخيّل مع بعض الارتياب دون أن أفصح عن ذلك، لم يجرؤ دارتانيان على الانخراط في المحادثة، فقط كان يراقب بعينيه محترسًا، يصغي

بأذنيه إصغاء، مرهقًا حواسه الخمس بشغف حتى لا ينفلت منه شيء، وعلى الرغم من ثقته في توصيات والده، فقد شعر بنفسه مدفوعًا بأذواقه، ومجتذبًا بغرائزه إلى الثناء بدلًا من إلقاء اللّوم على الأشياء المُذهلة التي كانت تحدث أمامه.

ولأنه كان غريبًا تمامًا عن حشد حاشية السيد دو تريفيل، وما دامت هذه هي المرة الأولى التي يشاهد فيها هذا المكان، فقد سألوه عما يريد، بناءً على هذا الطلب، قدم دارتانيان نفسه بتواضع شديد، واعتمد على لقب مواطنه، وتوسل إلى خادم الغرف الذي جاء ليطرح عليه هذا السؤال أن يستأذن السيد دو تريفيل لمقابلته، وقد وعد هذا الأخير بنبرة محيرة أن ينقل له الطلب في الوقت المناسب.

بعدما استعاد دارتانيان نباهته قليلًا من دهشته الأولية، استغلّ الوقت المتاح للتمعن في الأزياء والهيئات الجسمانية للحاضرين.

في وسط المجموعة الأكثر حيوية، كان هناك فارس طويل القامة ذو وجه متغطرس وزيّ غريب لافت لانتباه الحاضرين، في الوقت الحالي، لم يكن يرتدي سترة الفارس الرسمية، التي علاوة على ذلك لم تكن إلزامية تمامًا في هذا العصر الذي كان يتمتع بقدر أقل من الحرية ولكن بقدر أكبر من الاستقلالية، كان يرتدي قميصًا أزرق سماويًّا، باهتًا إلى حد ذهبي، فوقه حمّالة سيف رائعة مطرزة بخيوط ذهبيّة، تتألق كقشور السمك تحت أشعة الشمس الساطعة، وفوقهما معطف طويل من المخمل القرمزي مرسل برشاقة فوق كتفيه، ولا ينكشف تحته سوى حزام رائع، يتدلّى منه سيف ضخم.

كان هذا الفارس قد دخل للتو وعلى حين غرة، مشتكيًا من إصابته بنزلة برد، وكان يسعل أحيانًا بتكلف، وسرعان ما أمسك معطفه، وأزاحه من حوله وهو يتحدث بكبرياء، ويلف شاربه بازدراء، كان حزامه المطرز محط إعجاب حماسي من الجميع، وكان دارتانيان أكثر من غيره.

قال الفارس: «ماذا تريدون؟ الموضة قادمة، إنه جنون، أعرف ذلك، لكنّها الموضة، علاوة على ذلك، يجدر بك أن تستخدم أموالك المشروعة في شيء ما».

- آه! يا بورتوس! صاح أحد الحاضرين، لا تحاول أن تجعلنا نصدق أن هذا الحزام مصدره كرم والدك، لقد أعطته لك السيدة ذات الخمار التي شاهدتك معها يوم الأحد الآخر عند باب القديس هونوري.(8)

- «لا، أقسم إنّي اشتريتها بنفسي، وبأموالي الخاصة»، أجاب الرجل الذي نودي عليه للتو باسم بورثوس.

- نعم، كما اشتريت لنفسي، قال فارس آخر، هذه الحقيبة الجديدة، بما وضعته عشيقتي من مال في الحقيبة القديمة.

فقال بورثوس: هذا صحيح، والدليل أنني دفعت ثمنه ثمنه اثني عشر بستولًا.(9)

ازداد الإعجاب، على الرغم من استمرار الشك.

- أليس هذا صحيحًا يا أراميس؟ قال بورثوس وهو يلتفت جهة فارس آخر.

عبر هذا الفارس الآخر عن تناقض تام مع الشخص الذي سأله والذي ناداه للتو باسم أراميس: كان شابًّا بالكاد يبلغ من العمر اثنين وعشرين إلى ثلاثة وعشرين عامًا، ذا وجه ساذج ولطيف، عيناه سوداوان وخدّاه ورديان وناعلان مثل خوختين خريفيتين؛ رسم شاربه الرفيع خطًّا مستقيمًا فوق شفته العليا، وبدت يداه كأنهما تخشيان النزول مخافة أن تنتفخا عروقهما، ومن وقت لآخر يقرص أطراف أذنيه لإبقائهما على اللون القرمزي الناعم والشفاف، عادة لا يتكلم إلا قليلًا وببطء، يلقي التحية كثيرًا، ويضحك بهدوء، كاشفًا عن أسنان فائقة الجمال يبدو أنه يعتني بها كباقي الناس، لكن بأكبر قدر من العناية، أجاب بإيماءة مؤكدة على سؤال صديقه.

يبدو أن هذا التأكيد قد حسم كل الشكوك حول الحزام؛ لذلك استمر الناس في الإعجاب به، لكنهم لم يعودوا يتحدثون عنه، وبوساطة إحدى تلك التحولات السريعة والعجيبة للتفكير، تحوَّلت المحادثة فجأة إلى موضوع آخر.

- ما رأيك في ما يقوله سائس شالي؟ سأل فارسًا آخر دون مخاطبة أي شخص بشكل مباشر، ولكنّه مع ذلك خاطب الجميع.

- وماذا يقول؟ سأل بورثوس بنبرة متعجرفة.

- يقول: إنه وجد في بروكسل روشفور، متنكرة في زيّ راهب كبوشي؛ بفضل هذا التنكّر، لعب روشفور دور السيدة دو ليغ كأنه معتوه.

قال بورثوس: «مثل أحمق حقيقي»، ولكن هل هذا مؤكد؟

أجاب الفارس: «حصلت على المعلومة من أراميس».

- حقًّا؟

- مهلًا! قال أراميس: أنت تعرف ذلك جيدًا يا بورثوس، لقد أخبرتك أمس، لذا دعونا لا نتحدث عنها بعد الآن.

وتابع بورثوس: «لا نتحدث عنه، بعد الآن، هذا هو رأيك»، دعنا نتوقف عن الحديث عن ذلك! سحقًّا! كيف تنهي الأمور بسرعة؟! لمَ نتوقف؟! الكاردينال يتجسَّس على رجل نبيل، وقد سرق مراسلاته بوساطة خائن، وقاطع طريق، ووغد، بمساعدة هذا الجاسوس وبفضل هذه المراسلات، قطع رقبة شالي، بحجة غبية أنه أراد قتل الملك وتزويج السيد من الملكة! لا يفهم حرف في هذا اللغز، أخبرتنا بالأمس، بما أشعر الجميع بالارتياح العميق، وعندما لا نزال مندهشين من هذا الخبر، تأتي وتقول لنا اليوم: لا نتحدث عنه بعد الآن!

وتابع أراميس بصبر: - لنتحدث عن ذلك، كما تشاء.

صاح بورثوس قائلًا: «روشفور هذه، لو كنت سائس شالي المسكين، لقضى برفقتي وقتًا سيّئًا».

قال أراميس: سوف تقضي ربع ساعة حزينة مع الدوق الأحمر.

- آه! الدوق الأحمر! برافو، برافو، الدوق الأحمر! أجاب بورثوس، صفّق بيديه وأومأ بموافقته، «الدوق الأحمر» إنه ساحر، سوف أنشر الكلمة، يا عزيزي، كن مطمئنًا، ما مدى ذكاء أراميس هذا؟! يا للأسف لأنك لم تستطع متابعة نزعتك يا عزيزي! ستكون كاهنًا عذبًا!

- أوه! قال أراميس: «إنه مجرد تأخير مؤقت»، في يوم من الأيام، سأكون كذلك، أنت تعلم جيدًا يا بورثوس أنني سأستمر في دراسة علم اللاهوت من أجل بلوغ هذا الهدف.

وتابع بورثوس: «سيفعل ذلك كما يقول، سيفعل ذلك عاجلًا أم آجلًا».

قال أراميس: «قريبًا جدًّا».

قال أحد الفرسان: «إنه ينتظر شيئًا واحدًا فقط ليقرر الأمر تمامًا ويستعيد زيّه الكهنوتي المُعلق خلف زيه العسكري».

- وماذا ينتظر؟ سأل آخر.

- ينتظر أن تمنحه الملكة وريثًا لتاج فرنسا.

قال بورثوس: «نحن لا نمزح بشأن ذلك، أيها السادة»، الحمد لله أن الملكة ما زالت في عمر يسمح لها بأن تمنح الملك وريثًا.

أجاب أراميس بابتسامة متكلفة أعطت هذه الجملة البسيطة على ما يبدو معنى فاضحًا: «يقولون: إن السيد دو باكنغهام موجود في فرنسا».

قاطعه بورثوس «أراميس، يا صديقي، هذه المرة أنت مخطئ، وهوسك العقلي يجعلك دائمًا تجاوز الحدود، إذا سمعك السيد دو تريفيل، فلن يسمح لك بأن تتحدث على هذا النحو.

- «هل ستلقنني دروسًا يا بورثوس؟» صرخ أراميس، والبرق يومض من عينيه الوديعتين.

تابع بورتوس:

- يا عزيزي، كن فارسًا أو كاهنًا في دير، كن هذا أو ذاك، ولكن لا تكن كليهما، تذكر يا آثوس مرة أخرى أنك قلت في ذلك اليوم: إنك تأكل على الموائد جميعها، آه! لا تغضب، أتوسل إليك، سيكون ذلك بلا جدوى، فأنت تعلم جيدًا ما المتفق عليه بيني وبينك وبين آثوس، أنت تذهب إلى السيدة ديغويون، وتذهب إلى السيدة دو بوا - تريسي، ابنة عم السيدة دو شيفروز، وتنخرط بقوة في النعم الطيبة، أوه! يا إلهي! أنت لا تعترف بسعادتك، نحن لا نسألك عن سرك؛ نحن نعرف كتمانك، ولكن بما أن لديك هذه الفضيلة، فهذا ما تريده بحق! استخدمه نيابة عن صاحب الجلالة، ننشغل ونتحدث عن الملك والكاردينال، متى نشاء وكما نحب، لكن الملكة مقدسة، وإذا تحدثنا عنها فليكن من أجل الخير.

أجاب أراميس: «يا بورثوس، أنت مغرور مثل نرسيس، إني أحذرك»، أنت تعلم أنني أكره الأخلاق، إلا إذا صنعها آثوس، أما بالنسبة لك يا عزيزي، فلديك حزام رائع جيدًا لتكون قويًّا جدًّا بوساطته، سأكون كاهنًا في الدير إذا راقني ذلك، أما في هذه الأثناء، فأنا فارس، بهذه الصفة، أقول ما يعجبني، وفي هذه اللحظة أود أن أخبرك أن صبري أوشك على النفاد.

- أراميس!

- بورثوس!

- مهلًا! أيها السيدان! أيها السيدان! صاح الناس حولهما.

قاطعهم الحاجب وهو يفتح باب المكتب وقال:

- السيد دو تريفيل ينتظر السيد دارتانيان.

عقب هذا الإعلان الذي ظل فيه الباب مفتوحًا، سكت الجميع، وفي خضم الصمت العام، عبر الشاب الجاسكوني غرفة الانتظار جزئيًّا ودخل عند قائد

الفرسان، معربًا من كل قلبه عن ارتياحه لأنه تمكَّن من الهرب في الوقت الحاسم من هذا الشجار الغريب.

3

المقابلة (10)

في هذه اللحظة كان مزاج السيد دو تريفيل سيئًا للغاية، ومع ذلك فقد استقبل بأدب جم الشاب الذي انحنى المحناة دنت من الأرض، وابتسم عندما تلقى الإطراء الذي ذكره بلهجته البيرنية في شبابه وبلده، وهي ذكرى مزدوجة تجعل الرجل يبتسم في أعماره كلها، ولكن وهو يَقترب من غرفة الانتظار بسرعة لوَّح لدارتانيان بيده، كما لو كان يطلب إذنه لإنهاء أمر مع الآخرين قبل البدء معه، فنادى ثلاث مرات رافعًا صوته في كل مرة، بحيث انتقل ما بين النبرات كلها المحصورة ما بين النبرة الآمرة والنبرة المنزعجة:

- آثوس! بورثوس! أراميس!

الفارسان اللذان تعرّف عليهما سلفًا، اللذان يتوافقان مع آخر اسمين من هذه الأسماء الثلاثة، غادرا على الفور المجموعات التي كانا جزءًا منها وتقدما نحو المكتب، الذي أغلق بابه خلفهما بمجرد تجاوزهما العتبة، أثارت سحنتهما إعجاب دارتانيان، على الرغم من أنها لم تكن هادئة تمامًا، بسبب لامبالاتهما المفعمة بعزة الكبرياء والامتثال.

عندما دخل الفارسان، وحينما صار الباب مغلقًا خلفهما، استؤنفت الهمهمة الصاخبة في غرفة الانتظار، التي لا شك أن مناداة الأسماء قد غذّتها من جديد، وعندما خطى السيد دو تريفيل أخيرًا على طول مكتبه ثلاث أو أربع مرات صامتًا وعابسًا، في كل مرة يمر أمام بورثوس وأراميس، متصلّبًا وصامتًا كما هو الحال في استعراض، توقف فجأة أمامهما، وحدجهما من رأسيهما حتّى أخمص أقدامهما بنظرة ساخطة، ثم صاح:

- هل تعلمان ما قاله لي الملك في الليلة الماضية؟! هل تعلمان أيها السيدان؟!

أجاب الفارسان بعد لحظة صمت:

- لا، ليس بعد، لا يا سيدي، لا نعرف.

وأضاف أراميس بنبرته الأكثر تهذيبًا وإجلالًا:

- لكنني أرجو أن نحظى بشرف معرفة ذلك.

- أخبرني أنه سيجنّد فرسانه من حراس الكاردينال من الآن فصاعدًا!

- من بين حراس الكاردينال؟! ولماذا ذلك؟ سأل بورثوس بحماس.

- لأنه كان يرى أن نطله يحتاج إلى تنشيط بمزيج من الشراب الجيد.

احمرّ وجها الفارسين وجحظت عيونهما، شعر دارتانيان بالارتباك وود أن يكون على بعد مئة قدم تحت الأرض خجلًا.

- نعم، نعم، تابع السيد دو تريفيل غاضبًا: نعم، وعلى شرفي كان جلالة الملك على حق، لأن الفرسان يقدمون وجهًا حزينًا في البلاط، قال الكاردينال أمس خلال لعبه رفقة الملك، بطريقة مؤسية أزعجتني كثيرًا، في أول أمس، بأن هؤلاء الفرسان الملعونين، هؤلاء الأربعة - وقد مطط هذه الكلمات بلهجة ساخرة جعلتني أشد غضبًا- هؤلاء القتلة، وأضاف وهو ينظر إليَّ بعيني القط النمر: سهروا إلى وقت متأخر في شارع فيرو، وأن فرقة من حراسه أُجبروا على إيقاف مثيري الشغب، تبًّا لهم! لا بد أنك تعرف شيئًا عنهم! أوقفوا الفرسان! كنتم هناك، أنتم أيها الآخرون، لا تكرروا ذلك، لقد تم التعرف عليكم، وقد ذكر الكاردينال أسماءكم، هذا خطئي، نعم، خطئي لأنني أنا من يختار رجالي، تعال، أنت يا أراميس، لماذا طلبت منّي سترة الفرسان عندما كنت ستكون تحت رداء كهنوتي؟ تعال، أنت يا بورثوس، هل تملك مثل هذا الحزام الذهبي الجميل فقط لتعليق سيف من القش عليه؟ وآثوس! لا أرى آثوس، أين هو؟!

أجاب أراميس بحزن:

- سيدي، إنه مريض، مريض للغاية.

- تقول بأنه مريض، مريض جدًّا؟ وما مرضه؟

أجاب بورثوس:

- يخشى أن يكون مرض الجدري يا سيدي، راغبًا بدوره في إضافة كلمة إلى المحادثة، وسيكون ذلك أمرًا مؤسفًا لأنه سيفسد بكل تأكيد وجهه.

- جدري؟! ما هذه القصة المجيدة الجديدة التي تخبرني بها يا بورثوس؟! مريض بالجدري، في عمره؟! لا! إنه بلا شك مجروح، وربما قتل... آه! لو كنت أعرف فقط! سحقًّا...! أيها السادة الفرسان، لا أقصد أن تطاردوا الخصوم في الأماكن السيئة بهذه الطريقة، وأن تتشاجروا في الشوارع وتلعبوا بالسيف في مفترق الطرق، وأخيرًا، لا أريد أن يضحك الناس من حراس الكاردينال، وهم أناس طيبون، هادئون، ماهرون، لا يضعون أنفسهم أبدًا في مواقف الاعتقال، واللذي علاوة على ذلك لن يسمحوا لأنفسهم أبدًا أن يتقهقروا! أنا متأكد... إنهم يفضلون الموت في عين المكان على أن يتراجعوا... وأن يهربوا، وينسحبوا، ويفروا، هل هذا أمر يليق بفرسان الملك؟!

كان بورثوس وأراميس يرتجفان من شدة الغضب، كانا سيخنقان السيد دو تريفيل بكل سرور، لو لم يشعروا في النهاية بأن ما يكنه لهم من حب كبير هو ما جعله يتحدث إليهم بهذه الطريقة، ركلا السجادة بأقدامهما، وعضا شفاههما حتى نزفت، وضغطا بقبضتيهما سيفيهما بكل قوتهما، سُمِع نداء في الخارج، كما قلنا، فإن آثوس وبورثوس وأراميس، وكما خمنّا، من نبرة صوت السيد دو تريفيل، فقد كان غاضبًا تمامًا، كما كانت عشرة وجوه غريبة شاحبة غضبًا تتكئ على السجادة ملصقين آذانهم بالباب لا تريد أن تفقد مقطعًا لفظيًا واحدًا مما يقال، بينما تكرر أفواههم مرارًا وتكرارًا كلمات القائد المهينة لمن يوجد بداخل غرفة الانتظار، وفي لمح البصر وبدءًا بباب المكتب إلى باب الشارع، صـــــار القصر بأكمله في حالة

اضطراب.

- عجبًا! فرسان الملك يقبض عليهم حراس السيد الكاردينال.

وتابع السيد دو تريفيل، وهو يغلي من شدة الغضب مثل جنوده، لكنه كان يهز كلماته ويرميها الواحدة تلو الأخرى، إذا جاز التعبير، مثل ضربات خناجر موجهة إلى صدور مستمعيه، عجبًا! ستة من حراس سماحته يعتقلون ستة من فرسان جلالة الملك! تبًّا لكم! أنا حسمت أمري، سأذهب على الفور إلى اللوفر لأستقيل، لن أستمر قائدًا لفرسان الملك، سأطلب رتبة ملازم في حرس الكاردينال، وإذا رفضني، تبًّا لكم! سأجعل من نفسي كاهنًا في دير.

عقب هذه الكلمات، تحوّلت الهمهمة في الخارج إلى انفجار، لا يسمع المرء في كل مكان إلا السباب والشتائم التي كانت تتطاير في السماء، تبًّا وسحقًّا! الموت للشياطين جميعهم! كان دارتانيان يبحث عن شيء للاختباء خلفه، شعر برغبة مفرطة في أن يحشر نفسه تحت الطاولة.

قال بورثوس منفعلًا:

- حسنًا! يا قائدِي، الحقيقة أننا كنّا ستة مقابل ستة، لكننا أُخذنا على حين غرة، وقبل أن نتمكن من سحب سيوفنا، قُتل اثنان منا، وأصيب آثوس بجروح خطيرة، ولم يكن ذلك أفضل، أنت تعرف آتوس، حسنًا أيها القائد، فقد حاول النهوض مرتين، وسقط مرتين، لكننا لم نستسلم، لا! لقد تمّت جرجرتنا قسرًا وخلال الطريق، تمكنّا من الهرب، أما بالنسبة لآثوس، فقد اعتقدوا أنه مات، فتُرك بهدوء في ساحة المعركة، ولم يعتقدوا أنه يستحق أن يحملوه معهم، هذه هي القصة، ماذا أيها القبطان؟! نحن لا نكسب كل المعارك، فقد خسر يومبي العظيم ملك فارساليا، والملك فرانسيس الأول، الذي -كما سمعت- كان يستحق تمامًا مثل الآخر، ولكنه خسر بافيا.

قال أراميس:

- ويشرفني أن أؤكد لكم أني قتلت واحدًا بسيفه، لأن سيفي تحطّم في بداية المعركة... قتلته أو طعنته، سيدي، كما يروقكم.

قال السيد دو تريفيل بنبرة هادئة إلى حدٍّ ما: لم أكن أعلم بذلك، أرى أن السيد الكاردينال قد بالغ شيئًا ما.

تابع أراميس، الذي رأى أن قائده قد هدأ، فتجرّأ على رجاء: لكن من فضلك، سيدي، لا تقل: إن آثوس نفسه قد تأذّى؛ سيكون في حالة من اليأس إذا علم الملك بالأمر، ولأن الجرح أخطر، ولأن الجرح تجاوز الكتف واخترق الصدر، للأسف سيشكل خطرًا عليه...

في اللحظة نفسها، فُتح الباب على مصراعيه، وظهر تحت الحافّة رأس نبيل وجميل، لكنه شاحب بشكل مُخيف.

- آثوس! صاح الفارسان.

- آثوس! كرر السيد دو تريفيل نفسه.

قال آثوس للسيد دو تريفيل بصوت ضعيف ولكنه هادئ تمامًا: هل أرسلت في طلبي يا سيدي؟ كما أخبرني رفاقنا، فأسرع لتلبية أوامرك، هأنذا يا سيدي، ماذا تريد مني؟

وعلى إثر هذه الكلمات، دلف الفارس، بزيّه الرسمي الكامل، متأهِّبًا كالعادة، وبحزم إلى المكتب، انفعَل السيد دو تريفيل وتحرك متأثرًا بهذا الدليل على الشجاعة، ثم اندفع نحوه.

وأضاف:

- كنت أقول لهؤلاء السادة: إنني أمنع الفرسان من الخروج علانية ودون داع لأن الناس الشجعان أعزاء على الملك، والملك يعلم أن فرسانه هم أشجع الناس على وجه الأرض، هات يدك يا آثوس.

ودون انتظار أن يرد الوافد الجديد بنفسه على دليل المودة، أمسك السيد دو تريفيل يده اليمنى وضغط عليها بكل قوته، دون أن يلاحظ أن آثوس، مهما كانت سيطرته على نفسه، قد أطلق حركة من الألم، وازداد شحوبه أكثر وهو ما لا يمكن تصوره البتة.

ظلّ الباب مفتوحًا، مع وصول آثوس، الذي صار جرحه معروفًا لدى الجميع، على الرغم من السرية الكبيرة، لهذا أحدث ضجة كبيرة، استقبلت الكلمات الأخيرة للقائد بهرج ومرج من الرضا، وظهر من خلال الفتحات رأسان أو ثلاثة، يدفعهم الحماس، لا شك أن السيد دو تريفيل كان على وشك أن يصدّ بكلمات شديدة هذا الانتهاك لقوانين آداب السلوك عندما شعر فجأة أن يد آثوس تتشنّج بيده، وحينما نظر إليه، لاحظ أن يد آثوس تتمسك بيده وهو يكاد يُغمى عليه، في هذه اللحظة بالذات، خرَّ آثوس على الأرض، الذي حاول مقاومة الألم بكل ما مُنح من قوة، كما لو كان ميّتًا.

صاح السيد دو تريفيل:

- جرَّاحي! استدعوا جرَّاحي، جراح الملك، أريد أفضل جراح! تبًّا! وإلا سيموت آثوس الشجاع.

عقب صرخات السيد دو تريفيل، اندفع الجميع إلى مكتبه دون أن يفكر بإغلاق الباب في وجه أي شخص، فسارع الجميع إلى الالتفاف حول الرجل الجريح، لكن كان يمكن أن يكون هذا الشغف عديم الفائدة لو لم يكن الطبيب المطلوب في القصر أيضًا، اقتحم الحشد، واقترب من آثوس الذي كان لا يزال فاقدًا للوعي، ولأن هذه الضوضاء كلها وهذه الحركة ذاتها أزعجته بشدة، فطلب أول شيء والأكثر إلحاحًا أن ينقل الفارس إلى غرفة مجاورة، فتح السيد دو تريفيل على الفور الباب وعيّن الطريق لبورثوس وأراميس، اللذين حملا رفيقهما بين أذرعها، وخلف هذه المجموعة سار الجراح، وخلف الجراح أغلق الباب.

ثم أصبح مكتب السيد دو تريفيل، هذا المكان المحترم عادة، للحظات جزءًا

من غرفة الانتظار، يسودها هرج ومرج بين من يخاطب ويتحدث بصوت عالٍ، ويلعن، ويشتم الكاردينال وحراسه بأشنع الشتائم.

بعد لحظة، عاد بورثوس وأراميس، وظل الطبيب الجراح والسيد دو تريفيل وحدهما بالقرب من الرجل الجريح.

في النهاية عاد السيد دو تريفيل بدوره، بعدما استعاد الجريح وعيه، وأعلن الجراح أن حالة الفارس لا تقلق أصدقاءه، لأن ضعفه كان حتميًّا ولأن سببه ببساطة فقدانه للدم.

ثم أشار السيد دو تريفيل بيده، فانسحب الجميع باستثناء دارتانيان، الذي لم ينسَ قط أن لديه لقاء، ونتيجة لمثابرته الجاسكونية، لم يتململ من مكانه قيد أنملة.

عندما غادر الجميع وأغلق الباب، استدار السيد دو تريفيل فوجد نفسه وحيدًا مع الشاب، لكن الحدث الذي وقع للتو شوّش تقريبًا على نظام تفكيره، فسأل عما يريده منه الملتمس العنيد، حينئذٍ عرّف دارتانيان بنفسه، فتذكر السيد دو تريفيل فجأة ذكرياته كلها عن الحاضر والماضي، فأدرك الوضع وأصبح على دراية بالموضوع.

قال مبتسمًا:

- اعذرني، اعذرني، يا ابن وطني العزيز، لكنني نسيتك تمامًا، ماذا تريد؟ القائد ليس سوى أب بمسؤولية أكبر من الأب العادي، والجنود أطفال كبار، لكن بما أنني حريص على تنفيذ أوامر الملك، ولا سيما أوامر الكاردينال...

لم يستطع دارتانيان إخفاء ابتسامته، عند هذه الابتسامة، حكم السيد دو تريفيل أنه لم يكن يتعامل مع أحمق، فدخل في صلب الموضوع مباشرة، بينما غيّر المحادثة وقال:

- أنا حقًّا أحب والدك، ماذا أفعل لأجل ابنه؟ وعلى عجل، لأن وقتي ضيق.

قال دارتانيان:

- سيدي، عند مغادرة تارب والمجيء إلى هنا، ارتأيت أن أسألك، إحياء لذكرى هذه الصداقة التي لم تتفقد ذكراها، الانتماء إلى الفرسان، لكن بعد كل ما رأيته خلال الساعتين الماضيتين، أدرك تمام الإدراك أن مثل هذه الخدمة ستكون هائلة، وأخاف ألا أستحقها.

أجاب السيد دو تريفيل: إنها خدمة حقًّا، أيها الشاب، لكنها ربّما لن تكون عظيمة فوق ما تعتقد أو تظن، ومع ذلك، فإن قرار جلالة الملك قد نص على هذه الوضعية، وأعلن مع الأسف ألّا يُقبَل فارس قبل الاختبار الأولي من بعض الحملات، أو بعض الأعمال الرائعة، أو خدمة عامين ضمن إحدى الكتائب العسكرية الأخرى الأقل امتيازًا من كتيبتنا.

أذعن دارتانيان دون رد، لقد شعر بشغف أكبر لارتداء بزّة الفرسان ما دامت توجد صعوبات كبيرة في الحصول عليها.

وأضاف تريفيل وهو يُثبّت على مواطنه نظرة ثاقبة جدًّا حتى يخال المرء إنه يريد أن يسبر أعماق فؤاده، ليكتشفها:

- ولكن، خدمة لوالدك، رفيقي القديم، كما قلت لك، أريد أن أفعل شيئًا لك أيها الشاب، شبابنا في بيرن ليسوا أغنياء عادة، وأشك في أن الأمور قد تغيرت كثيرًا منذ مغادرتي المقاطعة، لذلك لن يكون ما جلبته معك من مال للعيش وافرًا.

انتصب دارتانيان بفخر وكبرياء وكأنه يعني أنه لن يطلب الإحسان من أي شخص.

واستطرد تريفيل: هذا جيد أيها الشاب، هذا جيد، أنا أعرف ذلك الشعور، لقد أتيت إلى باريس ومعي أربعة جنيهات في جيبي، وكنت سأقاتل أي شخص كان سيقول لي بأني لا أستطيع شراء اللوفر.

استقام دارتانيان أكثر فأكثر، ففضل بيع حصانه، سيبدأ حياته بأربعة جنيهات،

أي أكثر مما كان يملك السيد دو تريفيل.

- لذلك يجب عليك الاحتفاظ بما لديك، مهما كان هذا المبلغ كبيرًا، ولكن يجب عليك أيضًا أن تصبح ماهرًا في التمارين المناسبة لرجل نبيل، سأكتب رسالة إلى مدير الأكاديمية الملكية اليوم، وغدًا سيستقبلك دون أجر، لا ترفض هذا العرض الصغير، لأن أفضل أبناء السادة والأغنى يطلبونه في بعض الأحيان، دون أن يتمكّنوا من الحصول عليه، ستتعلم ركوب الخيل والمبارزة والرقص، هناك ستتعرف عليها جيدًا، ومن وقت لآخر ستعود لرؤيتي لتخبرني أين وصلت وما إذا كان هناك أي شيء يمكنني القيام به من أجلك.

لاحظ دارتانيان، الغريب عن أسلوب المعاملة في البلاط، برودة هذا الترحيب.

قال:

- يا سيدي، أرى كم أفتقد خطاب التوصية الذي قدمه لي والدي وأوصاني بتسليمه لك اليوم!

أجاب السيد دو تريفيل:

- في الواقع، أنا مندهش لأنك قمت بمثل هذه الرحلة الطويلة دون هذه التوصية الضرورية، مصدرنا الوحيد نحن البيرانسيين.

صاح دارتانيان:

- لقد حصلت عليها يا سيدي، وأحمد الإله، لأنها في حالة جيدة، لكنها سُرِقت مني غدرًا.

وسرد الواقعة بأكملها التي حدثت في مونغ، وقد وصف الرجل المحترم المجهول بأدق التفاصيل، كل ذلك بحرارة، وبصدق حقيقي جعل السيد دو تريفيل مذهولًا.

قال الأخير متأملًا:

- هذا غريب، هل تحدثت عني جهرًا؟

- نعم سيدي، لا شك في أنني ارتكبت هذه الحماقة، ماذا تتوقع؟ لا بد أن اسمًا مثل اسمك كان بمنزلة درع خلال الرحلة، ما أظنني أتحصن بأفضل منكم!

كان المدح جيدًا وفي وقته، إذ كان السيد دو تريفيل يحب الثناء مثل الملك أو الكاردينال، لذلك لم يستطع إلا أن يبتسم بارتياح واضح، لكن تلك الابتسامة سرعان ما تلاشت، وعادت من نفسها إلى مغامرة مونغ.

وتابع:

- قل لي، ألم يكن لهذا الرجل النبيل ندبة طفيفة على صدغه؟

- بلى، تمامًا مثل خدش رصاصة.

- ألم يكن رجلًا وسيمًا؟

- بلى.

- طويل القامة؟

- نعم.

- شاحب البشرة وبني الشعر؟

- نعم، نعم، هذا هو، يا سيدي كيف تعرف هذا الرجل؟ آه! إذا وجدته، وسأجده، أقسم لك، سألاحقه حتى في الجحيم...

واستطرد تروفيل:

- هل كان ينتظر امرأة؟

- غادر بعد أن تحدث للحظة مع التي كانت تنتظره.

- ألا تعرف موضوع حديثهما؟

- كان يسلمها صندوقًا ويخبرها أنه يحتوي على تعليماته ويوصيها ألا تفتحه إلا عند وصولها إلى لندن.

- هل كانت هذه المرأة إنجليزية؟

- دعاها ميلادي.

همس تريفيل:

- إنه هو! إنه هو! كنت أعتقد أنه ما زال في بروكسل!

هتف دارتانيان:

- حسنًا! يا سيدي، إذا كنت تعرف من هذا الرجل، فأخبرني عن هويته ومكانه، ثم أبرئ ذمتي من كل شيء، حتى من وعدك بجعلي أنضم إلى الفرسان، لأنني قبل كل شيء أريد الانتقام.

صاح تريفيل:

- احترس أيها الشاب، على العكس من ذلك إذا رأيته قادمًا، من جانب واحد من الشارع، فانتقل إلى الجانب الآخر! ولا تصطدم بمثل هذه الصخة، لأنها ستحطمك مثل الزجاج.

قال دارتانيان:

- هذا لا يمنع من أنني إذا صادفته...

قال تريفيل:

- في غضون ذلك، لا تبحث عنه، هذه نصيحتي لك.

فجأة توقف تريفيل، وأصابه شك مفاجئ، هذه الكراهية الكبيرة التي أظهرها المسافر الشاب وعبَّر عنها علانية تجاه هذا الرجل الذي سرق منه رسالة والده، ألا يبدو الأمر بعيد الاحتمال؟ ألا تخفي هذه الكراهية بعض الغدر؟ ألا يمكن أن

يكون هذا الشاب مرسلًا من سماحته؟ ألم يأتِ ليوقعه في مصيدة؟ ألا يكون هذا المدعو دارتانيان مبعوثًا من الكاردينال الذي يسعى إلى دسّه داخل منزله، ووضعه بالقرب منه لاختبار ثقته وفقدها فيما بعد، كما مورس ألف مرة من قبل؟ نظر إلى دارتانيان بتمعّن أكبر من المرة الأولى، لكنّه طمأن نفسه عند رؤيته هذه الفراسة المتألّقة للذكاء الحاذق والتواضع المتأثر.

وفكر:

- أعلم أنه جاسكوني، لكنه يمكن أن يكون جيدًا بالنسبة للكاردينال كما هو بالنسبة لي، دعونا نرَه، دعونا نختبره.

- صديقي، قال ببطء، أريد، بصفتك ابن صديقي القديم، أن أصدق قصة هذه الرسالة المفقودة، أريد، أن أصلح ما شعرت به من البرودة خلال استقبالي لك في البداية، بأن أكشف لك أسرار سياستنا، الملك والكاردينال هما أفضل الأصدقاء، خلافاتهم الظاهرة هي فقط لخداع الحمقى، أنا لا أزعم أن مواطنًا، فارسًا جميلًا، شابًا شجاعًا، يمكن خداعه والدفع به إلى ارتكاب حماقات مهلكة، تذكّر أنني مُلتزم ومخلص لهذين السيدين القويين، وأن جهودي الجادّة لن يكون لها أبداً أي هدف آخر غير خدمة الملك والكاردينال، أحد أكثر العباقرة اللّامعين الذين أنجبتهم فرنسا، والآن، أيها الشاب، اضبط نفسك عليها، وإذا كان لديك أي عداوة مصدرها الأسرة، أو من خلال الأقارب، أو حتى بدافع غريزي، فبعض هذه العداوات ضد الكاردينال نرى مثلها تندلع بين السادة النبلاء، فسيكون ذلك سبب فراقنا النهائي.

سأساعدك في الأحوال كلها، لكن دون أن ترتبط بشخصي، على أي حال، أتمنّى أن تبقيك صراحتي صديقي، لأنك حتى الآن الشاب الوحيد الذي تحدثت إليه كما فعلت.

قال تريفيل في نفسه:

- إذا كان الكاردينال قد أرسل لي هذا الثعلب الصغير، فلن يفشل بالتأكيد أن

يقول لجاسوسه، وهو الذي يعرف مدى كراهيتي له، أن أفضل طريقة لطلب مودتي هي أن يخبرني بما هو أسوأ عنه، لذلك، على الرغم من اعتراضاتي، فإن النميمة الماكرة ستخبرني بالتأكيد أنه يكره سماحته.

ولكن بخلاف ما توقع تريفيل تمامًا، أجاب دارتانيان بقدر كبير من البساطة:

- سيدي، لقد وصلت إلى باريس بنوايا مشابهة جدًّا، نصحني والدي بألّا أحتمل إلا الملك والكاردينال وأنت، الذين يعتبرهم سادة فرنسا.

أضاف دارتانيان السيد دو تريفيل إلى الاثنين الآخرين، كما نرى، لكنه اعتقد أن هذه الإضافة لا ينبغي أن تفسد شيئًا.

وتابع: لذلك فإنني أجلّ الكاردينال إجلالًا كبيرًا وأحترمه احترامًا عميقًا لأعماله، الأمران سيان بالنسبة لي، يا سيدي، إذا تحدثت معي، كما تقول، بصراحة، فحينئذٍ ستشرفني بأن أقدر الشبه في هذا الذوق، لكن إذا كان لديك أي شك، وهذا أمر طبيعي تمامًا، أشعر أنني أضيع قول الحقيقة، لكن، لا بأس، لن تفشل في تقديري، وهذا ما يهمني أكثر من أي شيء في العالم.

تفاجأ السيد دو تريفيل بالنقطة الأخيرة، في الواقع، أُعجب بهذا القدر من التغلغل والصراحة، لكنه لم يبدّد شكوكه تمامًا: فكلما تفوق هذا الشاب على الشباب الآخرين، ازداد الخوف منه إذا كان مخطئًا، لكنه مع ذلك، صافح دارتانيان وقال له:

- أنت فتى صادق، لكن في هذه اللحظة لا يمكنني أن أقدم لك إلا ما عرضته عليك سابقًا، سيكون قصري مفتوحًا لك دائماً، في وقت لاحق يمكنك أن تطلب أي شيء في أي وقت، وبالتالي تغتنم كل فرصة، فمن المحتمل أن تحصل على ما تريد.

واستطرد دارتانيان:

- هذا يعني أنك تنتظر مني أن أكون أهلًا لها، حسنًا! كن مطمئنًا، وأضاف بألفة

جاسكونية، لن تنتظر طويلًا.

وانحنى للانسحاب، وكان الآخرون كانوا يراقبونه.

قال السيد دو تريفيل، وهو يوقفه:

- ولكن مهلًا، لقد وعدتك برسالة لمدير الأكاديمية، هل أنت أنوف جدًّا بقبول ذلك يا سيدي الشاب؟

قال دارتانيان:

- لا يا سيدي، أقول لكم بأنها لن يكون مصيرها مثل الأخرى، بل سأحتفظ بها جيدًا مهما حصل، وأقسم لك، ويلٌ لأي شخص يحاول أن ينتزعها مني!

ابتسم السيد دو تريفيل لهذه الفنخرة، وترك مواطنه الشاب أمام النافذة حيث كانا وحيث تجاذبا أطراف الحديث معًا، ذهب تريفيل وجلس إلى طاولة وبدأ في كتابة خطاب التوصية، وخلال هذا الوقت، شرع دارتانيان يسلي نفسه بالنظر إلى الفرسان الذين كانوا يذهبون بعيدًا الواحد تلو الآخر، شيعهم بنظراته حتى اختفوا عند منعطف الشارع.

بعد أن كتب دو تريفيل الرسالة، وختمها، نهض ودنا من الشاب ليسلمها له، ولكن في اللحظة نفسها التي مدّ فيها دارتانيان يده لاستلامها، كان السيد دو تريفيل مندهشًا للغاية لرؤية دارتانيان يرجف غاضبًا، ويهب مندفعًا إلى خارج المكتب، وهو يصرخ:

- آه! سحقًّا! لن يهرب مني هذه المرة.

- ومن؟ سأل السيد دو تريفيل.

أجاب دارتانيان:

- إنه اللص سارقي! آه! أيها الخائن!

واختفى.

غمغم السيد دو تريفيل:

- يا له من شيطان مجنون! ما لم تكن، على أي حال، وأضاف، هذه طريقة ذكية للتملّص بعيدًا، عندما لاحظ أن محاولته كانت فاشلة.

4

منكب آثوس، وحزام بورثوس ومنديل أراميس

كان دارتانيان غاضبًا، فاخترق غرفة الانتظار بقفزات ثلاث واندفع نحو الدرج الذي كان ينوي نزول درجاته رباعًا رباعًا، عندما انطلق بعيدًا في مساره غير مبال بخروج فارس من الباب الخلفي لقصر السيد دو تريفيل، صدم رأسه بكتفه، فأطلق هذا الأخير صرخة، أو بالأحرى عواء.

قال دارتانيان:

- معذرة، وحاول استئناف هرولته، معذرة، لكنني في عجلة من أمري.

لم يكد ينزل الدرج الأول حتى أمسكه معصم حديدي من وشاحه وأوقفه.

صرخ الفارس شاحبًا ككفن:

- أنت في عجلة من أمرك! تحت هذه الذريعة تصطدم بي، وتقول: «معذرة»! هل تعتقد أن هذا يكفي؟ أنت مخطئ أيها الشاب، لا تظن أنك لما سمعت السيد دو تريفيل يتحدّث إلينا اليوم بشكل متعجرف قليلًا، يمكنك معاملتنا كما يتحدث إلينا؟ فكر مرة أخرى، أيها الرفيق، أنت لست السيد دو تريفيل.

أجاب دارتانيان الذي تعرّف على آثوس بعد الضمادة التي وضعها الطبيب، لقد كان عائدًا إلى بيته:

- أقسم، لم أفعل ذلك عن قصد، وقد رجوت اعتذارك، لذلك يبدو لي أن هذا كاف، لكني أكرر، وهذه المرة ربما لن تكون كلمة شرف أكثر ممّا ينبغي! أنا في عجلة من أمري، اتركني إذن من فضلك، ودعني أذهب لقضاء مآربي.

قال آثوس وهو يتركه ليذهب:

- سيدي، أنت لست مهذبًا، يمكننا أن نرى أنك قادم من بلد بعيد.

كان دارتانيان قد صعد بالفعل ثلاث أو أربع درجات، ولكن عند ملاحظة آثوس، توقف قليلًا.

- سحقًّا، سيدي! قال، بغض النظر عن بلدي البعيد، لن تعلمني درسًا في الأخلاق الحميدة، أنا أحذرك.

قال آثوس:

- ربما.

صاح دارتانيان:

- حسنًا! لو لم أكن في عجلة من أمري، ولو لم أكن ألاحق شخصًا ما...

- السيد الرجل في عجلة من أمره، أنا ستجدني دون الركض ورائي، هل تسمعني؟

- وأين من فضلك؟

- بالقرب من الكارم-دوشو(11)

- متى؟

- عند منتصف النهار.

- وقت الظهيرة، هذا جيد، سأكون هناك.

- حاول ألا تجعلني أنتظر، لأني أحذرك، عند الساعة الثانية عشرة والربع، سأطاردك وأقطع أذنيك.

صاح دارتانيان:

- جيد! سأكون هناك قبل الثانية عشرة بعشر دقائق.

وبـــــدأ يركض كما لو أن الشيطان يسحبه بعيدًا، على أمل أن يعثر على غريمه

الغريب مرة أخرى، والذي لا بد أن خطواته الهادئة لن تقوده بعيدًا.

ولكن عند باب الشارع كان بورثوس يتحدث مع جندي من الحراس، ولا توجد بين المتحدثين مساحة إلا لمرور رجل واحد، اعتقد دارتانيان أن هذه المساحة ستكون كافية لعبوره، فقفز إلى الأمام ليمر مثل سهم بينهما، لكن دارتانيان لم يضع الرياح في الحسبان، عندما صار على وشك المرور، اجتاحت الرياح معطف بورثوس الطويل، ودخل دارتانيان مباشرة في حاشيته. بلا شك، كان لدى بورثوس أسباب لعدم التخلي عن هذا الجزء الأساسي من ثوبه، لأنه بدلًا من تركه، سحبه باتجاهه بحركة دائرية قوية وعنيدة، حتى تجرجر دارتانيان حول نفسه داخل الثوب المخملي.

عندما سمع دارتانيان شتيمة الفارس، أراد الخروج من تحت حاشية المعطف التي كانت تحجب رؤيته، وحاول شق طريقه من بين ثناياها، كان خائفًا بشكل خاص من إتلاف نضارة الحزام الرائع سالف الذكر، ولكنه ما إن فتح عينيه بخجل حتى وجد أنفه عالقًا بين كتفي بورثوس، أي فوق الحزام تحديدًا.

واحسرتاه! مثل معظم الأشياء في هذا العالم التي تتوفر على بريق المظهر فقط، كان الحزام مذهبًا من الأمام ومن جلد جاموس(12) من الخلف.

ولأن بورثوس كان متباهيًا بنفسه حقًّا، لم يكن قادرًا على الحصول على حزام كامل من الذهب، كان يملك نصفه فقط، ولهذا ندرك الحاجة الضرورية إلى ادعاء الزكام والضرورة الملحّة لارتداء المعطف.

صرخ بورثوس، وهو يبذل قصارى جهده للتخلّص من دارتانيان الذي كان يحتشد خلفه:

- تبًّا لك! هل أنت مسعور لترمي نفسك على الأشخاص بهذا الشكل!

قال دارتانيان، وظهر مرة أخرى تحت كتف العملاق:

- اعذرني، لكنني في عجلة من أمري، أنا أركض خلف شخص ما، و...

سأل بورثوس:

- هل تنسى أن ترى أمامك عندما تركض بهذا الشكل العشوائي؟!

أجاب دارتانيان منزعجًا:

- لا، لا، بفضل عيني أرى حتى ما لا يراه الآخرون.

فهم بورثوس المغزى، أو لم يفهم، لكنه أطلق العنان لغضبه، فقال:

- سيدي، سوف تعنف بقسوة، إنني أحذرك، إذا احتككت بمناكب الفرسان بهذه الطريقة.

قال دارتانيان:

- أعنف، يا سيدي! الكلمة قاسية.

- هذا ما يناسب رجلًا اعتاد أن يحدِّق في وجه أعدائه.

- آه! أكيد! أعلم أنك لا تدير ظهرك لعدوِّك.

وابتعد الشاب مسرورًا بمزحته الماكرة، ضاحكًا من قلبه.

كتم بورثوس غضبه وقام بحركة اندفاع صوب دارتانيان.

صاح الأخير في وجهه:

- لاحقًا، لاحقًا، عندما لا يعيقك معطفك.

- ألتقيك عند الساعة الواحدة بعد الظهر، خلف لوكسمبورغ.

عقّب دارتانيان وهو ينعطف عند زاوية الشارع:

- حسنًا، أبارزك عند الساعة الواحدة.

لكنه لم يعثر على الرجل الغريب لا في الشارع الذي جابه، ولا في الشارع الذي

يجوله الآن ببصره، لم يرَ أحدًا، وحتى وإن مشى الغريب ببطء، فقد اختفى؛ ربما دخل إلى أحد المنازل، استفسر دارتانيان عنه كل من التقى بهم، ونزل إلى العبّارة(11)، وصعد إلى شارع السين ولاكروا روج(14)؛ لكن لا شيء، لا شيء على الإطلاق! ومع ذلك، كان هذا الركض مفيدًا له، كلما غمر العرق جبهته، نزل بردًا وسلامًا على قلبه.

ثم بدأ يفكّر في الأحداث التي وقعت له، كانت كثيرة ومنحوسة: كانت الساعة تناهز الحادية عشرة صباحًا، وكان الصباح قد جلب له حظًّا سيئًا مع السيد دو تريفيل، الذي سيجد في طريقة انصراف دارتانيان من مكتبه بعض الرعونة.

بالإضافة إلى ذلك، فقد حصل على مبارزتين جيدتين مع رجلين قادرين على قتل ثلاث دارتانيانات دفعة واحدة، وإذن سيبارز اثنين من الفرسان أخيرًا، أي اثنين من هذه الكائنات التي يعتبرها قوية جدًّا لدرجة أنه خصَّص لها مكانة سامية في ذهنه وفي قلبه أكثر من كل الرجال.

كان الوضع محزنًا، من المؤكد أنه سيقتل على يد آثوس، ندرك أن الشاب لن يقلق كثيرًا بشأن بورثوس، ومع ذلك -بما أن الأمل هو آخر شيء ينطفئ في قلب الرجل- فقد تأمل أن يتمكّن من البقاء على قيد الحياة، مع جروح مروِّعة، بالتأكيد، في المبارزتين كلتيهما، وفي حالة النجاة، فإنه سيوجه إلى نفسه التوبيخات الآتية:

- يا لطيشي، ويا لها من مرارة! كان هذا الشجاع المسكين آثوس مجروحًا في منكبه عندما نطحته برأسي مثل كبش! الشيء الوحيد الذي فاجأني هو أنه لم يقتلني في الحال؛ كان من حقه أن يفعل ذلك، ولا بد أن الألم الذي سبّبته له كان شديدًا، أما بورثوس... أوه! أما بالنسبة لبورثوس، فقد كان الأمر أكثر تسلية حقًّا.

وطفق الشاب يقهقه رغمًا عنه وهو يُراقب إذا كانت هذه الضحكة المنفردة -التي دون سبب- في عيون من يراه يضحك لن تؤذي بعض المارة.

- أما بالنسبة لبورثوس، فهي أكثر تسلية؛ لكنني لست سوى بائس وطائش!

هل نرمي أنفسنا على الناس دون حذر! لا! وهل سننظر إليهم من تحت المعطف لنرى ما يوجد في الأمام! كان سيغفر لي بالتأكيد، كان سيغفر لي لو لم أتحدث معه حول هذا الحزام اللعين، بكلمات سرية، هذا صحيح؛ نعم، كان مغطّى بشكل جيد! آه! اللعنة عليك أيها الجاسكوني، كيف تلقي بنفسك إلى التهلكة! هوّن عليك يا صديقي دارتانيان، وواصل حديثه إلى نفسه بالوسائل

الجارحة المتوفرة كلها، إذا نجوت -وهو أمر غير محتمل- فيجب أن تكون مهذبًا تمامًا في المستقبل. الآن ينبغي أن تحظى بالإعجاب، وأن يُستشهد بك كنموذج يُحتذى به، أن تكون مجاملًا ومهذبًا لا يعني أن تكون جبانًا! ألقِ نظرة على أراميس: أراميس هو الرقة نفسها، إنه الرحمة ذاتها، حسنًا! هل تجرّأ أحد أن يقول إن أراميس جبان؟ لا، بالتأكيد، والآن أريد أن أكون بكل الطرق مماثلًا له، آه! ها هو حقًّا.

كان دارتانيان، يمشي محدثًا نفسه، وعلى بعد خطوات قليلة من وصوله إلى قصر إغويون(15)، وأمام هذا القصر رأى أراميس يتحدث بمرح مع حراس الملك الثلاثة. من جانبه رأى أراميس دارتانيان؛ ولكنه -ما دام لم ينسَ أن هذا الشاب كان حاضرًا عندما غضب منهم السيد دو تريفيل بشدة في الصباح، وأنه كان شاهدًا على اللوم الذي تلقاه الفرسان- شعر بالانزعاج وفضّل التظاهر بعدم رؤيته، ولكن دارتانيان على العكس تمامًا من خططه للمصالحة والمجاملة، اقترب من الشباب الأربعة، وحيّاهم تحية كبيرة مصحوبة بابتسامة سخيّة. أمال أراميس رأسه قليلًا لكنه لم يبتسم، بل أكثر من ذلك، فقد قاطع محادثة الأربعة على الفور. لم يكن دارتانيان من الحماقة بما يكفي لعدم ملاحظة أنه صار متطفلًا عليهم؛ لكنه لم يكن حتى الآن على دراية كافية بأدب العالم الجميل ليخرج نفسه بشجاعة من موقفه الخاطئ، بشكل عام، رجل جاء ليختلط بأشخاص بالكاد يعرفهم، وينخرط في محادثة لا تعنيه، لذلك بحث في داخله عن طريقة للانسحاب بأقل إحراج ممكن، عندما لاحظ أن أراميس قد أسقط منديله، وبلا شك وطأه عن غير قصد، بدا له أن هذه هي اللحظة المناسبة لإصلاح خطئه:

انحنى، وبطريقة أكثر رشاقة، سحب المنديل من تحت قدم الفارس، ورغم بعض الجهود التي بذلها الأخير لمنعه من ذلك، قال وهو يسلمه له:

- أعتقد، يا سيدي، أن هذا المنديل قد تأسف على خسارته.

كان المنديل بالفعل مطرزًا تطريزًا ثريًّا ويحمل تاجًا وذراعًا في إحدى زواياه. احمر أراميس خجلًا بشكل مُبالغ فيه وانتزع المنديل من يد الجاسكوني انتزاعًا.

صاح أحد الحراس:

- آه! آه! هل ستظل تقول، يا أراميس بتحفّظ، إنك تعامل بسوء من طرف السيدة دو بوا - تريسي، عندما تعطيك هذه السيدة الكريمة مناديلها؟

حدجه أراميس بنظرات كارهة فهم دارتانيان على الفور أنه قد اكتسب عدوًّا قاتلًا، ثم استأنف بسماته الحلوة قائلًا:

- أنتم مخطئون أيها السادة، هذا المنديل ليس ملكي، ولا أعرف لماذا ناولني هذا السيد إياه بدلًا من أن يعطيه لأحدكم، ودليلي على ما أقوله، ها هو منديلي في جيبي.

وعقِب هذه الكلمات أخرج منديله الخاص، كان أيضًا منديلًا أنيقًا وفاخرًا جدًّا، على الرغم من أن قماش الكمبريك كان باهظ الثمن في ذلك الوقت، لكنه منديل دون تطريز ودون شعار ومزيّن برمز واحد يعود لصاحبه.

هذه المرة لم ينبس دارتانيان بكلمة واحدة، فقد أدرك خطأه القادح؛ لكن أصدقاء أراميس لم يقتنعوا بإنكاره، وخاطب أحدهم الفارس الشاب بجديّة متصنعًا وقال:

- لو كان الأمر كذلك، كما تدعي، سأضطر يا عزيزي أراميس، إلى أن أسألك مرة أخرى؛ لأن السيد بوا-تريس -كما تعلم- صديق مقرب لي، ولا أريد أن يشهر بزوجته بمثل هذه التذكارات.

أجاب أراميس:

- أنت تسأل عن ذلك بشكل سيّئ. وبينما أدرك صحة اعتراضك فيما يتعلّق بالمضمون فإنني أرفضه من حيث الشكل.

وجازف دارتانيان بخجل:

- الحقيقة، أنني لم أرَ المنديل يخرج من جيب السيد أراميس لأن قدمه كانت تجثم فوقه، هذا كل شيء، واعتقدت أنه ما دام المنديل تحت قدمه، فسيكون ملكًا له.

أجاب أراميس ببرود غير مبال بمحاولة دارتانيان لإصلاح الوضع:

- وأنت مخطئ يا سيدي العزيز.

ثم انتقل إلى أحد الحراس الذي أعلن أنه صديق بوا-تريسي.

واستطرد قائلًا:

- إلى جانب ذلك، أفكر، يا صديقًا عزيزًا للسيد بوا-تريسي، أنني صديقه لكني لست أقل رقة مما يمكنك أن تكون عليه، بحيث يمكنك إخراج هذا المنديل بسهولة من جيبك كما فعلت بمنديلي.

صاح حارس جلالته:

- لا، أقسم!

- ستقسم وسأقسم، ومن الواضح أن أحدنا سيكون كاذبًا. تعال، دعنا نفعل ما هو أفضل، لنثبت كلامنا، ليأخذ كل واحد منا نصفه.

- من المنديل؟

- نعم.

هتف الحارسان الآخران:

- حقًّا، فعلًا يا أراميس، أنت مفعم بالحكمة.

انفجر الشباب ضاحكين، وكما يمكنك أن تتخيل، لم يكن للقضية تبعات أخرى. بعد لحظة توقفت المحادثة، وتصافح الحراس الثلاثة والفارس، وانصرف الحراس الثلاثة من جهة وأراميس من الجهة الأخرى.

قال دارتانيان لنفسه، الذي ظلَّ منعزلًا قليلًا خلال الجزء الأخير من هذه المحادثة: «هذه هي اللحظة التي أصنع فيها سلامي مع هذا الرجل الشجاع، وبهذا الشعور الطيب، اقترب أكثر من أراميس الذي كان يبتعد عنه دون أن يلتفت إليه:

قال له: يا سيدي، أرجو أن تعذرني.

قاطعه أراميس:

- آه! سيدي، اسمح لي أن ألاحظ أنك لم تتصرف في هذا الظرف بتهذيب.

صاح دارتانيان:

- ماذا يا سيدي! هل تفترض...

- أفترض، يا سيدي، أنك لست أحمق، وأنك تعلم جيدًا، على الرغم من وصولك من الجاسكون، أن المرء لا يمشي دون سبب على المناديل! باريس ليست مرصوفة بالقماش الكامبريكي.

قال دارتانيان، الذي بدأت طبيعته المشاكسة تتحدث بصوت أعلى من الحلول السلمية:

- سيدي، أنت مخطئ إذا حاولت إذلالي، أنا من جاسكون، هذا صحيح، وبما أنك تعرف ذلك، فلن أحتاج أن أخبرك أن جاسكون ليسوا صبورين دائمًا، حتى إنهم عندما يعتذرون، فإنهم يفعلون ذلك مرة واحدة، وحتى وإن كانت حماقة، فإنهم مقتنعون بأنهم فعلوا بالتأكيد نصف ما ينبغي فعله.

أجاب أراميس:

- يا سيدي، ما أقوله لك ليس دعوة للشجار معك، أنا لست متعجرفًا، وكوني أحد الفرسان بشكل مؤقت، فأنا أقاتل فقط عندما أُجبر على ذلك، ودائمًا بتردد كبير، لكن هذه المرة الأمر خطير، لأن سيدة أضحت متهمة بسببك.

صاح دارتانيان:

- بسببنا! ماذا يعني هذا؟

- لماذا قمت بإعادة المنديل برعونة؟

- ولماذا قمت بإسقاطه؟

- قلت وسأكرر يا سيدي أن هذا المنديل لم يخرج قط من جيبي.

- حسنًا! لقد كذبت مرتين يا سيدي لأنني رأيته يخرج من جيبك!

- عجبًا! إذا أصررت على ادعائك، يا سيد الجاسكوني! حسنًا! كيف تعيش؟

- وسأعيدك إلى قداسك يا سيدي الكاهن! أشهر سلاحك من فضلك في هذه اللحظة بالذات.

- لا، من فضلك يا صديقي الجميل، لا ليس هنا على الأقل. ألا يمكنك أن ترى أننا أمام قصر دوغويون المليء بمخلوقات الكاردينال؟ ما أدراني أن صاحب السيادة هو الذي كلّفك بأن تمنحه رأسي على طبق من فضّة؟ لكني أحتفظ برأسي بسخافة، لأنها تبدو لي مناسبة تمامًا على منكبي، لذلك أريد قتلك، لا تقلق، سأقتلك ببطء شديد في مكان مُغلق ومستور حيث لا يمكنك أن تتباهى بموتك أمام أي شخص.

- أريد ذلك، ولكن لا تنخدع، أحضر منديلك سواء كان لك أم لغيرك. ربما ستتاح لك الفرصة لاستخدامه.

سأل أراميس:

- السيد جاسكوني؟

- نعم، السيد لا يؤجل موعدًا من باب الحكمة؟

- الحكمة، يا سيدي، هي فضيلة عديمة الفائدة تمامًا للفرسان كما أعلم، ولكن لا غنى عنها لأصحاب الكنيسة، وبما أنني مجرد فارس مؤقت، فأنا أريد أن أبقى حذرًا. في الساعة الثانية، سيكون لي شرف انتظارك في قصر دو تريفيل، هناك سأريك الأماكن الصحيحة.

حيّا الشابان أحدهما الآخر، ثم ابتعد أراميس مرتقيًا الشارع المؤدي إلى لوكسمبورغ، بينما رأى دارتانيان اقتراب الساعة، فسلك الطريق إلى كارم-ديشو، وهو يقول في نفسه:

- بالتأكيد، لا يمكنني تجاوز الأمر؛ ولكن على الأقل إذا قتلت فسوف يقتلني فارس.

5

فرسان الملك وحراس الكاردينال

لم يكن دارتانيان يعرف أحدًا في باريس، لذلك ذهب إلى موعد آثوس دون إحضار شاهده الثاني مصممًا على الاكتفاء بما يختاره خصمه. إلى جانب ذلك، كانت نيته حاسمة في أن يقدم للفارس الشجاع الأعذار المناسبة كلها، ولكن دون أن يبدي أي نوع من الضعف خوفًا من أن ينجم عن هذه المبارزة ما لا تحمد عقباه. في قضية من هذا النوع، عندما يقاتل شاب قوي خصمًا أضعفه جرحه: إذا هزم فسيضاعف انتصار خصمه، وإذا انتصر سيتهم بالغدر والجرأة السهلة.

إلى جانب ذلك، إما أننا كشفنا بشكل سيئ عن شخصية بطلنا المغامر، أو أن قارئنا لا بد أنه لاحظ أن دارتانيان لم يكن رجلًا عاديًّا فعلًا. لذلك، بينما كان يردد لنفسه أن موته صار حتميًّا، وأنه لن يستسلم للموت بسهولة مثل أي شخص آخر أقل شجاعة وأقل اعتدالًا مما سيفعله مكانه. لقد فكّر في الشخصيات المختلفة لأولئك الذين سيقاتلهم، وبدأ يرى موقفه بشكل أكثر وضوحًا. كان يأمل -بفضل اعتذاراته الصادقة- أن يجعل آثوس صديقًا له، الذي كانت تعجبه كثيرًا هيئته المهيبة وسلوكه الصارم. تفاخر بنفسه معتقدًا أنه سيخيف بورثوس بمغامرة الحزام، الذي يمكنه، إذا لم يُقتل على الفور، أن يخبر الجميع بقصته التي ستدفع مهارة تأثيرها بورثوس إلى الغرق بسخرية؛ أخيرًا، أما بالنسبة لأراميس الماكر، فلم يكن خائفًا منه كثيرًا، وافترض أنه وصل إليه، فيرسله بعيدًا، أو على الأقل سيوجه له ضربة على وجهه، كما أوصى قيصر جنوده أن يفعلوا بيومبي، لتدمير ذلك الجمال الذي كان يفتخر به دومًا.(16)

ثم كان لدارتانيان ذلك الرصيد من الحلول الثابتة الذي رسخه والده في فؤاده، وكانت نصيحته: «لا تعانِ أبدًا من أجل أي شخص سوى الملك والكاردينال

والسيد دو تريفيل» لذلك طار بدلًا من السير نحو دير كارم-ديشوسي، أو بالأحرى ديشو، كما يقال في ذلك الوقت، وهو نوع من المباني منعدم النوافذ تحده المروج القاحلة، ويعد فرعًا من بري -أو- كليرك، والذي يستخدم عادة للقاءات أشخاص ليس لديهم الوقت لإضاعته.

عندما أصبح دارتانيان على مرمى البصر من الأرض القاحلة الصغيرة الممتدة عند سفح هذا الدير، كان آثوس ينتظره منذ خمس دقائق فقط، ثم دقت ساعة الظهيرة. كان إذًا دقيقًا مثل الساعة السامراتية(17)، وبذلك لم يترك للأخلاقيين الأكثر صرامة ما يقولونه إزاء المبارزات.

كان آثوس لا يزال يعاني بشدة من جرحه، على الرغم من وضعه للضمادات من قبل جراح، جالسًا على حاشية حجرية ينتظر خصمه بمظهره الهادئ ومحياه الوقور اللذين لن يفارقاه أبدًا. عندما لمح دارتانيان نهض وخطا بأدب بضع خطوات أمامه، من جانبه، لم يقترب دارتانيان من خصمه إلا وقبعته منزوعة في يده بينما ريشتها متدلية حتى أوشكت أن تلامس الأرض.

قال آثوس:

- سيدي، لقد أبلغت اثنين من أصدقائي اللذين سيكونان شاهدين، لكن هذين الصديقين لم يصلا بعد، أنا مندهش من تأخرهما، فهذه ليست عادتهما.

قال دارتانيان:

- ليس لدي أي شاهد، يا سيدي، لأنني وصلت إلى باريس أمس فقط، ولا أعرف أي شخص هنا حتى الآن باستثناء السيد دو تريفيل الذي أوصاه والدي بي خيرًا، لأنه كان له الشرف أن يكون من أصدقائه تقريبًا.

فكر آثوس للحظة، ثم سأل:

- أنت لا تعرف سوى السيد دو تريفيل؟

- نعم سيدي، أنا لا أعرف سواه.

تابع آثوس محدّثًا نفسه، ودارتانيان تارة أخرى.

- آه، لكن... آه، لكن إذا قتلتك، فسوف أبدور أنا مثل آكلي الأطفال.

أجاب دارتانيان بتحية لا تنقصها عزة النفس:

- ليس كثيرًا يا سيدي؛ ليس كثيرًا، بما أنك تمنحني شرف أن تسحب السيف ضدي وأنت جريح والذي يجب أن يضايقك كثيرًا.

- منزعج جدًّا من وعدي، وقد آلمتني ألمًا شديدًا، يجب أن أعترف بذلك؛ لكنني سأستخدم اليد اليسرى فهذه عادتي في مثل هذه الظروف، لذلك لا تعتقد أنني سأقدم لك معروفًا، فأنا أسدد بكلتا يدي؛ بل ستكون متضررًا أيضًا لأن استخدام اليد اليسرى غير مريح جدًّا للأشخاص الذين لم يتم تحذيرهم، يؤسفني أنني لم أبلغك بهذا الظرف في وقت سابق.

قال دارتانيان وهو ينحني احترامًا مرة أخرى.

- أنت محق يا سيدي، هذا لطف لا أستطيع إلا أن أكون شديد الامتنان له.

أجاب آثوس بهيئته المهذبة:

- إنك تجعلني في حيرة من أمري، لذلك دعنا نتحدث من فضلك عن شيء آخر ما لم يكن ذلك مزعجًا لك، آه! سحقًا! كم آلمتني! منكبي يحرقني.

قال دارتانيان بخجل:

- إذا سمحت...

- ماذا سيدي؟

- لدي بلسم معجزة للجروح، بلسم صنعته والدتي، وقد اختبرته على نفسي.

- حسنًا؟

- طيب! أنا متأكد من أن هذا البلسم سيشفيك في أقل من ثلاثة أيام، وبعد ثلاثة أيام، عندما يتحقق شفاؤك، حسنًا! سيدي، سيشرفني عظيم الشرف أن أكون خصمك.

قال دارتانيان هذه الكلمات بكل بساطة منحت لطفه عزة دون التأثير بأي شكل من الأشكال على شجاعته.

قال آثوس:

- طبعًا، سيدي، هذا اقتراح يسعدني، ليس لأنني أقبله، لكنه يبدو وكأنه نابع من رجل نبي!. هكذا تحدث وفعل هؤلاء الرجال الشجعان في عصر شارلمان، والذين يجب أن يسعى كل فارس لأن يحذو حذوهم. لسوء الحظ، لم نعد في زمن الإمبراطور العظيم، نحن في زمن الكاردينال، وفي غضون ثلاثة أيام سنعرف، مهما حافظنا على السر جيدًا سنعرف -كما قلت- أننا يجب أن نتقاتل، وسيعارضون قتالنا. آه، لكن! ألن يأتي هذان المتسكّعان؟

قال دارتانيان لآثوس بالبساطة نفسها التي تحدّث بها قبل قليل مقترحًا تأجيل المبارزة بعد ثلاثة أيام: إذا كنت في عجلة من أمرك يا سيدي، وتتعجل أن تجهز عليّ فورًا، فلا تتردد من فضلك.

قال آثوس وهو يومئ برأسه ممتنًا لدارتانيان:

- هذه كلمة أخرى تسعدني، إنها ليست من رجل طائش، بل هي بالتأكيد من رجل ذي قلب كبير. سيدي، أنا أحب الرجال أمثالك، وأرى أنه إذا لم يقتل بعضنا بعضًا، فسوف أكون سعيدًا جدًّا بمحادثتك لاحقًا، دعنا ننتظر هؤلاء السادة من فضلك، لدي متسع من الوقت، وسيكون الأمر أكثر صوابًا. آه! ها هو واحد قادم، على ما أعتقد.

في الواقع، في نهاية شارع دي فوجيرارد، لاحت هيأة بورثوس العملاق.

صاح دارتانيان:

- ماذا! هل شاهدك الأول هو بروثوس؟

- نعم، هل هذا يزعجك؟

- لا على الإطلاق.

- وها هو الثاني.

التفت دارتانيان إلى الجهة التي أشار إليها آثوس، وتعرّف على أراميس.

صرخ بنبرة أكثر دهشة من المرة الأولى:

- ماذا! شاهدك الثاني هو السيد أراميس؟

- بلا شك، أنت لا تعلم أننا لا نفترق أبدًا، وأنهم يدعوننا الفرسان الملازمين في الحرس وفي البلاط وفي المدينة، آثوس وبورثوس وأراميس أو الثلاثة الذين لا ينفصلون؟ بعد ذلك، وما دمت قد قدمت من داكس أو بو...

قال دارتانيان:

- من تارب

قال آثوس:

- مسموح لك بأن لا تعرف هذه التفاصيل.

قال دارتانيان:

- أقسم أنكم أحسن الأسماء، أيها السادة، ومغامراتي إذا أحدثت أي ضجّة، ستثبت على الأقل أن اتّحادكم لا يقوم على التناقضات.

في هذه الأثناء، اقترب بورثوس، ولوّح بيده لآثوس؛ ثم حوّل نظره جهة دارتانيان، كان مندهشًا أيما اندهاش.

فلنزعم، بالمناسبة، أنه قد غيّر حزامه وخلع معطفه.

وقال:

- آه! آه! ما هذا؟!

قال آثوس، وأشار يده إلى دارتانيان، وحيّاه بالإيماءة نفسها:

- أنا سأقاتل السيد.

قال بورثوس:

- وأنا أيضًا سأقاتله.

أجاب دارتانيان:

- ولكن على الساعة الواحدة بالضبط.

قال أراميس الذي وصل بدوره إلى الميدان:

- وأنا أيضًا، سأقاتل السيد.

قال دارتانيان بالهدوء ذاته:

- لكن على الساعة الثانية بالضبط.

سأل أراميس:

- ولكن ما الذي تقاتل بسببه يا آثوس؟

- حسنًا، لست متأكدًا، لقد آلمني في منكبي؛ وأنت يا بورثوس؟

أجاب بورتوس خجلًا:

- حسنًا، أنا أقاتل لأنني أقاتل.

رأى آثوس، الذي لا يفلت شيئًا، ابتسامة رقيقة ترتسم على شفتي الجاسكوني.

قال الشاب:

- لقد تحدثنا عن أغراض الزينة.

سأل آثوس:

وأنت يا أراميس؟

أجاب أراميس مشيرًا إلى دارتانيان متوسلًا إليه أن يبقي سبب مبارزته سرِّيًّا:

- أنا أقاتل من أجل اللاهوت.

رأى آثوس ابتسامة ثانية على شفاه دارتانيان.

قال آثوس:

- حقًّا.

قال الجاسكوني:

- نعم، خلاف حول القديس أوغسطين، نقطة لا نتفق عليها.

همس آثوس:

- حتمًا، إنه رجل ذكي.

قال دارتانيان:

- والآن بعد أن اجتمعتم أيها السادة، اسمحوا لي أن أعتذر لكم.

وعقب كلمة الاعتذار هذه، قطّب آثوس جبينه غاضبًا، وانزلقت ابتسامة مُتعجرفة على شفتي بورثوس، وكان رد أراميس إشارة رفض.

قال دارتانيان رافعًا رأسه الذي انعكس فوقه في هذه اللحظة شعاع من أشعة الشمس فتألّق بخطوطه الجميلة والجريئة:

- أنتم لا تفهمونني، أيها السادة. لن أتمكّن من سداد ديوني لكل واحد منكم أنتم الثلاثة، لأن السيد آثوس له الحق في قتلي أولًا، الأمر الذي سينقص الكثير

من قيمته، يا سيد بورثوس، وهو ما يجعل ديونك شبه منعدمة يا سيد أراميس. والآن، أيها السادة، أكرر لكم اعتذاري، لكن فقط من أجل ذلك، والآن احتسوا!

على إثر هذه الكلمات، وبإيماءة متعجرفة ظاهرة، سحب دارتانيان سيفه.

كان الضغط قد ارتفع إلى رأس دارتانيان، وفي اللحظة التي أشهر فيها سيفه لمواجهة فرسان المملكة كما فعل للتو ضد آثوس وبورثوس وأراميس.

كانت الساعة الثانية عشرة والربع، كانت الشمس في ذروتها، وكان الموقع المختار ليكون مسرحًا للمبارزة مكشوفًا بكل ما فيه.

قال آثوس وهو يسحب سيفه بدوره:

- الجو حار جدًّا، ومع ذلك لم أتمكن من خلع معطفي؛ لأنني شعرت منذ قليل أن جرحي كان ينزف، وكنت أخاف إحراج السيد باطلاعه على دماء لم يتمكن من إسالتها مني بنفسه.

قال دارتانيان:

- هذا صحيح يا سيدي، تنزف من طرف شخص آخر أو بواسطتي، أؤكد لك أنني سأرى دائمًا بأسف شديد دماء رجل شجاع مثلك؛ لذلك سأقاتل بمعطفي مثلك.

قال بورثوس:

- دعنا نرَ، دعنا نرَ، كفى إطراءً من هذا النوع، وتذكر أننا ننتظر دورنا.

قاطعه أراميس قائلًا:

- تحدث عن نفسك وحدك يا بورثوس عندما تضطر للتحدث بفظاظة، بالنسبة لي، أرى أن الأشياء التي يقولها هذان السيدان، أحدهما للآخر، في منتهى اللباقة وجديرة بسيدين نبيلين.

قال آثوس وهو يستعد للمبارزة:

- متى شئت يا سيدي.

قال دارتانيان:

- كنت أنتظر أوامرك.

ولكن لم يكد المبارزان يلمس أحدهما الآخر حتى ظهرت فرقة من حراس مساحته بقيادة السيد دو جيساك عند زاوية الدير.

صاح كل من بورثوس وأراميس:

- حراس الكاردينال! السيف في غمده أيها السيدان! السيف في غمده!

ولكن بعد فوات الأوان، فقد شوهد المقاتلان في وضع لم يترك أي شك في نواياهما.

صاح جوساك، وتقدم نحوهم وأشار إلى رجاله أن يفعلوا الشيء نفسه:

- مهلًا! أيها الفرسان، هل تتقاتلان هنا؟ وماذا عن المرسوم الذي يمنع المبارزة، ماذا نفعل به؟

قال آثوس بامتعاض، لأن جوساك كان أحد المعتدين في اليوم السابق:

- أنتم كرماء جدًّا، أيها السادة الحراس، إذا رأيناكم تتقاتلان، فسأقول لك إننا سنحرص على عدم منعك من ذلك، لذا اترك الأمر لنا وسوف تستمتع دون أي عناء.

قال جوساك:

- أيها السادة، من المؤسف الشديد أن أعلن لكم أن الأمر مستحيل، واجبنا فوق كل شيء، اخمدا سيفيكما من فضلكما، واتبعاني.

قال أراميس ساخرًا من جوساك:

- سيدي، سيكون من دواعي سرورنا أن نطيع دعوتك الكريمة، إذا كانت تعتمد علينا، لكن للأسف، الشيء مستحيل، لأن السيد دو تريفيل منعنا من ذلك، تابعوا طريقكم، هذا هو أفضل شيء يمكنكم القيام به.

أثار هذا الاستهزاء سخط جوساك، فقال:

- سنعتقلكم إذا امتنعتم.

قال آثوس بصوت منخفض:

- إنهم خمسة، ونحن ثلاثة فقط، سنُهزم مرة أخرى، يجب إذن أن نموت هنا، إني أعلن ذلك، لن أعود مهزومًا عند القائد.

ثم اقترب بورثوس وأراميس على الفور، أحدهما من صاحبه، بينما اصطف جوساك وجنوده.

كانت هذه اللحظة الفريدة كافية بالنسبة لدارتانيان ليتّخذ قراره: كان هذا أحد الأحداث التي تحدد حياة رجل، وكان الاختيار بين الملك والكاردينال، وإذا اختار بينهما فمن الضروري المحافظة عليه! القتال، ويعني عصيان القانون والمخاطرة برأسه، وأن يجعل نفسه في الحال عدو وزير أقوى من الملك نفسه: هذا ما فكّر فيه الشاب، وكان نعم الاختيار، لم يتردد ثانية والتفت إلى آثوس وصديقيه وقال:

- أيها السادة، سأقتبس شيئًا من كلامكم، من فضلكم. لقد قلتم إنكم ثلاثة فقط، ولكن يبدو أننا أربعة فرسان.

قال بورثوس:

- ولكنك لست واحدًا منا.

أجاب دارتانيان:

- هذا صحيح، ليس لدي الزي، لكني أملك الروح! قلبي قلب فارس، أستطيع أن أشعر به يا سيدي، وهذا يغريني.

صرخ جوساك الذي لا شك أنه خمن من خلال إيماءات وسيماء وجه دارتانيان تصميمه على القتال إلى جانب الفرسان:

- قف جانبًا أيها الشاب، يمكنك الانسحاب، نحن نوافق، انجُ بنفسك هيّا بسرعة...

لم يتحرك دارتانيان قيد أنملة.

قال آثوس وهو يصافح الشاب:

- أنت بالتأكيد شاب جميل.

استأنف جوساك:

- هيا! هيا! دعونا نأخذ جانبًا.

قال بورثوس وأراميس:

- حسنًا، دعنا نفعل شيئًا.

قال آثوس:

- السيد مفعم بالكرم.

لكن الثلاثة فكروا في حداثة دارتانيان وخافوا عليه نظرًا لقلة تجربته.

أجاب آثوس:

- سنكون ثلاثة فقط، بينهم جريح وطفل، وسيقال إننا أربعة رجال.

قال بورثوس:

- نعم، إذن لنتراجع!

قال آثوس:

- هذا صعب.

أدرك دارتانيان حيرتهم، فقال:

- أيها السادة، ماذا ستخسرون؟ جربوني، وأقسم لكم إنني لا أرغب بمغادرة المكان إذا هُزمنا.

قال آثوس:

- ما اسمك يا صديقي الطيب؟

- دارتانيان، سيدي.

صرخ آثوس:

- حسنًا، يا بورثوس، وأراميس ودارتانيان، إلى الأمام!

صاح جوساك للمرة الثالثة:

- حسنًا! دعونا نرَ أيها السادة، هيا هل اتخذتم قراركم؟

قال آثوس:

- لقد تم ذلك، أيها السادة.

سأل جوساك:

- ما هو قراركم؟

أجاب أراميس:

- سنتشرف بأن نقاتلكم، ورفع قبعته بيد وسحب سيفه باليد الأخرى.

صرخ جوساك:

- آه! أنت تقاوم!

- سحقًا لك! هل فاجأك ذلك؟

واندفع المقاتلون التسعة يهاجم بعضهم بعضًا بغضب لم يستبعد أسلوبًا محددًا. واجه آثوس كاهوساك، الفارس المفضل لدى الكاردينال، واصطدم بورثوس بيسكارا ووجد أراميس نفسه وجهًا لوجه مع خصمين.

أما بالنسبة لدارتانيان، فقد وجد نفسه مندفعًا للتصدي إلى جوساك(18) نفسه.

كان قلب الشاب الجاسكوني ينبض داخل صدره ويكاد يكسره، ليس من الخوف! لم يكن يشعر بأدنى رهبة بل من حماس المنافسة! حارب كالنمر الهائج وكان يدور حول خصمه عشر مرات، ويغير حراسته وموقعه عشرين مرة، كان جوساك -كما قالوا آنذاك- مغرمًا بالمسابقة، وكان ممارسًا جيدًا، ومع ذلك فقد واجه متاعب العالم كلها للدفاع عن نفسه ضد خصم، رشيق ويقظ ووثاب، ينحرف في كل لحظة عن قواعد المسايفة الملقنة، يهاجم من الجهات كلها وفي الوقت ذاته.

أخيرًا وفي معمعة هذه المعركة بدأ جوساك يفقد صبره بل أضحى غاضبًا من أن يخفق في هزم الشخص الذي كان يعتبره منذ قليل طفلًا؛ فقد تركيزه وبدأ في ارتكاب الأخطاء، أما دارتانيان الذي تنقصه الممارسة فكانت لديه نظرية عميقة وقد ضاعف من خفة حركته، أراد جوساك أن يضع حدًّا لذلك، فوجّه ضربة مروعة لخصمه في العمق؛ لكن هذا الأخير صدها، وبينما نهض جوساك انزلق دارتانيان مثل الثعبان تحت سيفه، ومَرّر سيفه عبر جسده، فسقط جوساك مثل كتلة ميتة.

ثم ألقى دارتانيان نظرة سريعة وقلقة على ساحة المعركة.

لقد قتل أراميس أحد خصومه فعلًا، لكن الآخر كان يهاجمه بقوة، ومع ذلك، كان وضع أراميس ممتازًا ولا يزال بإمكانه الدفاع عن نفسه.

كان بيسكارا وبورثوس قد وجّه أحدهما للآخر ضربة قوية: تلقى بورثوس ضربة سيف في الذراع، وبيسكارا في الفخذ، لكن نظرًا لأن أيًّا من الإصابات لم يكن خطيرًا، فقد واصلا القتال بضراوة أكبر.

كان آثوس، الذي أصيب مرة أخرى على يد كاهوساك، شاحبًا بشكل واضح، لكنه لم يتزحزح عن موقعه قيد أنملة، غير سيفه فقط واستمر يقاتل بيده اليسرى.

دارتانيان، وفقًا لقوانين المبارزة في ذلك الوقت، يمكن أن يساعد أي شخص؛ بينما كان يبحث عن أي من رفاقه يحتاج إلى مساعدته، ألقى نظرة على آثوس؛ كانت هذه النظرة صريحة وسامية! كان من الممكن أن يموت آثوس ومع ذلك لن يطلب المساعدة؛ لكن يمكنه أن يرى أن نظرته تطلب الدعم، حمّنها دارتانيان فقام بقفزة مروعة وسقط في الجهة المعاكسة لكاهوساك، وهو يصرخ:

- هلم إليَّ أيها الحارس، لأقتلك!

استدار كاهوساك. كان التوقيت مناسبًا، لأن آثوس سقط على ركبة واحدة بعدما صمد طويلًا بفضل شجاعته.

وصاح مناديًا دارتانيان:

- سحقًا! لا تقتله أيها الشاب، أتوسل إليك؛ لدي حساب قديم يجب أن أنهيه معه، عندما أتعافى وأكون بصحة جيدة، انزع سلاحه فحسب، هذا هو. حسن! جيد جدًّا!

قطع هتاف آثوس بواسطة سيف كاهوساك الذي قفز بعيدًا عنه عشرين خطوة، فاندفع دارتانيان وكاهوزاك إلى الأمام معًا للاستيلاء عليه؛ لكن دارتانيان كان الأكثر خفة، فأدركه أولًا ووطأه بقدمه.

ركض كاهوساك إلى أحد الحراس الذي قتله أراميس وأخذ سيفه، وأراد العودة إلى دارتانيان؛ ولكن في طريقه التقى بآثوس الذي استعاد أنفاسه خلال هذه

اللحظة التي منحها له تدخل دارتانيان، فأراد استئناف القتال خوفًا من أن يقتل دارتانيان عدوه.

أدرك دارتانيان أنه سيكون من المهين لآثوس أن لا يسمح له بالقيام بذلك. في الواقع، بعد ثوانٍ قليلة سقط كاهوساك وثُقب حلقه بضربة سيف.

في اللحظة نفسها، وضع أراميس سيفه على صدر خصمه المهزوم، وأجبره على طلب الرحمة.

بقي بورثوس وبيسكارا يتقاتلان، بينما يدلي بورثوس بألف ملاحظة متبجحة، وقد سأل بيسكارا عن الوقت، وأثنى على الترقية التي حصل عليها أخوه في فوج نافار العسكري؛ لكنه بينما كان يسخر لم يفخر أي منهما، كان بيسكارا من فئة هؤلاء الرجال الحديديين الذين لا يسقطون إلا مقتولين.

ومع ذلك، كان من الضروري إنهاء القتال الذي يمكن أن يصل خبره إلى الحرس فيعتقل جميع المقاتلين، جرحى أم قتلى، ملكيين أو كارديناليين، حاصر آثوس وأراميس ودارتانيان بيسكارا ودعوه إلى الاستسلام، على الرغم من أنه وحيد في مواجهة الجميع، وبسيف قطع فخذه أراد بيسكارا الصمود؛ لكن جوساك الذي قام على كوعه طالبه بالاستسلام. كان بيسكارا جاسكونيًّا مثل دارتانيان؛ اصطنع عدم سماعه واكتفى بالضحك، وبين هجمتين وجد وقتًا ليشير بنهاية سيفه إلى مكان على الأرض وقال وهو يسخر من آية من الكتاب المقدس:

- هنا، هنا سيموت بيسكارا.

- لكنهم أربعة ضدك. توقف، إني آمرك.

قال بيسكارا:

- حسنًا! إذا أمرت بذلك، فهذا شيء آخر، بما أنك رقيبي، يجب أن أطيعك...

وعندها قفز إلى الوراء وكسر سيفه على ركبته حتى لا يرده، وألقى القطع من فوق جدار الدير وعقد ذراعيه، وهو يصفر نغمة كاردينالية.

تُحترم الشجاعة دائمًا حتى في مواجهة العدو! حيا الفرسان بيسكارا بسيوفهم وأعادوها إلى أغمادها، فعل دارتانيان الشيء نفسه، ثم بمساعدة بيسكارا، الشخص الوحيد الذي بقي واقفًا، حمل تحت شرفة الدير، كاهوزاك وخصوم أراميس الذين جرحوا فقط. أما الرابع كما قلنا فقد كان ميتًا، ثم قرعوا الجرس وحملوا أربعة سيوف من أصل خمسة، وشقوا طريقهم وهم في حالة انتشاء من شدة الفرح في اتجاه قصر السيد دو تريفيل.

لقد شوهدوا متشابكين متراصين على طول عرض الشارع، يقابلون بكبرياء كل الفرسان الذين يصادفونهم، بحيث أصبحوا في النهاية مسيرة للمنتصرين! سبح قلب دارتانيان في نشوة عارمة، وسار بين آثوس وبورثوس وهو يحتضنهم بحنان.

قال لأصدقائه الجدد وهو يسير عبر باب قصر السيد دو تريفيل:

- إذا لم أصبح فارسًا بعد، فعلى الأقل سأصبح متدربًا، أليس كذلك؟

6

الملك لوي الثالث عشر(19)

أثارت هذه القضية ضوضاء كبيرة، وعلى إثرها وبّخ السيد دو تريفيل فرسانه بصوت عال، وهنأهم بصوت منخفض، ولكن بما أنه لم يكن هناك وقت لتضييعه من أجل تحذير الملك، سارع السيد دو تريفيل إلى قصر اللوفر. لقد فات الأوان سلفًا، فقد وجد الملك مجتمعًا بالكاردينال، وقيل للسيد دو تريفيل إن الملك كان في جلسة عمل ولا يمكنه استقباله في هذا الوقت. في المساء، حضر السيد دو تريفيل وكان الملك منهمكًا في اللعب وقد حقق فوزًا كبيرًا، ولأن جلالته كان بخيلًا جدًّا، فقد كانت معنوياته ممتازة، ما إن لمح الملك تريفيل من بعيد حتى قال:

- تعال إلى هنا أيها السيد، تعال ودعني أوبخك؛ هل تعلم أن سماحته جاءني ليشتكي من فرسانك، وقد كان منفعلًا إلى درجة أن سماحته بدا مريضًا هذا المساء؟ آه، لكن فرسانك أربعة شياطين، ويجب أن يُشنقوا!

أجاب تريفيل:

- لا يا مولاي، لا، على العكس، هم مخلوقات طيبة، لطيفة مثل الحملان، ولديهم رغبة واحدة فقط، وأنا أضمن لكم ذلك: هي أن سيفهم لن يخرج من غمدهم إلا لخدمة جلالتك. ولكن، ماذا تتوقع، إذا كان حراس الكاردينال يبحثون باستمرار عن مشاجرات معهم، ومن أجل الشرف نفسه، فإن الشباب المساكين ملزمون بالدفاع عن أنفسهم.

قال الملك:

- أصغ إليّ أيها السيد دو تريفيل! لو سمعته! فإنه يبدو وكأنه يتحدث عن جماعة دينية! في الحقيقة، قائدي العزيز، أريد أن آخذ إجازتك الملكية وأعطيها إلى الآنسة دو شومرول، التي وعدتها بدير. لكن لا أعتقد أنني أصدق كلماتك على هذا النحو، اسمي لوي العادل، أيها السيد دو تريفيل، وسنرى لاحقًا.

- حسنًا! ولأنني أثق بهذه العدالة، يا سيدي، سأنتظر بصبر وهدوء رغبة جلالتكم.

قال الملك:

- انتظر لحظة سيدي، انتظر، لن أجعلك تنتظر طويلًا.

في الواقع، كان الحظ في الطريق، وعندما بدأ الملك يفقد ما ربحه، لم يكن آسفًا لإيجاد عذر لترك اللعب، فقام الملك بعد لحظة، ووضع في جيبه ما كان أمامه من مال، وكان معظمه نتيجة فوزه وقال:

- لا فيوفيل، خذ مكاني، يجب أن أتحدث إلى السيد دو تريفيل بشأن مسألة ذات أهمية، حسنًا!... كان أمامي ثمانون بستولًا، ضعوا المبلغ نفسه حتى لا يضطر الذين خسروا إلى الشكوى، العدل فوق كل شيء.

ثم التفت إلى السيد دو تريفيل وسارا معًا نحو النافذة وأضاف:

- حسنًا! سيدي، أنت تقول إن حراس سماحته هم من أقدموا على الشجار مع فرسانك؟

- نعم يا مولاي كما هو الحال دائمًا.

- وكيف حدث ذلك يا ترى؟ لأنه، كما تعلم، يا قائدي العزيز، على القاضي أن يستمع إلى كلا الطرفين.

- آه! يا إلهي! بأبسط الطرق وأكثرها بداهة، ثلاثة من أفضل جنود جلالة الملك يعرفهم بأسمائهم ومقدار تفانيهم أكثر من مرة، ويمكنني أن أقول للملك إنهم

يخدمونه من قلوبهم؛ قلت: ثلاثة من أفضل جنود جلالتك وهم: آثوس وبورثوس وأراميس وبرفقتهم متدرب شاب من الجاسكون كنت قد أوصيتهم به في ذلك الصباح بالذات. كانت المبارزة ستُقام في سان جيرمان، على ما أعتقد، وقد رتّبوا للقاء في كارم- دوشو، لكن كاهوساك، وبيسكارا، ويسكارا، واثنين من الحراس الآخرين تسبّبوا في إزعاجهم، وبالتأكيد قدموا إلى هناك في فرقة كبيرة بنوايا سيئة.

قال الملك:

- آه! آه! ذكرتني: لا شك أنهم جاؤوا ليقاتلوهم.

- أنا لا أتهمهم يا مولاي، لكنني سأدع جلالتك تقدر ما يمكن أن يفعله خمسة رجال مسلحين في مكان مهجور مثل محيط دير الكارم.

- نعم، أنت محق، يا تريفيل، أنت محق.

- لذلك عندما رأوا الفرسان، غيروا رأيهم ونسوا كراهيّتهم الخاصة وتذكروا كراهيتهم للفرسان، لأن جلالتك تدرك جيدًا أن الفرسان، الذين ينتمون إلى الملك ولا شيء غير الملك، هم أعداء طبيعيون للحرس، الذين ينتمون إلى الكاردينال.

قال الملك حزينًا:

- نعم، يا تريفيل، نعم، ومن المحزن جدًّا، صدقني، أن أرى مثل هذين الفريقين في فرنسا، شخصان يعتليان الملك! لكن هذا كله سينتهي يا تريفيل، سينتهي كل شيء.. تقول إن الحراس تشاجروا مع الفرسان؟

- أقول إنه من المحتمل أن يكون الأمر على هذا النحو، لكنني لا أقسم يا مولاي. أنت تعرف مدى صعوبة معرفة الحقيقة، وما لم تكن تتمتع بهذه الغريزة الرائعة التي جعلت من لوي الثالث عشر يلقب بالملك العادل...

- أصبت عين الحقيقة يا تريفيل. لكن الفرسان لم يكونوا وحدهم، هل كان معهم صبيّ؟

- نعم، يا مولاي، ورجل جريح، حتى إن فرسان الملك الثلاثة، كان أحدهم جريحًا، ومعهم صبيّ، لم يقفوا في وجه خمسة من أفظع حراس الكاردينال فحسب، بل أسقطوا أيضًا أربعة على الأرض.

صرخ الملك مبتهجًا:

- لكن هذا نصر! إنه انتصار مطلق!

- نعم، يا مولاي، انتصار مطلق مثل جسرسي(20).

- تقول أربعة رجال، واحد جريح وصبيّ؟

- شاب صغير، تصرّف بشكل مثالي. وبالمناسبة، سأسمح لنفسي بأن أوصي جلالتك به.

- ما اسمه؟

- دارتانيان، يا مولاي. هو ابن أحد أقدم أصدقائي، ابن رجل ترك ذكرى مجيدة حينما خاض حرب المناصرين إلى جانب والدك الملك.

- وأنت تقول إن هذا الشاب تصرّف بشكل جيد؟ أخبرني عن ذلك، يا تريفيل، أنت تعلم أنني أحب حكايات الحرب والقتال.

ورفع الملك لوي الثالث عشر شاربه بفخر، مستريحًا على أريكته.

أكمل تريفيل:

- مولاي، كما أخبرتك، فإن دارتانيان يكاد يكون طفلًا، ولأنه لا يحظى بشرف أن يكون فارسًا، فقد كان يرتدي لباسًا برجوازيًّا، وقد أدرك حراس الكاردينال أنه فتى، بالإضافة إلى أنه كان غريبًا عن الفرسان، فدعوه إلى الانسحاب قبل أن يهاجموا.

قاطعه الملك:

- هكذا يمكنك أن ترى، يا تريفيل، أنهم هم الذين بدأوا الهجوم.

- هذا صحيح يا مولاي، لا شك في ذلك؛ لذلك أمروه بالانسحاب، لكنه رد بأنه فارس في قلبه وسيضحي بالغالي والنفيس من أجل جلالة الملك لذلك قرر البقاء إلى جانب الفرسان.

همس الملك:

- شاب شجاع!

- وبالفعل بقي معهم. ولدى جلالتكم هنا بطل حازم، وهو من ضرب جوساك ضربة سيف رهيبة أغضبت الكاردينال بشدة.

صرخ الملك:

- هل هو من جرح جوساك؟ يا له من صبيّ! هذا مستحيل يا تريفيل.

- إنه لشرف لي أن أخبر جلالة الملك.

- يُعد جوساك، من المسايفين البارزين في المملكة!

- وإذن يا مولاي! لقد وجد من يعلمه.

- أريد أن أرى هذا الشاب، يا تريفيل، أريد أن أراه، وإذا كان بإمكاننا فعل شيء، فإننا سنهتم به إذًا.

- متى تسمح جلالتكم باستقباله؟

- ظهيرة الغد، يا تريفيل.

- هل سأحضره وحده؟

- لا، أحضر الأربعة معًا. أريد أن أشكرهم جميعًا دفعة واحدة؛ الرجال المخلصون نادرون، يا تريفيل، والتفاني يجب أن يُكافأ.

- في الظهيرة يا مولاي سنكون في قصر اللوفر.

- حسنًا! ادخلوا من الدرج الصغير، يا تريفيل، بواسطة الدرج الصغير، لا جدوى من أن يعرف الكاردينال...

- نعم يا مولاي.

- أنت تفهم، يا تريفيل، المرسوم هو دائمًا مرسوم؛ وهو يحظر القتال في نهاية المطاف.

- لكن هذا القتال، يا مولاي، هو بعيد تمامًا عن الظروف العادية للمبارزة: إنه شجار، والدليل أنهم كانوا خمسة، من حراس الكاردينال ضد فرساني الثلاثة والسيد دارتانيان.

قال الملك:

- هذا صحيح، ولكن مهما كان الأمر، يا تريفيل، ستأتي دائمًا من الدرج الصغير.

ابتسم تريفيل، وحيّا الملك باحترام، وطلب الإذن بالانصراف:

في المساء نفسه، أبلغ الفرسان الثلاثة بالشرف الممنوح لهم، ولأنهم يعرفون الملك منذ فترة طويلة، لم يكونوا متحمسين كل الحماس؛ لكن دارتانيان، بخياله الجاسكوني، رأى ثروته المستقبليّة هناك، لذلك قضى الليل يحلم أحلامًا ذهبية.

وفي الساعة الثامنة صباحًا، ذهب عند آثوس.

وجد دارتانيان الفارس مرتديًا ملابسه كاملة وعلى استعداد للخروج، بما أن موعدهم مع الملك حتى الثانية عشرة، فقد خطط رفقة آثوس وأراميس، للذهاب ولعب لعبة الكف(21) في قاعة قمار تقع بالقرب من إسطبلات لوكسلمبورغ، دعا آثوس دارتانيان لمرافقتهم، وعلى الرغم من جهله بهذه اللعبة التي لم يلعبها من قبل، إلا أنه وافق، لتجزئة الوقت الممتد من التاسعة صباحًا إلى الثانية عشرة ظهرًا.

وصل الفرسان سلفًا وكانا يلعبان معًا. كان آثوس قويًّا جدًّا في حركته الجسمية كلها، مرّ مع دارتانيان إلى الجانب الآخر، وتحداهما. لكن مع أول حركة حاولها، وعلى الرغم من أنه لعب بيده اليسرى، فقد أدرك أن إصابته لا تزال حديثة جدًّا بحيث لن تسمح له بمثل هذا التمرين. لذلك بقي دارتانيان وحيدًا، وأعلن أنه لا يجيد اللعب، لكنهما استمرا في رمي الكُرات على بعضهم بعضًا دون احتساب نقاط اللعبة. ولكن إحدى هذه الكرات، التي ألقاها معصم بورثوس القوي مرت بالقرب من وجه دارتانيان، فتهيأ له أنها لو خبطت وجهه، بدلًا من المرور بجانبه، فربما تكون إصابته شديدة، ويصبح من المستحيل عليه المثول أمام الملك، ولأن هذا الموعد يعتمد عليه مستقبله كله، فقد اعتذر بأدب لبورثوس وأراميس، معلنًا أنه لن يواصل اللعبة حتى يكون في وضع يسمح له بأن يكون ندًّا لهما، وعاد إلى مقعد قريب من الحبل موجود داخل مقصورة المتفرجين.

لسوء حظ دارتانيان، كان من بين المتفرجين حارسًا لسماحته، كان لا يزال غاضبًا لهزيمة رفاقه، وصل من رحلة في اليوم السابق فقط، ووعد باغتنام أول فرصة للانتقام، لذلك كان يعتقد أن هذه الفرصة قد حانت، فخاطب جاره قائلًا:

- لا عجب، أن هذا الشاب كان خائفًا من كرة، لا بد أنه فارس مبتدئ.

استدار دارتانيان كما لو أن ثعبانًا عضه، وحدق بثبات في الحارس الذي أدلى بهذه الملاحظة الوقحة.

قال الأخير، وهو يلف شاربه بوقاحة:

- عجبًا! انظر إلى قدر ما تشاء، سيدي الصغير، لقد قلت ما قلته.

أجاب دارتانيان بصوت منخفض:

- وبما أن ما قلته واضح جدًّا بحيث لا تحتاج كلماتك إلى شرح، سأطلب منك أن تتبعني.

سأل الحارس بالنبرة الساخرة نفسها:

- ومتى؟

- فورًا، من فضلك.

- وبلا شك أنت تعرف من أكون؟

- لا أعرف إطلاقًا، ولا أهتم.

- وأنت مخطئ، لو كنت تعرف اسمي، فلن تكون على عجلة من أمرك.

- ما اسمك؟

- برناجو لخدمتك.

قال دارتانيان بهدوء، سأنتظرك عند الباب.

- حسنًا! أيها السيد برناجو.

- هيا يا سيدي، سألحق بك.

- لا تستعجل كثيرًا، يا سيدي، حتى لا نلاحظ أننا نغادر؛ أنت تدرك أن معرفة ما سنفعله، قد يزعجنا فيه كثير من الناس.

أجاب الحارس مندهشًا من أن اسمه لم يخلف تأثيرًا على الشاب.

- هذا حسن.

في الواقع، كان اسم برناجو معروفًا عند الجميع، باستثناء دارتانيان، ربما لأنه كان من الذين يظهرون في أغلب الأحيان في المشاجرات اليومية التي لم تتمكّن مراسيم الملك والكاردينال من كبحها.

كان بورثوس وأراميس مشغولين جدًّا بلعبهما، يتابعهما آثوس عن كثب حتى إنهم لم يروا رفيقهم الشاب يخرج، والذي، طلب من حارس سماحته، أن يتوقف عند الباب، بعد لحظة نزل بدوره، ولأن دارتانيان لا يملك وقتًا لإضاعته، ما دام

لقاء الملك سيكون عند الظهيرة، فقد ألقى نظرة سريعة حوله، فرأى أن الشارع كان مهجورًا.

قال لخصمه:

- حسنًا، إنه لمن حسن حظك، على الرغم من أن اسمك برناجو، أن تبارز فارسًا مبتدئًا، ومع ذلك كن مطمئنًا، سأبذل قصارى جهدي. استعد!

قال الرجل الذي كان دارتانيان يستفزه بهذه الطريقة:

- يبدو لي أننا اخترنا المكان السيّئ، سنكون أفضل حالًا خلف دير سان جيرمان أو في بري- أو- كليرك.

أجاب دارتانيان:

- ما تقوله صحيح، لكن لسوء الحظ لا أملك الوقت، لدي موعد عند الظهر. لذا احذر يا سيدي، احذر!

لم يكن برناجو من النوع المتردد، في اللحظة نفسها تألّق سيفه في يده، وانقض على خصمه الذي كان يأمل، بفضل شبابه العظيم، أن يبث الذعر في قلبه.

لكن دارتانيان كان قد خاض معركته الأولى في اليوم السابق، وما زال منتشيًا بانتصاره، وكل آماله معقودة على موعده فقد صمم على الثبات وعدم التقهقر: لذلك اصطدم النصل بالنصل ووقف دارتانيان ثابتًا في مكانه، وكان خصمه من تراجع خطوة. لكن دارتانيان انتهز اللحظة عندما انحرف، خلال هذه الحركة سيف برناجو عن الخط، فاندفع، ولمس خصمه على كتفه وعلى الفور تراجع دارتانيان بدوره خطوة إلى الوراء ورفع سيفه؛ لكن برناجو صرخ بأنه لا شيء، واندفع اندفاعة عمياء نحوه، فأغلق على نفسه. ومع ذلك، وبما أنه لم يسقط، لم يعلن أنه مهزوم، لكنه تراجع فقط إلى جانب قصر السيد دو ترموي الذي كان أحد أقاربه. كان دارتانيان يجهل خطورة الجرح الأخير الذي أصيب به خصمه، فضغط عليه بشدة، وكان بلا شك على وشك الإجهاز عليه بضربة ثالثة، عندما

انتشرت الشائعات من الشارع إلى صالة لعبة الكف، فقد سمع صديقا الحارس وهو يتبادل بضع كلمات مع دارتانيان، ورأوه يخرج على إثرها، فاندفعا مشهرين سيفيهما وهاجما فجأة المنتصر. لكن في الحال ظهر آثوس وبورثوس وأراميس بدورهم، في اللحظة التي كان الحارسان يهاجمان رفيقهم الشاب، فأجبروهما على الالتفاف. في هذه اللحظة سقط برناجو! وحيث كان الحراس اثنين مقابل أربعة فقط، بدأوا بالصراخ «النجدة، يا من يوجد في قصر لا ترموي!» عند هذه الصيحات، خرج كل من كان في القصر مسرعًا وهاجموا الرفاق الأربعة الذين بدأوا بدورهم بالصراخ، «النجدة، أيها الفرسان!».

كانت هذه النجدة تأتي بشكل تلقائي، لأن الفرسان كانوا معروفين بعدائهم لصاحب السماحة، وقد أحبهم الناس من أجل الكراهية التي يكنونها للكاردينال، كما أن حراس الفرق الأخرى غير تلك التابعة للدوق الأحمر - كما أطلق عليه أراميس- ينحازون بشكل عام في مثل هذه الأنواع من المشاجرات إلى صف فرسان الملك، من بين ثلاثة حراس من فرقة السيد دي إيسار التي كانت تمر بالجوار جاء اثنان لمساعدة الرفاق الأربعة، بينما ركض آخر إلى قصر السيد دو تريفيل، صارخًا: «النجدة، أيها الفرسان، النجدة!» كالعادة، كان قصر السيد دو تريفيل مليئًا بجنود السلاح الذين هرعوا لمساعدة رفاقهم، فأصبحت المشاجرة عامة، لكن القوة كانت إلى جانب الفرسان، تراجع حراس الكاردينال وأهالي السيد دو لا تريموي إلى القصر، حيث أغلقوا أبوابه في الوقت المناسب لمنع أعدائهم من اقتحامها، في الوقت نفسه سحبوا المصاب إلى هناك وهو في حالة سيئة للغاية كما قلنا.

كانت المواجهة في ذروتها بين الفرسان وحلفائهم، وتداولوا فيما بينهم طريقة لمعاقبة الوقاحة التي أظهرها خدام السيد دو لا تريموي بالقيام بهجوم على فرسان الملك، أن تضرم النار في قصره. استقبل الاقتراح بحماس كبير، لكن لحسن الحظ حلت الساعة الحادية عشرة؛ فتذكر دارتانيان ورفاقه موعدهم، ولأنهم كانوا سيأسفون من حدوث مثل هذا العمل الرائع دونهم، فقد تمكنوا من تهدئة الناس، واكتفوا بإلقاء بعض الأحجار المرصوفة على الأبواب، لكن الأبواب قاومت: وبعد أن تعب الجميع غادر الفرسان خلسة نحو قصر دو تريفيل الذي

كان ينتظرهم، وعلى علم سلفًا بهذا الهجوم المباغت وما إن لحهم حتى هب فيهم قائلًا:

- أسرعوا إلى اللوفر، إلى اللوفر دون إضاعة لحظة، ودعونا نلتقِ الملك قبل أن يحذره الكاردينال؛ سنخبره عن ذلك كتتمة لقضية الأمس، وسنعرض عليه الواقعتين معًا.

وتوجه السيد دو تريفيل برفقة الشباب الأربعة نحو قصر اللوفر؛ لكن، لدهشة قائد الفرسان، حين أعلن له أن الملك قد ذهب لمطاردة الأيل في غابة سان جيرمان، تكرر هذا الخبر على مسامعه مرتين، وفي كل مرة كان الفرسان يلاحظون أن وجه السيد دو تريفيل يصير مكفهرًا.

وتساءل:

- هل كان جلالة الملك ينوي الخروج للصيد منذ أمس؟

أجاب الحاجب:

- لا فخامتكم، لقد جاء الصياد بالكلاب ليخبره هذا الصباح أن أيلًا قد حاصروه من أجله الليلة الماضية، في البداية رد بأنه لن يذهب، ثم لم يستطع مقاومة المتعة التي سيحصل عليها من الصيد، وبعد العشاء غادر.

سأل السيد دو تريفيل:

- وهل رأى الملك الكاردينال؟

أجاب الحاجب:

- على الأرجح، لأنني رأيت الخيول في عربة صاحب السيادة هذا الصباح، وسألت إلى أين وجهته، فقيل لي: «إلى سان جيرمان».

قال السيد دو تريفيل:

- لقد أُعلمنا، أيها السادة سأرى الملك هذا المساء. ولكن بالنسبة لكم، فأنا لا أنصحكم بالمغامرة.

كانت النصيحة منطقية جدًّا، وقبل كل شيء جاءت من رجل يعرف الملك كل المعرفة لدرجة أن الشبان الأربعة لم ينبسوا بأدنى كلمة، لذلك دعاهم إلى العودة إلى ديارهم وانتظار أخبار منه.

عندما دخل قصره، اعتقد السيد دو تريفيل أنه من الضروري تحديد موعد مع تقديم شكوى أولًا؛ فأرسل أحد خدمه إلى السيد دو لا تريموي حاملًا رسالة يدعوه فيها بأن يُخرج حارس الكاردينال من منزله، وأن يوبخ خدمه على الجرأة التي أظهروها أثناء هجومهم على الفرسان، لكن السيد دو تريموي تلقى سلفًا تحذيرًا من سائسه، الذي -كما نعلم- كان أحد أقرباء برناجو، جعله يجيب بأن السيد دو تريفيل أو الفرسان ليس هم من يجب أن يشتكوا، ولكن على العكس من ذلك، لأنهم هم من حرضوا الناس وأرادوا حرق القصر. الآن، بما أن الجدل بين هذين السيدين كان من الممكن أن يستمر لفترة طويلة، ومن الطبيعي أن يظل كل منهما متشبثًا برأيه، قرر السيد دو تريفيل أن يضع نهاية لكل شيء: يجب أن يذهب ويعثر على السيد دو تريموي بنفسه.

لذلك ذهب على الفور إلى قصره، وأعلن عن قدومه بنفسه.

استقبل السيدان بعضهما بعضًا بأدب، لأنه حتى وإن لم تكن هناك صداقة بينهما، فقد كان هناك احترام على الأقل؛ كلاهما كان من أهل الشجاعة والشرف، وبما أن السيد دو تريموي بروتستانتي، فقد كان نادرًا ما يرى الملك، لم يكن من أي حزب، فهو عمومًا غير متحيز في علاقاته الاجتماعية. لكن هذه المرة، كان الترحيب -وإن كان مهذبًا- أكثر برودة من المعتاد.

قال السيد دو تريفيل:

- سيدي، نعتقد أن كلًّا منا يحمل شكوى على الآخر، لهذا أتيت بنفسي حتى نتمكن من توضيح هذا الأمر معًا.

أجاب السيد دو تيرموي:

- عن طيب خاطر، لكني أحذرك من أنني على علم بمجريات الأحداث، وكل الأذى الذي تسبّب فيه الفرسان.

قال السيد دو تريفيل:

- أنت رجل عادل ومنطقي جدًّا، يا سيدي، لكي لا تقبل الاقتراح الذي أنا على وشك تقديمه لكم.

- تفضل يا سيدي، كلي آذان صاغية.

- كيف هي حالة السيد برناجو، قريب سائسك؟

- يا سيدي إنه في حالة سيئة. أصيب في ذراعه بضربة سيف، ولكنها ليست إصابة خطيرة، وبخلاف ذلك، فقد تلقى ضربة أخرى اخترقت رئته، لذلك قال الطبيب أشياء سيئة عنه.

- ولكن هل لا زال المصاب بكامل وعيه؟

- تمامًا.

- هل يتكلم؟

- بصعوبة لكنه يتكلم.

- حسنًا يا سيدي! فلنذهب إليه، ودعنا نتوسل إليه باسم الإله الذي ربما سيُدعى أمامه أن يتكلم بالحق، سأعدّه قاضيًا في قضيته يا سيدي، وما يقوله سأصدقه.

فكر السيد دو تيرموي للحظة، ثم وافق، ما دام من الصعب التوصل إلى اقتراح أكثر منطقًا.

نزلا إلى الغرفة حيـــث كان الجريح راقدًا عندما رأى هذين السيدين النبيلين

قادمين لزيارته، حاول أن ينهض من على سريره لكنه كان ضعيفًا للغاية، فقد استنزفه الجهد الذي بذله، وسقط شبه فاقد للوعي.

اقترب منه السيد دو تيرموي وجعله يستنشق الأملاح التي أعادته إلى الحياة، ودعا السيد دو تريفيل، الذي لم يرغب بالتأثير على المريض، السيد دو تيرموي لاستجوابه بنفسه.

حدث ما توقعه السيد دو تريفيل، فقد كان برناجو بين الحياة والموت، لم يفكر حتى في إخفاء الحقيقة للحظة، وأخبر السيدين بالحقيقة تمامًا كما وقعت.

كان هذا كل ما أراده السيد دو تريفيل، تمنى لبرناجو الشفاء العاجل، وترك السيد دو تيرموي، وعاد إلى قصره وأبلغ الأصدقاء الأربعة على الفور أنه ينتظرهم لتناول العشاء.

استقبل السيد دو تريفيل رفاقه استقبالًا حسنًا، وكانت المحادثة طوال العشاء حول الفشلين الذريعين لحراس الكاردينال، الآن، بما أن دارتانيان كان بطل هذين اليومين، فقد انهالت عليه التهاني كلها.

في حوالي الساعة السادسة صباحًا، أعلن السيد دو تريفيل أنه كان من الضروري الذهاب إلى اللوفر؛ لكن ما دام موعد الحضور الذي منحه لهم جلالة الملك قد فات؛ فقد طلبا الإذن بالدخول إلى غرفة الانتظار بدل المرور من الدرج الصغير، لم يكن الملك قد عاد بعد من الصيد، فمكث شبابنا ينتظرون مدة نصف ساعة تقريبًا مختلطين بحشد من رجال البلاط، وعندما فُتحت الأبواب جميعها وأعلن عن وصول جلالة الملك، شعر دارتانيان بأن يرتجف حتى نخاع عظامه، كانت اللحظة التالية، على الأرجح، ستقرر القادم من حياته، فشخصت عيناه بقلق على الباب الذي سيدخل منه الملك.

ظهر لوي الثالث عشر يمشي أولًا، كان يرتدي ملابس الصيد ولا زال معفرًا بالتراب، ويرتدي حذاء صيد عاليًا ويمسك سوطًا بيده، للوهلة الأولى، رأى دارتانيان أن الملك كان متجهمًا.

رغم هذه الهيئة التي كان عليها جلالة الملك، لكنها لم تمنع الحاشية من الاصطفاف في طريقه، ففي الصالات الملكية من الأفضل أن تُرى بعين غاضبة من ألا تُرى على الإطلاق، لذلك لم يتردد الفرسان الثلاثة، وتقدموا خطوة إلى الأمام، بينما ظل دارتانيان مختبئًا وراءهم، ولكن على الرغم من أن الملك كان يعرف آثوس وبورثوس وأراميس شخصيًا، إلا أنه مر أمامهم دون أن ينظر إليهم، ودون أن يتحدث، وكأنه لم يرهم قط، أما بالنسبة إلى السيد دو تريفيل، فعندما استقرت عينا الملك عليه للحظة، نظر إليه دو تريفيل بحزم لدرجة أن الملك التفت ونظر بعيدًا، وبعد ذلك عاد جلالته متذمرًا إلى مقامه.

قال آثوس متبسمًا:

- الأمور لا تبشر بخير، ولن نكون فرسان النظام بعد الآن.

قال السيد دو تريفيل:

- انتظِر عشر دقائق هنا، وإذا لم ترني أخرج بعد عشر دقائق، فارجع إلى قصري؛ سيكون من غير المجدي أن تنتظرني أكثر من ذلك.

انتظر الشباب الأربعة عشر دقائق، ربع ساعة، وعشرون دقيقة، بيد أن السيد دو تريفيل لم يعاود الظهور، داهمهم قلق بالغ حول ما سيحدث!

كان السيد دو تريفيل قد دخل بجرأة إلى مكتب الملك، ووجد جلالته في حالة مزاجية في غاية السوء، جالسًا على كرسي بذراعين وهو يضرب حذاءه بمقبض سوطه، الأمر الذي لم يمنعه من سؤاله برباطة جأش كبيرة عن أخبار صحته.

أجاب الملك:

- سيّئة سيدي، سيّئة، أنا أشعر بالملل.

لقد كان بالفعل أسوأ مرض يصيب لوي الثالث عشر الذي غالبًا ما كان يأخذ أحد حاشيته، ويسحبه إلى النافذة وهو يقول له: يا سيدي، دعنا نشعر بالملل معًا.

- كيف! جلالة الملك يشعر بالملل! قال السيد دو تريفيل. ألم تستمتع بالصيد اليوم؟

- متعة جميلة يا سيدي! كل شيء يتدهور في روحي، ولا أعرف ما إذا كانت هذه الطريدة هي التي لا سبيل لها أو الكلاب هي التي لم يعد لها أنف! نرمي أيلًا ذا عشرة قرون، ونركض وراءه ست ساعات، وعندما يكون جاهزًا لصيده يضع سان سيمون البوق في فمه ليصدر صيحة الهجوم، يحدث انقصاف! سرب الكلاب بأكمله ينحرف بعيدًا ملاحقًا أيلًا صغيرًا! ها أنت ترى أنني سأضطر للتخلي عن الصيد بالكلاب كما تخليت عن الصيد بالطيور الجارحة! آه! أنا ملك تعس للغاية، السيد دو تريفيل! لم يتبقَ لدي سوى صقر واحد لكنه مات أول أمس.

- في الواقع يا مولاي أنا أتفهم يأسك، والمصيبة عظيمة، ولكن يبدو لي أنه لا يزال لديك عدد كبير من الصقور والبيزان والبواشق.

- ولا يوجد رجل ليعلمها، الصقارون يرحلون، ولم يتبقَ سواي من يعرف فن الصيد بالطيور الجارحة، سينتهي كل شيء بعدي، وسوف يصطاد بالشِّراك والفخاخ والكمائن. آه، لو كان لدي متسع من الوقت لتدريب الطلاب! لكن صحيح، الكاردينال موجود دائمًا ولا يمنحني لحظة راحة، يحدثني عن إسبانيا، يحدثني عن النمسا، يحدثني عن إنجلترا! آه فيما يتعلق بالسيد الكاردينال، أنا غير راضٍ عنك يا سيد دو تريفيل.

كان دو تريفيل ينتظر الملك أن يتطرق للموضوع الأساسي، فهو يعرف الملك زمنًا طويلًا، لقد فهم أن كل شكاواه كانت مجرد مقدمة، نوع من الإثارة لتشجيع نفسه، وأن ما تحدث عنه أخيرًا هو ما يريد سماعه.

سأل السيد دو تريفيل، متظاهرًا بالدهشة الأكثر عمقًا:

- وماذا فعلت ليكون الملك تعسًا جدًّا وغير راضٍ عني؟

تابع الملك، دون أن يجيب على سؤال السيد دو تريفيل مباشرة:

- هل هكذا تقوم بعملِك يا سيدي؟ لماذا عينتك نقيب الفرسان؟ أليغتالوا رجلًا ويثيروا الفتنة في حي بأكمله ويحرقوا باريس دون أن تبس ببنت شفة؟ لكن بالإضافة إلى ذلك، بلا شك أنا أستعجل في اتهامك، بلا شك أن المشاغبين في السجن وأنك أتيت لتخبرني بأن العدالة قد تحققت.

أجاب السيد دو تريفيل بهدوء:

- سيدي، على العكس أتيت لأشتكي.

هتف الملك:

- وممن؟

قال السيد دو تريفيل:

- من الوشاة.

أجاب الملك:

- عجبًا! هذا جديد. لا تقل إن فرسانك الثلاثة الملعونين، آثوس وبورثوس وأراميس وصبيَّك البيرني، لم ينقضوا مثل المجانين على برناجو المسكين، ولم يسيئوا معاملته بطريقة جعلته بين الحياة والموت في هذه الساعة! لا تقل بعد ذلك أنهم لم يفرضوا حصارًا على قصر الدوق دو لا تريموي، ولم يرغبوا في حرقه! والتي ربما لم تكن مصيبة كبيرة في زمن الحرب نظرًا لأنها عش للهوغينو، لكننا في وقت السلم وهذا عمل مخجل. قل: هل تنكر هذه الأشياء كلها؟

سأل السيد دو تريفيل بهدوء:

- ومن روى لك هذه القصة الجميلة يا مولاي؟

- من روى لي هذه القصة الجميلة يا سيدي! ومن تريده أن يكون، إن لم يكن الشخص الذي يراقب عندما أنام، ويعمل عندما أستمتع، ويقود كل شيء، داخل المملكة وخارجها، في فرنسا وكذلك في أوروبا؟

قال السيد دو تريفيل:

- بلا شك يريد جلالته التحدث عن الإله، لأنني أعرف من هو أقوى بكثير من جلالته غير الإله.

- لا يا سيدي، أعني داعم الدولة، خادمي الوحيد، صديقي الوحيد، السيد الكاردينال.

- سماحته ليس هو قداسته يا مولاي.

- ماذا تقصد بذلك يا سيدي؟

- أن البابا وحده المعصوم من الخطأ، وأن العصمة لا تمتد إلى الكرادلة.

- تقصد أنه يخونني، تقصد أنه يخونني. أنت تتهمه إذن! تعال، قل، اعترف بصراحة أنك تتهمه!

- لا يا مولاي. لكني أقول إنه يخدع نفسه. أقول إنه كان مضللًا، أقول إنه كان حريصًا على اتهام فرسان جلالتك بأنهم ظالمون، وإنه لا يحصل على معلوماته من المصادر الصحيحة.

- إن الاتهام من السيد دو لا تريموي الدوق نفسه، كيف سترد على ذلك؟

- بإمكاني أن أجيب، يا مولاي، بأنه متورط بالمسألة لدرجة أنه لا يمكن أن يكون شاهدًا محايدًا؛ لكن بعيدًا عن ذلك يا مولاي، أنا أعرف أن الدوق رجل نبيل ومخلص، وسأقبل إفادته، ولكن بشرط واحد، يا سيدي.

- وما هو شرطك؟

- أن يتصل جلالة الملك به ويستجوبه، ولكن وحدك وحدك وجهًا لوجه، دون شهود، وسأرى جلالتك مرة أخرى بمجرد استماعك للدوق.

قال الملك:

- أنا موافق! وسوف تقبل شهادة السيد دو لا تريموي؟

- نعم سيدي.

- هل تقبل شهادته؟

- دون شك.

- وهل ستعمل على الاستجابة لما يطلبه من تعويض؟

- تمامًا.

قال الملك:

- لا شيسناي! لا شيسناي!

دخل خادم لوي الثالث عشر الموثوق به الذي كان يقف عند الباب.

قال الملك:

- لا شيسناي، دعهم يحضروا لي السيد دو لا تريموي الآن؛ أريد أن أتحدث إليه الليلة.

- تعدني يا صاحب الجلالة بأنك لن تقابل أحدًا إلا بعد سماع إفادته؟

- لا أحد، وعد شرف.

- وإذن أراك غدًا، يا سيدي.

- أراك غدًا يا سيدي.

- من فضلك جلالتك، في أيّ ساعة؟

- وقتما تشاء.

- لكني أخاف أن أوقظ جلالتك إن قدمت في الصباح الباكر.

- توقظني؟ هل أنا أنام؟ لم أعد أنام يا سيدي. أحلم أحيانًا، هذا كل شيء.. لذا إذا أردت فلتأت في الصباح الباكر، الساعة السابعة. لكني أحذرك من عقابي إن كان فرسانك مذنبين!

- إذا كان فرساني مذنبين، يا مولاي، سيُسلم المذنبون إلى جلالتك، لتفعل بهم ما تشاء. هل تطلب جلالتك أيّ شيء أكثر؟ فلتأمروا وأنا رهن طاعتكم.

- لا، سيدي، لا، ليس من دون سبب أُدعى لوي العادل. إلى الغد يا سيدي، إلى الغد.

- وليحفظ الإله جلالتك حتى ذلك الحين!

في ذلك المساء بالذات، أرسل رسالة إلى فرسانه الثلاثة ورفيقهم ليكونوا برفقته في السادسة والنصف صباحًا، اصطحبهم دون أن يخبرهم بأي شيء، دون أن يعدهم بشيء، ولكنه لم يخف عنهم أنهم يقامرون بمكانتهم، وأنه يغامر بحظوته لدى الملك.

وصل إلى أسفل الدرج الصغير وجعلهم ينتظرون، إذا كان الملك لا يزال غاضبًا منهم، فسيعودون أدراجهم؛ وإذا وافق الملك على استقبالهم، فسيتعين عليه فقط انتظار استدعائهم.

عند وصوله إلى غرفة انتظار الملك الخاصة، وجد السيد دو تريفيل لا شيسناي، الذي أخبره أنه لم يقابل الدوق السيد لا تريموي في الليلة السابقة في قصره، وأنه عاد بعد فوات الأوان لتقديم نفسه في اللوفر، وأنه وصل للتو، ويوجد في ذلك الوقت عند الملك.

لقد أسعدت هذه الظروف السيد دو تريفيل كثيرًا، الذي كان بهذه الطريقة على يقين أن الملك لن يتلقى أي رأي من شخص آخر.

في الواقع، بالكاد انقضت عشر دقائق عندما فتح باب المكتب ورأى أن دوق لا تريموي يخرج ويأتي في اتجاهه وقال:

- السيد دو تريفيل، أرسل جلالة الملك في طلبي منذ حين لمعرفة كيف سارت الأمور صباح أمس في قصري. فقلت له الحقيقة، أن اللائمة تقع على خدمي وكنت على استعداد للاعتذار لك، وبما أنني ألتُقيتك، فأرجو أن تقبله مني واعتبرني دائمًا صديقًا لك.

قال السيد دو تريفيل:

- سيدي الدوق، كنت مترعًا بالثقة في ولائك، لدرجة أنني لم أرغب في أيّ مدافع آخر عني غيرك لدى جلالة الملك، أرى أنني لم أكن مخطئًا، وأشكرك لأنه ما زال في فرنسا رجل يمكننا أن نقول عنه دون أن نخطئ ما قلته عنك.

قال الملك الذي سمع هذه الإطراءات كلها ما بين البابين:

- هذا حسن، هذا حسن! فقط أخبره يا تريفيل، ما دام يدعي أنه صديق لك، أنني أود أيضًا أن أكون ملكه، لكنه يهملني؛ لقد مرت ثلاث سنوات منذ أن رأيته، ولا أراه إلا عندما أرسل من أجله، أخبره بكل هذا من أجلي، فهذه هي الأشياء التي لا يستطيع الملك أن يقولها بنفسه.

قال الدوق:

- شكرًا لك يا مولاي، شكرًا لك. لكن جلالتك تعتقد أن الحاضرين ليسوا كالغائبين، وأنا لا أقول هذا للسيد دو تريفيل البتة، ليس أولئك الذين تراهم في ساعات اليوم كلها هم الأكثر ولاء لكم.

- آه! سمعت ما قلته. قال الملك وهو يتقدم نحو الباب. آه! أنت يا تريفيل! أين فرسانك؟ أخبرتك أول أمس بأن تحضرهم لي، لماذا لم تفعل؟

- إنهم في الأسفل يا مولاي، وإذا سمحت سيقول لهم لا شيسناي أن يصعدوا إلى الطابق العلوي.

- نعم، نعم، دعهم يأتوا على الفور؛ ستكون الساعة الثامنة، وفي التاسعة صباحًا أتوقع زيارة. اذهب يا سيدي الدوق، وعد لزيارتي. تعال يا تريفيل.

انحنى الدوق وخرج. عندما فتح الباب، ظهر الفرسان الثلاثة ودارتانيان، يتقدمهم لا شيسناي، أعلى الدرج.

قال الملك:

- تعالوا أيها الشجعان تعالوا، لا بد أن أوبخكم.

اقترب الفرسان وانحنوا، تبعهم دارتانيان من الخلف.

واستطرد الملك:

- كيف! تمكنتم أنتم الأربعة من هزم سبعة من حراس سماحته خلال يومين! هذا كثير أيها السادة، هذا كثير! في الأثناء، سيكون سماحته قد اضطر إلى تجديد حرسه في غضون ثلاثة أسابيع، وسأقوم بتنفيذ المراسم بكل صارمة! بالصدفة واحد، لكن سبعة في يومين، أنا أكرر، هذا كثير جدًّا، كثير جدًّا.

- لذا يا مولاي، وكما يرى جلالة الملك فإنهم أتوا جميعًا نادمين وتائبين للاعتذار له.

قال الملك:

- كلهم نادمون وكلهم تائبون! أمم! لا أثق في وجوههم المنافقة، قبل كل شيء، أرى هناك وجهًا جاسكونيًا، تعال هنا يا سيدي.

اقترب دارتانيان الذي فهم أن المجاملة كانت له، فرسم على وجهه يأسًا بالغًا.

- حسنًا، قلت لي إنه شاب؟ لكنه طفل، أيها السيد دو تريفيل، إنه طفل حقيقي! وهل هو الذي وجه إلى جوساك تلك الضربة القوية؟

- وضربتا السيف الجميلتان إلى برناجو.

- حقًّا!

قال آثوس:

- ناهيك عن أنه لو لم يخرجني من بين يدي بيسكارا، فلن أتشرف بالتأكيد بتقديم أكثر تقديري المتواضع لجلالتك في هذا الوقت.

- ولكن هذا عفريت حقيقي! هذا البيرني، إنه من بطن القديس جريس! يا سيد دو تريفيل، وكما قال والدي الملك: في هذه المهنة، يتعين على المرء أن يخترق العديد من الأجسام ويكسر العديد من السيوف... لكن آل الجاسكون فقراء دائمًا، أليس كذلك؟

- سيدي، يجب أن أقول إن مناجم الذهب لم يتم العثور عليها بعد في جبالهم، رغم أن الإله وهبهم هذه المعجزة كمكافأة وهي نصرة والدكم الملك في معاركه.

- هذا يعني أن آل الجاسكون هم من جعلوني ملكًا، أليس كذلك، يا تريفيل، ما دمت ابن أبي؟ حسنًا! أنا لا أعترض، لا شيسناي، اذهب وانظر في جيوبي كلها، إذا وجدت أربعين بستولًا، وإذا وجدتهم أحضرهم إليَّ، والآن لنرَ أيها الشاب وبكل صدق، كيف جرت الأمور!

روى دارتانيان مغامرة اليوم السابق بتفاصيلها كلها، كيف أنه لم ينم من شدة فرحه برؤية جلالة الملك، فقد وصل إلى منزل أصدقائه قبل ثلاث ساعات من الموعد، وكيف ذهبوا إلى قاعة اللعب معًا، وكيف، خوفًا من أن تضربه الكرة على وجهه، سخر منه برناجو الذي كاد يدفع ثمن هذه السخرية فقدانه حياته، وأن السيد دو لا تريموي لا علاقة له بما حدث قرب قصره.

غمغم الملك:

- هذا صحيح. نعم، هذا ما قاله الدوق. يا له من مسكين الكاردينال! سبعة رجال في يومين ومن أفضلهم لديه، لكن هذا يكفي، أيها السادة، هل تسمعون! هذا يكفي، لقد انتقمتم من شارع فيرو وما بعده، يجب أن تكونوا راضين.

قال تريفيل:

- إذا كان جلالتكم كذلك، فنحن كذلك.

أضاف الملك:

- نعم، أنا كذلك، وأخذ حفنة من الذهب من يد لا شيسناي، ووضعها في يد دارتانيان، وقال: هذا دليل على رضاي.

في ذلك الزمان، لم تكن أفكار الفخر الشائعة اليوم مألوفة بعد، عندما يتلقى رجل نبيل مالًا من يد الملك، لا يعدُّ إذلالًا على الإطلاق، لذلك وضع دارتانيان الأربعين بستولًا في جيبه دون أن يعبر عن أي نوع من الانزعاج، بل على العكس من ذلك فقد شكر جلالة الملك كثيرًا.

قال الملك ناظرًا إلى ساعته:

- والآن، إنها الثامنة والنصف، انصرفوا، لأنني أخبرتكم أنني أنتظر زيارة شخص عند الساعة التاسعة صباحًا. أشكركم على تفانيكم أيها السادة، يمكنني الاعتماد عليكم، أليس كذلك؟

صاح الأصدقاء الأربعة بصوت واحد:

- بالتأكيد يا مولاي، من أجل جلالتك، سنُقطّع إربًا إربًا.

- حسنًا حسنًا، ولكن ابقوا سالمين: هذا أفضل، وستكونون أكثر فائدة لي.

وأضاف الملك بصوت منخفض بينما انسحب الآخرون:

- ما دام لا يوجد مكان بين الفرسان، ضع هذا الشاب بصحبة حراس صهرك السيد دي إيسار. آه! رباه يا تريفيل، أنا سعيد عند رؤية وجه الكاردينال، سيكون غاضبًا لكن ذلك لا يهمني؛ لأني على حق.

صافح الملك تريفيل، وخرج وانضم إلى فرسانه الذين وجدهم يتقاسمون الأربعين بستولًا مع دارتانيان.

أما الكاردينال -كما قال جلالة الملك- فقد كان غاضبًا بشدة، لدرجة أنه تخلى عن اللعب برفقة الملك طوال ثمانية أيام، ولم يمنع هذا الملك من أن يقابله بالبشاشة الأكثر سحرًا في العالم، وكلما قابله كان يسأله بصوت مداعب:

- حسنًا! يا سيدي الكاردينال، كيف حال حارسيْك الخاصين بيرناجو المسكين وجوساك المسكين؟

7

الفرسان من الداخل

عندما أصبح دارتانيان خارج قصر اللوفر، استشار أصدقاءه بشأن استخدام حصته من الأربعين بستولًا، نصحه آثوس بطلب وجبة جيدة من لابوم دوبان، ونصحه بورثوس أن يوظف خادمًا، ونصحه أراميس أن يتخذ عشيقة مناسبة.

تحققت الوجبة في اليوم نفسه، وقدمها له الخادم على المائدة، كانت الوجبة توصية من طرف آثوس، والخادم بلانشي الذي تخلّى عنه بروثوس ليخدم دارتانيان ما دام كان يملك خادمين، استأجر دارتانيان شقة صغيرة.

أما آثوس الذي كان يبلغ الثلاثين من العمر بالكاد ويتمتع بجمال جسدي وعقلي رائع، لم يعرف أحد أن لديه عشيقة، لا يتحدث أبدًا عن النساء، ولكنه لا يمنع مناقشة الأمر أمامه، وكان من السهل رؤية أنه في هذا النوع من المحادثات يتحدث بمرارة وإيحاءات عن كراهية البشر، كان يبدو منزعجًا تمامًا، وقد جعله احتياطه ووحشيته وصمته شبيهًا بعجوز، لذلك، من أجل عدم الانحراف عن عاداته، اعتاد خادمه غريمو على طاعته بالإشارة أو التلميح، ولا يحدثه إلا في الظروف القصوى.

وكانت لبورثوس شخصية معاكسة تمامًا لشخصية آثوس؛ لا يتحدث كثيرًا فقط، بل يتحدث بصوت عالٍ، ولا يعير اهتمامًا كثيرًا للآخرين، المرء يستحق الثناء، سواء استمع إليه أم لا، فهو يتحدث من أجل متعة الكلام ومن أجل متعة أن يُسمع له، يتحدث عن كل شيء، ما عدا العلوم، لأنه على حد قوله كان يكنّ كراهية متأصِّلة منذ طفولته للعلماء، كان أقل فخامة من آثوس، وشعوره بالدونية حول هذا الموضوع في بداية علاقتهما، غالبًا ما جعله غير منصف لهذا الرجل الذي سعى بعد ذلك إلى تجاوزه بملابسه الرائعة، ولكن مع معطف الفارس

البسيط الذي يرتديه والطريقة التي يُلقي بها رأسه للخلف منتصبًا في مشيته، أخذ آثوس على الفور مكانه الصحيح ونزل بورثوس الجذاب إلى المرتبة الثانية، وقد واسى بورثوس نفسه بحضوره الدائم في غرفة انتظار السيد دو تريفيل من خلال الحديث عن حظه الطيب الذي يجري على لسان حراس اللوفر، والذي لا يتحدث عنه آثوس أبدًا، وفي الوقت الحالي بعد انتقاله من نبالة الزيّ إلى نبالة السيف من الرويين(22) إلى البارونة، لم يكن هناك شك بالنسبة لبورثوس أن تكون أقل من أميرة أجنبية تتمنى له الخير الهائل.

يقول مثل قديم: «مثل السيد، مثل الخادم»، لذلك دعونا ننتقل من خادم آثوس إلى خادم بورثوس، من غريمو إلى موسكيتون.

كان موسكيتون نورمانديًّا غيّر سيده الأصلي من بونيفاس الهادئ إلى اسم موسكيتون الأكثر رنينًا والأكثر شراسة، لقد التحق بخدمة بورثوس بشرط أن يحصل مقابل ذلك على ملبسه ومرقده فقط، ولكن بطريقة عجيبة، لم يطلب سوى ساعتين في اليوم لتكريسهما لصناعة تكفي لتلبية احتياجاته الأخرى، قبل بورثوس الصفقة، وكان هذا يناسبه بشكل رائع.

قام بورثوس بتجهيز موسكيتون بملابس جيدة من معاطفه الاحتياطية، وبفضل خياط ذكي للغاية حوّل ملابسه المهترئة إلى ملابس جديدة من خلال إعادة خياطتها، أما بالنسبة لأراميس، فنعتقد أننا عرضنا شخصيته بشكل وافٍ، علاوة على ذلك يمكننا أن نتتبع تطور شخصيته مثل رفاقه، وكان خادمه يُدعَى بازين، بفضل الأمل الذي كان يعقده في أن يدخل سيده يومًا ما ضمن النظام الكهنوتي؛ كان يرتدي دائمًا ملابس سوداء كما ينبغي أن يكون رجل الكنيسة، كان في عمر يتراوح بين الخامسة والثلاثين والأربعين، وكان لطيفًا، مسالمًا، بدينًا، يشغل أوقات فراغه في قراءة أعمال تقية، ويعد عشاءً ممتازًا لشخصين عند الحاجة، إلى جانب ذلك كان كتومًا، أعمى، وأصم، ومخلصًا في الاختبارات كلها.

الآن بعد أن عرفنا -بشكل سطحي على الأقل- السادة والخدم، دعونا ننتقل إلى المنازل التي يشغلها كل واحد.

كان آثوس يقيم في شارع فيرو على مرمى حجر من لوكسمبورغ؛ تتكوّن شقته من غرفتين صغيرتين، مؤثثة بشكل أنيق للغاية، تخدمه شابة جميلة، تداعبه وتغويه باستمرار، لكن بلا فائدة، وكان ثمة بريق أخاذ من الماضي العظيم معلق على جدران هذا المسكن المتواضع؛ إنه سيف مرصع، يعود تاريخه إلى زمن فرانسوا الأول، كان المقبض وحده المرصع بأحجار كريمة، يساوي ثمنه مئتي بستول، ورغم مروره بلحظات عصيبة، إلا أن آثوس لم يوافِق قطُّ على استئجاره أو بيعه، لطالما كان هذا السيف طموح بورثوس، وكان سيمنح بورثوس عشر سنوات من حياته لامتلاك هذا السيف.

في أحد الأيام عندما واعد دوقة حاول أن يستعيره من آثوس، فقام هذا الأخير بإفراغ جيوبه دون أن ينبس ببنت شفة، وأخذ مجوهاته كلها، وسلاسله الذهبية، وعرض كل شيء على بورثوس، أما السيف فقال له: إنه مثبت في مكانه ولن يتركه حتى يترك سيده مسكنه، إلى جانب سيفه، كان ثمة صورة ممثل سيدًا من عصر هنري الثالث، مرتديًا ملابس في غاية الأناقة، وكان ثمة تشابه بين صاحب الصورة وآثوس، وبعض أوجه التشابه العائلي، مما يدل على أن هذا السيد العظيم كان فارسًا تحت إمرة الملك وهو سلف آثوس.

أخيرًا، كان ثمة صندوق فضي رائع موضوع في مُنتصف الموقد، كان يحمل آثوس دائمًا مفتاحه معه، ولكن ذات يوم فتحه أمام بورثوس وتمكّن هذا الأخير من التأكد من أن هذه الخزنة لا تحتوي إلّا على رسائل وأوراق، بلا شك رسائل حب وأوراق عائلية، بلا شك.

كان بورثوس يعيش في شقة كبيرة وفخمة جدًّا في شارع فيو كولومبييه في كل مرة كان يمر من تحت نافذته مع أحد الأصدقاء، وكان موسكيتون يقف دائمًا مرتديًا بذلته الكاملة، كان بورثوس يرفع رأسه ويده ويقول: ها هو بيتي! لكن لا أحد سأل عنه في بيته فوجده، ولم يدعُ أي شخص إليه، ولا يمكن لأحد أن يتخيل من هذا المظهر الفخم كم هو مقدار ثروته الحقيقية.

أمـــا أراميس، فقد كان يعيش في شقة صغيرة مكونة من صالون صغير وغرفة

طعام وغرفة نوم، وهي غرفة تقع مثل باقي البيت في الطابق الأرضي، وتطل على حديقة صغيرة نضرة، خضراء مظللة ولا يمكن لعيون الجيران أن تخترقها.

أما دارتانيان، فنحن نعرف تفاصيله، وقد تعرّفنا بالفعل على خادمه، السيد بلانشي.

كان دارتانيان بطبيعته شديد الفضول، مثل الناس الذين يملكون عبقرية الحبكة، يبذل قصارى جهده لمعرفة بالضبط من هو آثوس وبورثوس وأراميس، لأنه تحت أسماء الحرب هذه يخفي كل شاب اسم رجل نبيل، وخاصة آثوس، الذي يبدو نسبه العظيم عن بعد؛ لذلك لجأ إلى بورثوس للحصول على معلومات عن آثوس وأراميس وإلى أراميس لمعرفة بورثوس.

لسوء الحظ، لم يكن يعرف بورثوس نفسه عن حياة رفيقه الصامت إلا ما ظهر منها، قيل: إنه عانى في علاقاته العاطفية من مصائب كبيرة، وإن خيانة رهيبة سممت حياة هذا الرجل الشجاع إلى الأبد، ماذا كانت هذه الخيانة؟ الجميع تجاهله.

وفيما يخص بورثوس، فباستثناء اسمه الحقيقي الذي يعرفه السيد دو تريفيل وحده، وكذلك اسم رفاقه، كان من السهل معرفة حياته المتسمة بالغرور والطيش، إذ كانت مكشوفة للعيان وتكاد تكون مفضوحة، لكن الشيء الوحيد الذي لا يمكن تصديقه الثروة كلها التي يتحدث عنها.

أما بالنسبة لأراميس، فيدو كأنه لا يملك أسرارًا، لكنه كان صبيًّا محفوفًا بالألغاز، لا يجيب كثيرًا الأسئلة التي يسأل عنها بخصوص الآخرين، ويتجنب

ما يسأل عنه بخصوص حياته، في أحد الأيام، سأله دارتانيان أسئلة عديدة عن بورثوس بعدما علم بالإشاعات التي انتشرت حول الثروة الجيدة للفارس وعلاقتها بأميرة، وأراد دارتانيان أن يعرف أيضًا ما يمكن توقعه بشأن مغامرات محاوره العاطفية.

قال له:

- وأنت يا رفيقي العزيز، أنت من تتحدث عن بارونات وكونتيسات وأميرات الآخرين؟

فقاطعه أراميس:

- عفوًا، لقد تحدث لأن بورثوس يتحدث عن ذلك بنفسه، لأنه صرّح بهذه الأشياء الجميلة كلها أمامي، لكن صدقني جيدًا السيد دارتانيان، لو أني علمتها من مصدر آخر أو ائتمنني عليها، فلن يكون هناك كاتم للسر أكثر مني.

أضاف دارتانيان:

- ليس لدي شك في ذلك، لكن على أي حال يبدو لي أنك أنت نفسك على دراية كاملة بشعار النبالة، ويشهد على ذلك منديل مطرّز تشرفت بمعرفته.

لم يكن أراميس غاضبًا هذه المرة، لكنه تخلّى عن أجوائه المتواضعة وأجاب بمودة:

- عزيزي، لا تنسَ أني أريد أن أنضم إلى الكنيسة متجنبًا المناسبات الدنيوية كلها، هذا المنديل الذي رأيته لم يُقدم لي، لكنه تركه في المنزل صديق لي، كان عليَّ أن آخذه حتى لا أعرضه للخطر والسيدة التي يحبها، بالنسبة لي ليس لدي عشيقة ولا أرغب في أن يكون لدي، مقتديًا بالمثال الشجاع لآثوس، الذي ليست لديه عشيقة مثلي.

- لكن، اللعنة! أنت لست كاهنًا، أنت فارس.

- فارس بالوكالة يا عزيزي، كما قال الكاردينال، فارس رغمًا عني، لكن صدقني، إن رجل الكنيسة يوجد في القلب، حشرني آثوس وبورثوس في المغامرة، لأشغل نفسي، لقد واجهت صعوبة بسيطة في التعامل مع... لكن هذا لن يثير اهتمامك، ولا أريد أن أشغل وقتك الثمين.

صاح دارتانيان:

- إطلاقًا، هذا يثير اهتمامي كثيرًا، وفي الوقت الحالي ليس لدي ما أفعله.

أجاب أراميس:

- نعم، لكن أنا لديَّ صلاة اليوم لأؤديها، ثم يجب أن أنظم بعض الأبيات الشعرية للسيدة إغويون، ثم يجب أن أذهب إلى شارع سانت هونوري، لكي أشتري بعض الشراب للسيدة شوفروز، فأنت ترى يا صديقي العزيز، إذا لم تكن في عجلة من أمرك، فأنا في عجلة من أمري.

ومدَّ أراميس يده بمودة إلى صاحبه لتحيته، ثم انصرف.

لم يستطع دارتانيان -مهما حاول جاهدًا- أن يكتشف المزيد عن أصدقائه الثلاثة الجدد، لذلك قرر أن يؤمن بكل ما قيل في الحاضر عن ماضيهم، على أمل أن يكتشف أسرارًا مؤكدة وأكثر توسعًا في المستقبل، في غضون ذلك عدّ آثوس مثل أخيل، وبورثوس شبيهًا بأجاكس، وأراميس نظيرًا لجوزيف.

وعلاوة على ذلك، كانت حياة الشبّان الأربعة مبهجة: كان آثوس مولعًا بالتجارة، يرافقه سوء الحظ دائمًا، ومع ذلك فهو لم يقترض بنسًا واحدًا من أصدقائه، على الرغم من أن أموال محفظته كانت تحت تصرفهم باستمرار، وعندما كان يراهن بشرفه، كان دائمًا يطلب من دائنه الاستيقاظ في السادسة صباحًا ليدفع له دينه في اليوم اللاحق.

كان بورثوس مندفعًا؛ في تلك الأيام إذا فاز كان يُنظر إليه بصفته وقحًا ورائعًا، وإذا خسر، فكان يختفي تمامًا لبضعة أيام، وبعد ذلك يظهر بوجه شاحب وسحنة متعبة، ولكن بجيب مليئة بالمال.

أما بالنسبة لأراميس، فلم يقامر قط؛ لقد كان أسوأ الفرسان وأكثرهم شرًّا، كان يحتاج دائمًا للعمل، في بعض الأحيان، في منتصف أحد العشاءات، عندما يعتقد الجميع في أثناء السهر وفي خضم احتدام المحادثة التي تدوم ساعتين أو ثلاث ساعات، ينظر أراميس إلى ساعته، وينهض مستأذنًا للانصراف لكي يذهب للتشاور

مع أحد اللاهوتيين، في أحيان أخرى كان يعود إلى المنزل لكتابة أطروحة توسلًا لأصدقائه أن يحترموا خلوته ولا يشتتوا انتباهه.

في هذه الأثناء ابتسم آثوس ابتسامته الحزينة والساحرة التي تلائم وجهه النبيل، ويشرب بورثوس نخبه وهو يقسم بأن أراميس لن يكون سوى كاهن في قرية.

وتحمّل بلانشي خادم دارتانيان الحظ الجيد بنبل، كان يحصل على ثلاثين فلسًا في اليوم، ولمدة شهر لبث مثل العصفور لطيفًا مع سيده، لكن عندما بدأت رياح المحنة تهب على منزل شارع دو فوسيوروس، أي عندما كادت الأربعون بستولًا التي وهبها لهم الملك لوي الثالث عشر أن تنفد، بدأت شكاوى الخادم التي وجدها آثوس مقززة وأراميس وقحة، لذلك نصح آثوس دارتانيان بطرد هذا الوغد، وأراد بورثوس أن يُضرب مسبقًا، وادعى أراميس أن السيد يجدر به ألا يسمع من خادمه غير الإطراءات فقط.

أجاب دارتانيان:

- من السهل جدًّا أن تقول ذلك يا آثوس، أنت من يعيش صامتًا مع خادمه غريمو ويمنعه من الكلام، وبذلك لم يتحدث معه مطلقًا بكلام سيّئ، وأنت يا بورثوس، الذي يتحكّم بروعة في خادمه موسكيتون ويفعل به ما يشاء، وأخيرًا أنت يا أراميس المنشغل دائمًا بدراساتك اللاهوتية، يعاملك خادمك بازين باحترام عميق، أنت رجل لطيف ومتدين، لكنني دون وضع ثابت وبلا موارد، أنا لست فارسًا ولا حتى حارسًا، ماذا أفعل لأجعل خادمي بلانشي يعاملني بالمودة أو الخوف أو الاحترام؟

أجاب الأصدقاء الثلاثة:

- الأمر جسيم، لأنه شأن داخلي، هناك خدم مثل النساء، عليك أن تضعهم على الفور عند حدودهم... فكر في الأمر.

فكر دارتانيان وعزم على الفور أن يعالج الأمر بشكل نهائي، وبعد أن ضرب خادمه ضربًا مبرحًا نهاه أن يترك خدمته بغير إذنه، وأضاف: لأن المستقبل لا يمكن أن يخذلني، أتوقع حتمًا أوقاتًا أفضل، وبالتالي فإنك ستصنع ثروتك إذا بقيت بجانبي، وأنا سيد سخيّ ولن أحرمك مما تطلب مني.

قابل الفرسان هذه الطريقة باحترام كبير لسياسة دارتانيان، وحظيت عند بلانشي أيضًا بإعجاب ولم يتحدث إطلاقًا عن رحيله.

أصبحت حياة الشباب الأربعة مشتركة، أما دارتانيان القادم من مقاطعته القروية فقد وقع وسط عالم جديد تمامًا بالنسبة إليه، فتبنى على الفور عادات وسلوك أصدقائه.

كانوا يستيقظون حوالي الساعة الثامنة في الشتاء، وحوالي الساعة السادسة صباحًا صيفًا، ويذهبون للحصول على الأوامر وأجواء العمل في قصر السيد دو تريفيل، على الرغم من أن دارتانيان لم يكن فارسًا، إلا أنه كان يعمل في الحرس بانتظام شديد ومؤثر وكان معروفًا في قصر الفرسان، وعدّه الجميع صديقًا جيدًا، كما أن السيد دو تريفيل الذي كنَّ له تقديرًا كبيرًا من النظرة الأولى، وأبدى مودة حقيقية تجاهه، لم يتوقف مطلقًا عن تزكيته لدى الملك.

من جانبهم، أحب الفرسان الثلاثة رفيقهم الشاب كثيرًا، إن الصداقة التي وحّدت هؤلاء الرجال الأربعة، والحاجة إلى رؤية بعضهم البعض ثلاث أو أربع مرات في اليوم، إما للمبارزة أو للعمل أو للمتعة، جعلتهم يبحثون عن لقاء بعضهم مثل الظلال؛ فتجد المتلازمين يبحثون عن بعضهم في ساحة لوكسمبورغ أو زقاق القيو كولومبييه في لوكسمبورغ.

في غضون ذلك، كانت وعود السيد دو تريفيل تتقدم، في أحد الأيام، أمر الملك الفارس إيسار بأن يأخذ دارتانيان متدربًا في فرقة الحراس، ارتدى دارتانيان بزّته بحسرة، كان سيقايضها بعشر سنوات من حياته مقابل حصوله على سترة الفارس، لكن السيد دو تريفيل وعد بأن يقدم هذه الخدمة بعد فترة ابتدائية تستغرق

عامين، ويمكن تقصيرها إذا قدم دارتانيان بعض الخدمات للملك أو للقيام ببعض الأعمال الرائعة، انسحب دارتانيان على هذا الوعد وفي اليوم التالي بدأ خدمته.

ثم جاء دور آثوس وبورثوس وأراميس للحراسة رفقة دارتانيان عندما كان في حالة تأهب، وهكذا التحق بفرقة الفارس إيسار أربعة رجال بدلًا من رجل واحد في اليوم الذي انضمّ إليه دارتانيان.

8

مؤامرة في بلاط الملك

لكن رفاقنا الأربعة وجدوا أنفسهم في حالة من الإحراج، فقد أُشرفت الأربعون بستولًا التي قدمها الملك لوي السادس عشر على النفاد، مثل الأشياء كلها التي تكون لها بداية وتليها نهاية في هذا العالم، وعقب هذه النهاية دخلوا في مرحلة من الضيق والخصاص، في البداية، دعم آثوس العصبة لبعض الوقت بأمواله الخاصة، وخلفه بورثوس، وبفضل إحدى حالات الاختفاء التي اعتدنا عليها، ظل طيلة أسبوعين تقريبًا يوفر احتياجات الجميع، وأخيرًا جاء دور أراميس الذي فعل ذلك عن طيب خاطر، وقد نجح كما قال بفضل بيعه كتبه اللاهوتية في الحصول على بعض القطع الذهبية.

كالعادة، لجؤوا إلى السيد دو تريفيل، الذي أعطاهم سلفة عن أجورهم، لكن هذا المقدم لا يمكن أن يساعد الفرسان الثلاثة على دفع عدد من المتأخرات، ونفقات دارتانيان الذي ما زال دون راتب.

أخيرًا، عندما لاحظوا أنهم على حافة الإفلاس التام، جمعوا بجهد أخير ثماني أو عشر قطع ذهبية قامر بها بورثوس، لكن لسوء حظه فقد كل شيء، بالإضافة إلى خمس وعشرين قطعة أخرى بقيت دينًا عليه، وهكذا صار الفرسان في حالة من العوز لدرجة أنهم راحوا يركضون بين أصدقاء الأمير يتلمسون دعوات للعشاء من زملائهم الفرسان والحراس.

أما دارتانيان، فقد كان دون معارف في العاصمة، فلم يجد سوى غداء من الشوكولاتة مع كاهن ينحدر من بلاده، وعشاء مع الكورنيت الحراس، كان دارتانيان يصطحب معه أصدقاءه عند الكاهن، فيلتهمون مؤنه لمدة شهرين،

وعند الكورنيت الذي يصنع عجائب الطعام، لكن كما قال بلانشي: نحن نأكل دائمًا مرة واحدة فقط، حتى عندما نأكل كثيرًا.

لذلك أحس دارتانيان بالمهانة، لأنه لا يتناول سوى وجبة ونصف، لأن تناول الغداء مع الكاهن، لم يكن سوى نصف وجبة، يمكن أن يقدمها لرفاقه مقابل الولائم التي تمكّن آثوس وبورثوس وأراميس من الحصول عليها، لقد اعتقد أنه يمثل عبئًا على الجماعة، متناسيًا بحسن النية أنه أطعم هذه الثلة من الأصدقاء، طيلة شهر، وشرع عقله يفكر بعزم ونشاط في هذا التحالف المكون من أربعة رجال شجعان ومغامرين ونشطين الذي يجب أن يكون له هدف آخر غير التجول والتبختر ودروس المبارزة والمحادثات الساخرة والمازحة.

في الواقع، أربعة رجال مثلهم، أربعة رجال مخلصين لبعضهم في المال والحياة، أربعة رجال يدعمون بعضهم دائمًا، ولا يتراجعون أبدًا، وينفذون بشكل فردي أو جماعي القرارات المشتركة، أربعة أذرع تتجه نحو هدف واحد، كانت حتمًا إما سرًّا أو علنًا أو بوساطة المكيدة أو الخندق أو بالدهاء أو بالقوة ستفتح طريقًا نحو الهدف الذي يريدون تحقيقه، مهما كان محصنًا جيدًا أو مهما كان بعيدًا، لكن الشيء الوحيد الذي فاجأ دارتانيان أن رفاقه لم يفكروا في ذلك البتة.

لقد كان يفكر في الأمر بجد، مجهدًا دماغه كي يجد مسارًا لهذه القوة الفريدة والقوية التي لم يكن لديه شك في أنها -كما هو الحال مع الرافعة التي كان يبحث عنها أرخميدس- لا يمكن أن تنجح في رفع العالم، عندها طرق الباب طرقًا خفيفًا، فأيقظ دارتانيان خادمه بلانشي وأمره بأن يفتح الباب.

يستطيع القارئ من هذه الجملة: «دارتانيان أيقظ بلانشي»، أن يخمن بأن الزمن كان ليلًا أو أن النهار لم يطلع بعد، لا! كانت الساعة الرابعة عصرًا، فقد جاء بلانشي قبل ساعتين ليطلب العشاء من سيده، الذي أجاب بالمثل الشائع: «من ينَمْ يحلم بالأكل»، فتناول بلانشي عشاءه نائمًا.

تقدم رجل بسيط المظهر ويبدو من مظهره برجوازيًّا.

أراد بلانشي أن يتناول في التحلية ما سيسمعه من المحادثة، لكن البرجوازي أعلن لدارتانيان أن ما سيقوله مهم وسري، لهذا يطلب لقاءً على انفراد.

دارتانيان أمر بلانشي بالانصراف ورجا زائره بأن يجلس.

سادت لحظة صمت نظر خلالها الرجلان إلى بعضهما كما لو كانا يريدان التعارف المسبق، وبعد ذلك انحنى دارتانيان مومئًا بأنه مستعد لسماعه.

قال البرجوازي:

- لقد سمعت عن السيد دارتانيان أنه شاب في منتهى الشجاعة، وهذه السمعة التي يتمتع بها بحق حفزتني بأن أعترف له بسر.

قال دارتانيان الذي استشعر غريزيًّا شيئًا مفيدًا:

- تحدث يا سيدي، تحدث.

توقف البرجوازي مرة أخرى وتابع:

- تشتغل زوجتي خياطة لدى الملكة يا سيدي، وهي لا تفتقر إلى الحكمة ولا إلى الجمال، لقد أُجبرت على الزواج بها منذ ما يقرب من ثلاث سنوات، على الرغم من أن أصولها متدنية، إلا أن السيد دو لايورت حامل معطف الملكة وحاجبها كان الأب الروحي لها وحاميها...

سأل دارتانيان:

- حسنًا! يا سيدي؟

أجاب البرجوازي:

- حسنًا! حسنًا يا سيدي، لقد اختُطِفت زوجتي صباح أمس، بينما كانت تغادر مقر عملها.

- ومن اختطف زوجتك؟

- أنا متأكد من أنني لا أعرف يا سيدي، لكني أشك في شخص ما.

- ومن هذا الشخص الذي تشتبه به؟

- رجل كان يلاحقها منذ فترة طويلة.

- سحقًا له!

تابع البرجوازي:

- لكن هل تريد أن أخبرك يا سيدي؟ أنا مقتنع أن ثمة حبًّا أقل من السياسة فيما حصل.

أطرق دارتانيان ممعنًا في التفكير ثم سأل:

- حبٌّ أقل من السياسة؟ وبمن تشك؟

- لا أدري إن كان يجدر بي إخبارك بمن أشك فيه...

- يجب أن تلاحظ -يا سيدي- أنني لم أطلب منك شيئًا على الإطلاق، أنت جئت إليّ وقلت: إن لديك سرًّا تريد أن تخبرني به؛ لذا افعل ما يحلو لك، لا زال أمامك وقت للانسحاب.

- لا سيدي لا، تبدو شابًّا نزيهًا وأنا أثق بك؛ لذلك أعتقد أن اعتقال زوجتي لم يكن بسبب حبها، ولكن بسبب مغامرات سيدة أعظم منها.

قال دارتانيان راغبًا في أن يظهر للبرجوازي أنه مطلع على شؤون البلاط:

- عجبًا عجبًا! هل يمكن أن يكون السبب له علاقة بحب السيدة دو بوا - تريسي؟

- أعلى مكانة يا سيدي، أعلى مكانة.

- من السيدة ديغوريون؟

- أكثر منها مكانة.

- من السيدة شوفروز؟

- أعلى، أعلى بكثير!

- أعلى مكانة من... وتوقف دارتانيان عن الكلام.

- نعم يا سيدي، أجاب بصوت خافت جدًّا، بحيث لا يكاد صوت البرجوازي الخائف يسمع البتة.

- علاقة مع من؟

- مع من يمكن أن تكون، إن لم تكن مع الدوق...

- الدوق...

- نعم يا سيدي! أجاب البرجوازي مانحًا صوته نبرة أكثر خفوتًا.

- لكن كيف تعرف أنت هذا كله؟

- حسنًا! كيف أعرف؟

- نعم كيف يمكنك أن تعرف؟ هذه أسرار خفية، أو... أنت تفهم.

- أعرف ذلك من زوجتي سيدي من زوجتي نفسها.

- وممن عرفتها؟

- عرفت بوساطة السيد دو لابورت، ألم أخبرك أنها كانت ابنة السيد دولابورت بالتبني، كاتم أسرار الملكة؟ حسنًا، لقد وضعها السيد دو لابورت لمجالسة الملكة بحيث يكون لملكتنا المسكينة على الأقل رفيقة تثق بها، بعد أن تخلى عنها الملك، وتجسس عليها الكاردينال وخانها الجميع.

- حسنًا! ها قد بدأت تتجلّى الأمور! قال دارتانيان.

- لكن زوجتي -يا سيدي- أتت قبل أربعة أيام، كان من بين الشروط المتفق عليها أن تأتي لرؤيتي مرتين في الأسبوع، لأنه كما تشرفت بإخباركم، فإنها تحبني كثيرًا، وإذن جاءت زوجتي وأخبرتني أن الملكة في هذا الوقت كانت تشعر بذعر كبير.

- حقًّا؟

- نعم، يبدو أن الكاردينال كان يضطهدها ويلاحقها أكثر من أي وقت مضى، لا يستطيع أن يغفر لها قصة سراباند، هل تعرف تاريخ سراباند(23)؟

- بالتأكيد، كيف لا أعلمها؟! أجاب دارتانيان الذي لم يكن يعرف شيئًا إطلاقًا عن القصة، لكنه أراد أن يظهر كأنه يعلم تفاصيلها.

- وإذن الآن لم تعد كراهية، وإنما انتقام.

- حقًّا؟

- والملكة تظن ذلك...

- حسنًا، وماذا تظن الملكة؟

- تظن أن دوق باكنغهام أرسل له أحدهم رسالة نيابة عنها.

- باسم الملكة؟

- نعم، لحمله على القدوم إلى باريس، وبمجرد وصوله إلى باريس سيقع في الفخ.

- اللعنة! لكن زوجتك -يا سيدي العزيز- ما دخلها في هذا كله؟

- يعلمون إخلاصها للملكة، ويريدون إما إبعادها عن سيدتها، أو تخويفها للحصول على أسرار جلالتها، أو إغراءها لاستخدامها جاسوسة.

قال دارتانيان:

- هذا أمر محتمل، لكن الرجل الذي خطفها... أتعرفه؟

- أخبرتك أنني أظن أنني أعرفه.

- ما اسمه؟

- لا أعرف؛ ما أعرفه فقط أنه رجل الكاردينال وروحه اللعينة.

- لكن هل رأيته؟

- نعم، أرتني إياه زوجتي ذات يوم.

- هل من صفة يمكننا التعرف عليه بواسطتها؟

- نعم! بالتأكيد، هو سيد ذو قامة طويلة، وشعر أسود، وبشرة داكنة، وعين ثاقبة، وأسنان بيضاء وندبة على صدغه.

صاح دارتانيان:

- ندبة على الصدغ! وهذه الأسنان البيضاء، والعين الثاقبة، والبشرة الداكنة، والشعر الأسود، والوجه المرتفع؛ إنه غريمي في مونغ!

- تقول: إنه غريمك؟

- نعم نعم، لكن هذا لا يهم، لا، أنا مخطئ، هذا يبسط الأمر كثيرًا، على العكس من ذلك، إذا كان هذا غريمك فهو غريمي، فإني سأنتقم منه، هذا كل شيء، لكن كيف سنصل إلى هذا الرجل؟

- أنا لا أعلم.

- أليس لديك أي معلومات عن مكان إقامته؟

- لا أدري، في أحد الأيام عندما كنت أصطحب زوجتي إلى اللوفر كان بصدد المغادرة وهي كانت على وشك الدخول، فرأيته.

دمدم دارتانيان:

- اللعنة! اللعنة! هذا الأمر غامض جدًّا، ممن سمعت بخطف زوجتك؟

- من السيد دو لابورت.

- هل أطلعك على أي تفاصيل؟

- لا يعرف أي شيء.

- وأنت هل استعلمت أي شيء من طرف آخر؟

- نعم، لقد استعلمت...

- ماذا؟

- لكني لا أدري إن كنت أرتكب تهوّرًا كبيرًا.

- عدت إلى الارتياب مرة أخرى، لكني أنبهك إلى أن الوقت قد تأخر قليلًا هذه المرة للانسحاب.

صرخ البرجوازي:

- يا إلهي، أنا كذلك لا أتراجع! أقسم...

قاطعه دارتانيان:

- اسمك بوناسيو؟

- نعم، هذا اسمي.

- كنت تقول إذن: إنك تقسم! آسف إذا قاطعتك، لكن يبدو لي أن اسمك ليس غريبًا عني.

- من الممكن يا سيدي، أنا صاحب البيت.

قال دارتانيان، وهو يحاول النهوض والانحناء:

- عجبًا عجبًا! أنت مالك البيت؟

- نعم سيدي، نعم، وبما أنك تقيم منذ ثلاثة أشهر، ومما لا شك فيه أن انشغالاتك بمهنتك العظيمة أنساك أن تدفع لي إيجاري، وبما أنني لم أحاول أن أزعجك لحظة واحدة، فقد اعتقدت أنك ستحترم لطفي.

رد دارتانيان:

- كيف ذلك؟! يا عزيزي السيد بوناسيو، أعتقد أنني ممتن لمثل هذا التصرف، وكما أخبرتك، أنا رهن الإشارة لتقديم أي نوع من المساعدة...

- أنا أصدقك يا سيدي، وما دمت على وشك أن أخبرك، أقسم، أنا أثق بك.

- لذا أكمل ما بدأته من حديث.

قام البرجوازي بسحب ورقة من جيبه، وقدمها لدارتانيان.

قال الشاب مندهشًا:

- رسالة!

- وصلتني هذا الصباح.

فتحها دارتانيان، ولما كان النهار يتقهقر مفسحًا للمساء اقترب من النافذة، فتبعه البرجوازي.

قرأ دارتانيان:

- لا تبحث عن زوجتك، ستعود إليك عندما لن نعود بحاجة إليها، إذا اتخذت خطوة واحدة للعثور عليها فإنك ستفقدها.

استطرد دارتانيان:

- هذا أمر إيجابي، لأنه لحد الآن مجرد تهديد.

- نعم، لكني أخاف من هذا التهديد، أنا يا سيدي لست مبارزًا أبدًا وأخاف من سجن الباستيل.

قال دارتانيان:

- حسنًا! ولكني لا أهتم بالباستيل كما تهتم به، إذا كانت مجرد ضربة سيف، فيمكنك القدوم عندي في مناسبة أخرى.

- ولكني -يا سيدي- كنت أعوّل عليك في هذه المناسبة.

- نعم؟

- تبدو عند رؤيتك دائمًا محاطًا بالفرسان قويًّا بروعة، وقديرًا تمامًا كفرسان السيد دو تريفيل، الذين يعتبرون أعداء الكاردينال، اعتقدت أنك وأصدقاءك ستحققون العدالة لملكتنا المسكينة، وستكونون سعداء لتنصبوا خدعة بغيضة لسماحته.

- دون شك.

- ثم ظننت أنني مستحق إيجار ثلاثة أشهر، ذلك الذي لم أطالبك به قط...

- نعم، نعم، عين الصواب ما فعلت، وأجد تصرفك ممتازًا.

- إلى جانب ذلك، ما دُمتَ تمنحني شرف البقاء في بيتي، فلن أحدثك أبدًا عن إيجارك المستقبلي...

- جيد جدًّا.

- وأضف إلى ذلك إذا لزم الأمر، أعد بأن أقدم لك حوالي خمسين بستولًا.

- رائع! إذن أنت ثري يا سيدي العزيز بوناسيو؟

- أنا ميسور يا سيدي، هذه كل ما في الأمر؛ لقد جمعت ما يقارب ألفي بستول أو ثلاثة آلاف من تجارة الخردوات، وكذلك، بوساطة استثمار بعض الأموال في الرحلة الأخيرة للملاح الشهير جان موكيه؛ حتى تفهم يا سيدي... آه! ولكن...

صاح البرجوازي.

فسأل دارتانيان:

- ماذا؟

- ماذا أرى هناك؟

- أين؟

- في الشارع، أمام نوافذك، في ذلك المدخل: رجل يلف نفسه في معطفه.

- إنه هو! صرخ كُلٌّ من دارتانيان والبرجوازي، وقد تعرّف كل منهما في آن واحد على غريمه.

صرخ دارتانيان وهو يسِل سيفه:

- آه! هذه المرة، هذه المرة لن يهرب مني.

وسحب سيفه من غمده وهَرع خارج الشقة.

على الدرج التقى بآثوس وبورثوس اللذين جاءا لرؤيته، فأفسحا له، ومر بينهما مثل سهم.

- أنت، إلى أين تجري هكذا؟! هتف الفرسان بصوت واحد.

أجاب دارتانيان:

- رجل مونغ!

واختفى.

كان دارتانيان قد أخبر أصدقاءه أكثر من مرة عن مغامرته مع الشخص الغريب، بالإضافة إلى ذلك ظهور المسافرة الجميلة الذي يبدو أن هذا الرجل قد عهد إليها برسالة غاية في الأهمية.

كان رأي آثوس أن دارتانيان فقد رسالته في أثناء الشجار، لأن رجلًا نبيلًا، حسب الصورة التي رسمها دارتانيان للشخص الغريب، لا يمكن أن يكون إلا رجلًا نبيلًا؛ يجب أن يكون الرجل النبيل غير قادر على ارتكاب هذه الحقارة، أن يقدم على سرقة رسالة.

أما بورثوس فلم يرَ في كل ما وقع سوى موعد رومانسي قدمته سيدة لفارس أو فارس لسيدة، فأزعجهما وجود دارتانيان وحصانه الأصفر.

وقال أراميس:

- إن هذه الأنواع من الأشياء غامضة، فمن الأفضل عدم التعمق فيها.

فهموا إذن من الكلمات القليلة التي قالها دارتانيان كنه القضية العالقة، فاعتقدوا أن دارتانيان بعد لحاقه بغريمه أو فقده، سينتهي الأمر دائمًا بالعودة، فواصلوا طريقهم إلى شقته.

عندما دخلوا شقة دارتانيان، كانت الغرفة فارغة لأن المالك -خوفًا من عواقب اللقاء الذي كان بلا شك سيحدث بين الشاب والغريب، وما قد تنتج عنه من شبهة لشخصه- ارتأى أن من الحكمة أن يغادر في الحال.

9

مخطط دارتانيان

كما توقع آثوس وبورثوس، عاد دارتانيان بعد نصف ساعة، أضاع هذه المرة أيضًا الرجل الذي اختفى كما لو أنه استخدم سحرًا، كان دارتانيان قد ركض مشهرًا سيفه في يده في الشوارع المجاورة كلها، لكنه لم يعثر على أي شيء يشبه ما يبحث عنه، ثم عاد أخيرًا إلى الشيء الذي ربما كان يجدر به أن يبدأ منه، وهو أن يقرع الباب الذي كان يتكئ عليه الغريب، لكنه طرق الباب عبثًا عشر مرات أو اثنتي عشرة مرة على التوالي ولم يرد أحد سوى الجيران الذين انجذبوا للضوضاء، فهرعوا إلى عتبات بيوتهم أو وضعوا أنوفهم على نوافذها، لكن ذلك أكد له أن هذا المنزل المغلقة منافذه كلها لم يكن مأهولًا بالسكان إطلاقًا منذ ستة أشهر.

بينما كان دارتانيان يركض في الشوارع ويطرق على الأبواب، انضم أراميس إلى رفيقيه، وعند عودته إلى المنزل وجد دارتانيان العصبة بكامل عددها.

- حسنًا؟ قال الفرسان الثلاثة دفعة واحدة عندما رأوا دارتانيان يدخل، يتصبّب عرقًا ووجهه يغمره الغضب.

- حسنًا، صاح هذا الأخير وألقى سيفه على السرير، يجب أن يكون هذا الرجل الشيطان نفسه، اختفى مثل الطيف... أشبه بالظل... وكالشبح!

- هل تؤمن بالتجليات؟ آثوس سائلًا بورثوس.

- أنا أومن فقط بما رأيته، وبما أنني لم أرَ الأشباح من قبل، فأنا لا أصدقها.

قال أراميس:

- إن الكتاب المقدس يجعلنا نصدقه قانونًا، وهو ركن من الإيمان يؤسفني أن أراه موضع تساؤل يا بورثوس.

- على أي حال، رجل أو شيطان، جسد أو ظل، وهم أو حقيقة، هذا الرجل وُلد ليعذبني، لأن فراره يجعلنا نفقد قضية رائعة أيها السادة، وهي علاقة غرامية تساوي مئة بستول وربما يكون مكسبها أكبر.

- كيف ذلك؟ قال كل من بورثوس وأراميس.

أما آثوس، المخلص لنظامه في الصمت، فقد اكتفى باستجواب دارتانيان بإيماءة من عينيه.

قال دارتانيان مناديًا خادمه الذي كان في هذه اللحظة يدس رأسه من خلال الباب الموارب في محاولة لسماع بعض العبارات الخاطفة من المحادثة:

- بلانشي، انزل عند المالك السيد بوناسيو، وأخبره أن يرسل لنا نصف دزينة من زجاجات بوجوني، لأنني أفضله.

سأل بورثوس:

- عجبًا، هل لديك قرض مفتوح مع مالك المنزل؟

أجاب دارتانيان:

- نعم، من اليوم فصاعدًا، واطمئنوا، إذا كان شرابه سيئًا، فسنرسله لجلب آخر.

قال أراميس بحكمة:

- يجب أن نستفيد لا أن نستغل.

- لقد قلت دائمًا بأن دارتانيان هو الأرجح عقلًا منا جميعًا.

قال آثوس معبّرًا عن رأيه الذي رد عليه دارتانيان بتحية، فعاد فورًا إلى صمته المعتاد.

سأل بورثوس:

- لكن هيا، قل ما الأمر؟

قال أراميس:

- نعم، بُح لنا يا صديقي العزيز بما لديك، إلا إذا كان شرف سيدة له علاقة بهذا الاعتراف، وفي هذه الحالة من الأفضل أن تحتفظ به لنفسك.

أجاب دارتانيان:

- اطمئن، لن يمس شرف أي أحد ما يجب أقوله لك.

ثم أسر لأصدقائه جملة وتفصيلًا ما حدث بينه وبين مضيفه، وكيف أن الرجل الذي اختطف زوجة المالك المحترم هو نفسه الذي واجه صعوبة في مغادرة نزل فرانك مونييه.

قال آثوس بعد تذوق الشراب استذواق العارف، أومأ برأسه أنه يجده جيدًا:

- قضيتك ليست سيئة، ويمكننا الحصول على خمسين إلى ستين بستولًا من هذا الرجل الطيب، الآن يبقى أن نرى ما إذا كانت الخمسون أو الستون قطعة تستحق المغامرة بأربعة رؤوس.

صرخ دارتانيان:

- لكن انتبه، هناك امرأة في هذه القضية، امرأة مخطوفة... امرأة مهددة بلا شك... قد تتعرض للتعذيب، ويحدث هذا كله لأنها مخلصة لسيدتها!

قال أراميس:

- احذر يا دارتانيان، احذر... أظن... أنت تتحمس كثيرًا بشأن مصير السيدة بوناسيو، خُلقت المرأة من أجل القضاء علينا، وهي مصدر شقائنا كله.

عبس آثوس عقب حُكم أراميس، وعض شفته.

صاح دارتانيان:

- لست قلقًا بشأن السيدة بوناسيو، ولكن بشأن الملكة التي تخلى عنها الملك والتي يضطهدها الكاردينال، والتي ترى رؤوس أصدقائها تتساقط الواحد تلو الآخر.

- لماذا تحب أشد ما نكرهه في العالم: الإسبان والإنجليز؟

أجاب دارتانيان:

- إسبانيا وطنها، ومن السهل جدًّا أن تحب الإسبان الّذين ينتمون إلى بلادها، أما بالنسبة لعتابك الثاني، فقد سمعت أنها لا تحب اللغة الإنجليزية، بل تحب رجلًا إنجليزيًّا.

قال آثوس:

- مهلًا! يجب أن نعترف بأن هذا الرجل الإنجليزي يستحق أن يحب، لم أرَ قط هيئة أعظم من هيئته!

قال بورثوس:

- ناهيك عن أنه يرتدي ملابس لا تضاهى، كنت في اللوفر يوم نثر على الحاضرين لآلئه، وبالتَّأكيد! التقطت اثنتين، بعت كل واحدة بعشرة بستولات ذهبية، وأنت يا أراميس هل تعرفه؟

- أنا مثلكم أيها السادة، لأنني كنت أحد أولئك الذين اعتقلوه في حديقة أميان، حيث أدخلني السيد دو بوتانج سائس الملكة، كنت في المدرسة الدينية في ذلك الوقت، وراعتني المغامرة باعتبارها قاسية على الملك.

قال دارتانيان:

- هذا لن يمنعني إذا كنت أعرف مكان دوق باكنغهام من أن أسحبه من يده وأقوده إلى الملكة، فقط من أجل إثارة غضب الكاردينال؛ لأن عدونا الحقيقي

اللدود الأبدي -أيها السادة- هو الكاردينال، وإذا تمكّنّا من إيجاد طريقة لتنفيذ بعض الحيل القاسية عليه فأنا أعترف أنني سأشارك في ذلك عن طيب خاطر.

أجاب آثوس:

- وهل أبلغك تاجر الخردوات -يا دارتانيان- أن الملكة تظن أنهم سيستدعون باكنغهام بوساطة دعوة مزيفة؟

- إنها خائفة.

قال أراميس:

- انتظر لحظة...

- ماذا؟ سأل بورثوس.

- أحاول أن أتذكر الظروف.

قال دارتانيان:

- والآن أنا مقتنع أن اختطاف خادمة الملكة مرتبط بالأحداث التي نتحدث عنها، وربما بحضور سيد باكنغهام في باريس.

قال بورثوس بإعجاب:

- إن الجاسكوني مترع بالأفكار.

قال آثوس:

- إن لهجته تسليني، أحب حقًّا أن أسمعه يتكلم.

قال أراميس:

- أيها السادة، استمعوا إلى ما أقول.

قال الأصدقاء الثلاثة:

- دعونا نستمع إلى أراميس.

- أمس كنت في بيت طبيب وعالم في علم اللاهوت أستشيره أحيانًا حول دراستي...

ابتسم آثوس.

تابع أراميس:

- يعيش في حي مهجور، تتحكم مهنته في ذوقه، وبينما كنت أغادر منزله...

هنا توقف أراميس.

سأل مستمعوه:

- حسنًا؟ وأنت تغادر منزله؟

بدا أن أراميس يبذل مجهودًا للكلام، مثل رجل بصدد سرد كذبة، فوجد نفسه متوقفًا عند عقبة غير متوقعة، لكن عيون رفاقه الثلاثة كانت مثبّتة عليه، وآذانهم كلها مصغية، ولم يكن هناك من سبيل للتراجع.

وتابع أراميس:

- لهذا الطبيب ابنة أخت.

قاطعه بورثوس:

- عجبًا! لديه ابنة أخت!

قال أراميس:

- سيدة في منتهى الاحترام.

ضحك الأصدقاء الثلاثة.

استأنف أراميس:

- حسنًا! إذا ضحكتم أو إذا شككتم، فلن تعرفوا شيئًا.

قال آثوس:

- نحن مؤمنون مثل المسلمين وبكم مثل النعوش.

قال أراميس:

- وإذن سأواصل... تأتي ابنة الأخت أحيانًا لرؤية عمها، بيد أنها كانت أمس هناك في الوقت نفسه الذي كُنتُ فيه صدفة، وكان عليَّ أن أقدم نفسي وأصحبها إلى عربتها.

قاطعه بورثوس:

- عجبًا! تملك عربة... ابنة أخت الطبيب؟ معرفة جميلة يا صديقي.

أضاف أراميس:

- يا بورثوس لقد قلت لك أكثر من مرة بأنك مفش للأسرار، وأن هذا يسيء إلى علاقتك بالنساء.

صرخ دارتانيان:

- أيها السادة... أيها السادة... وهو يمعن النظر في المغامرة ويسبر أغوارها، الأمر جاد، وإذن دعونا لا نمزح إذا استطعنا، هيا يا أراميس هيا...

- فجأة، رجل أسمر، طويل القامة، وهيئة رجل نبيل، مثل غريمك يا دارتانيان.

قال الأخير:

- ربما هو الشخص نفسه.

وتابع أراميس:

- من المحتمل، اقترب مني، برفقة خمسة أو ستة رجال يتبعونه على بعد عشر خطوات، وبنبرة شديدة التهذيب قال لي: «سيدي الدوق وأنت يا سيدتي»، وتابع مخاطبًا السيدة التي كانت تمسك ذراعي...

- خاطب ابنة أخت الطبيب؟

قال آثوس:

- اصمت حالًا، يا بورثوس! أنت لا تطاق.

- من فضلك ادخلي إلى هذه العربة، ودون أن تقاومي، ودون أن تحدثي أدنى ضوضاء.

صرخ دارتانيان:

- حسبك باكنغهام!

أجاب أراميس:

- أعتقد ذلك.

سأل بورثوس:

- لكن ماذا عن السيدة؟

قال دارتانيان:

- أعتقد أنها الملكة!

أجاب أراميس:

- بالضبط.

صرخ آثوس:

- إن الجاسكوني شيطان! لا شيء يفلت منه.

قال بورثوس:

- في الواقع إن أراميس طويل ومظهره يشبه الدوق الوسيم، لكن مع ذلك، أنت كنت ترتدي زي الفرسان...

قال أراميس:

- كنت أرتدي فوقه معطفًا سميكًا.

قال بورثوس:

- اللعنة! ترتديه في شهر يوليو! هل الطبيب خائف من أن يتعرف عليك أحد؟

قال آثوس:

- يمكن أن أفهم أن الجاسوس انطلى عليه المظهر، لكن ماذا عن الوجه...؟

قال أراميس:

- كنت أعتمر قبعة كبيرة.

صاح بورثوس:

- أوه! يا إلهي، لماذا الاحتراز لدراسة علم اللاهوت؟

قال دارتانيان:

- أيها السادة، دعونا لا نضيع وقتنا في المزاح، دعونا نفترق ونبحث عن زوجة تاجر الخردوات لأنها مفتاح المؤامرة.

قال بورثوس وهو يمطط شفتيه بازدراء:

- امرأة من طبقة متدنية جدًّا! هل تعتقد ذلك يا دارتانيان؟

- إنها ابنة لابورت بالتبني، وخادمة الملكة وكاتمة أسرارها، ألم أخبركم بذلك أيها

السادة؟ وإلى جانب ذلك، ربما كان الأمر تخطيطًا من جلالة الملك، يسعى من خلاله هذه المرة، للحصول على دعمه من أشخاص عاديين؛ لأن من ينتمون إلى الطبقة العليا مكشوفون عن بعد، وبالنسبة للكاردينال فبصره جيد.

قال بورثوس:

- حسنًا، احصل على مبلغ من تاجر الخردوات أولًا، وليَكُن مبلغًا جيدًا.

قال دارتانيان:

- لا جدوى من ذلك، لأنني أعتقد أنه إذا لم يدفع لنا، فسوف تنال مبلغًا كافيًا من جهة أخرى.

في تلك اللحظة، تردد صدى خطوات أقدام مسرعة على الدرج، وانفتح الباب، واندفع تاجر الخردوات التعيس إلى الغرفة حيث يتناقش الفرسان.

صرخ:

- النجدة أيها السادة! أنقذوني باسم الإله، أنقذوني! حضر أربعة رجال لاعتقالي، أنقذوني، أنقذوني!

وقف بورثوس وأراميس.

وصاح دارتانيان مشيرًا لهم بأن يعيدوا سيوفهم إلى غمدها:

- لحظة، لحظة، لا نحتاج إلى الشجاعة هنا، يجب أن نكون حذرين.

ومع ذلك، صرخ بورثوس:

- لن نسمح...

قال آثوس:

- سندع دارتانيان يتصرف، إنه وأكرر ذلك أكثرنا حكمة، وأنا من جهتي أصرح أنني سأطيعه، افعل ما يحلو لك يا دارتانيان.

في هذه اللحظة ظهر الحراس الأربعة عند باب غرفة الانتظار، ورأوا أربعة فرسان مسلحين بالسيوف، فترددوا في التقدم إلى الأمام.

صاح دارتانيان:

- تعالوا أيها السادة، ادخلوا، أنتم هنا في بيتي، وكلنا خدام مخلصون للملك والكاردينال.

سأل الشخص الذي بدا أنه قائد الفرقة:

- إذن أيها السادة، لن تعترضوا إذا نفذنا الأوامر التي تلقيناها؟

- بالعكس أيها السادة، سنقدم لكم يد المساعدة إذا لزم الأمر.

تمتم بورثوس:

- لكن ماذا يقول؟

قال آثوس:

- أنت أحمق، اصمت!

قال تاجر الخردوات المسكين بصوت خافت:

- لكنك وعدتني...

أجاب دارتانيان بسرعة وبصوت خافت:

- لا يمكننا إنقاذك إلا إن بقينا أحرارًا، وإذا تظاهرنا بالدفاع عنك، فسنعتقل معك.

- يبدو لي ذلك، ولكن...

قال دارتانيان بصوت عالٍ:

- تعالوا أيها السادة، تعالوا... ليس لدي أي سبب للدفاع عن السيد! رأيته اليوم للمرة الأولى، ومرة أخرى يا لها من مناسبة، سيخبركم بنفسه، جاء يطالبني بمبلغ الإيجار! هل هذا صحيح يا سيد بوناسيو؟ أجب!

صاح تاجر الخردوات:

- نعم هذه هي الحقيقة الخالصة، لكن الرجل المحترم لم يخبركم...

- صه، لا تخبر عني ولا عن أصدقائي، ولا عن الملكة خصوصًا، أو ستفقد الجميع دون أن تنقذ نفسك، تعالوا تعالوا أيها السادة، خذوا هذا الرجل!

ودفع دارتانيان تاجر الخردوات المذهول بين أيدي الحراس قائلًا لهم:

- أنت وَغْد يا عزيزي؛ أتيت لتطلب مني مالًا من أحد الفرسان! إلى السجن، أيها السادة، خذوه مرة أخرى إلى السجن واحتجزوه أطول فترة ممكنة، فهذا سيمنحني الوقت لأدفع له.

أفرط الجنود في الشكر وأخذوا فريستهم.

في أثناء نزولهم، ربّت دارتانيان على كتف رئيسهم:

- ألن أشرب في صحتك وأنت تشرب نخبي؟

قال وهو يملأ كأسين بشراب ورجونسي الذي حصل عليه بفضل سخاء بوناسيو.

قال الرئيس:

- سيكون شرفًا عظيمًا لي، وأنا أقبل ذلك بامتنان.

- إذن، تناول يا سيدي... ما اسمك؟

- بواسرونار.

- السيد بواسرونار!

- في صحتك يا سيدي... ما اسمك من فضلك؟

- دارتانيان.

- في صحتك سيد دارتانيان!

صاح دارتانيان محمولًا بحماسته:

- وفوق كل هؤلاء، في صحة الملك والكاردينال.

ربما كان رئيس الجنود سيشك في صدق دارتانيان لو كان الشراب سيئًا، لكن الشراب كان جيدًا، فأصبح مقتنعًا بصدقه.

قال بورثوس عندما عاد رئيس الجنود إلى رفاقه، ووجد الأصدقاء الأربعة أنفسهم بمفردهم:

- ولكن ما هذه النذالة التي فعلتها؟ أي عار إذن لأربعة فرسان يتركون رجلًا بائسًا يقف في وسطهم وهو يصرخ طلبًا للمساعدة بينما رجل نبيل يشرب نخب من سيعتقله!

قال أراميس:

- يا بورثوس، لقد حذرك آثوس سلفًا بأنك أحمق، وأنا أتفق معه، دارتانيان، أنت رجل عظيم، وعندما ستصبح في مكان السيد دو تريفيل، سأطلب حمايتك حتى يكون عندي دير.

قال بورثوس:

- عجبًا، أنا مشوش، هل توافق على ما فعله دارتانيان؟

قال آثوس:

- أعتقد ذلك، أنا لا أوافقه فقط على ما فعله للتو، ولكنني أهنئه على ذلك.

قال دارتانيان:

- والآن أيها السادة، دون أن يكلّف نفسه عناء شرح سبب تصرفه على ذلك النحو لبورثوس، «الكل من أجل الواحد، والواحد من أجل الجميع»، هذا شعارنا... أليس كذلك؟

قال بورثوس:

- ومع ذلك...

صاح كل من آثوس وأراميس:

- مد يدك وأقسم!

بعد أن أقنعه الشعار، تمتم بصوت منخفض، ومد بورثوس يده، وكرر الأصدقاء الأربعة بصوت واحد المعادلة التي أملاها دارتانيان:

«الجميع من أجل الواحد، والواحد من أجل الجميع».

قال دارتانيان كأنه قضى حياته كلها لا يفعل شيئًا سوى قيادة زمام الأمور:

- هذا جيد، والآن يعود الجميع إلى مستقرّه، وكونوا حذرين، لأننا منذ اللحظة فصاعدًا سنجابه الكاردينال.

10

مصيدة فئران في القرن السابع عشر

إن اختراع مصيدة الفئران ليس وليد اليوم؛ لأنه بمجرد أن اختُرعت المجتمعات، وابتُكرت الشرطة كيفما كانت، اخترعت هذه الشرطة بدورها مصائد الفئران.

ربما لم يكن قراؤنا على دراية بعامية شارع القدس(24)، منذ بداية شروعنا في الكتابة -منذ حوالي خمسة عشر عامًا- لأول مرة نستخدم فيها الكلمة المطبقة على هذا الشيء، لهذا دعونا نوضح لهم ما المقصود بمصيدة الفئران.

عندما يُقبض على فرد في أي منزل للاشتباه في ارتكابه جريمة، يظل الاعتقال سرًّا، يُوضع أربعة أو خمسة رجال في كمين في الغرفة الأولى، والباب مفتوح أمام الذين سيطرقونه جميعهم، فيغلق وراءهم ويقبض عليهم؛ بهذه الطريقة، بعد يومين أو ثلاثة أيام، يكون لديك تقريبًا الأشخاص كلهم الذين أَلِفُوا زيارة المنزل.

هذا ما يطلقون عليه مصيدة فئران.

لذلك نُصِبَت مصيدة فئران في شقّة السيد بوناسيو، وكل من قدم إلى هناك، يُعتَقَل ويُستجوب من قِبل رجال الكاردينال، وغني عن التوضيح أنه ما دام ثمّة زقاق مُفضٍ إلى الطابق الأول حيث يقيم دارتانيان، فقد أُعفِيَ أولئك الذين يأتون إلى منزله من الزيارات جميعها.

في الواقع كان الفرسان الثلاثة يأتون فرادى وينصرفون فرادى، ولم يجدوا شيئًا، ولم يكتشفوا شيئًا، حتى أن آثوس استجوب السيد دو تريفيل، وهو الأمر الذي أذهل قائده كثيرًا عند رؤية الصمت المُعتاد للفارس الجدير، لكن لم يكن يعلم شيئًا، باستثناء أنه في المرة الأخيرة التي رأى فيها الكاردينال الملك والملكة، بدا

الكاردينال مهمومًا جدًّا، وكان الملك قلقًا، وعيون الملكة كانتا حمراوين وتؤكدان أنها مسهدة أو باكية، لكن هذا الظرف الأخير لم يدهشه كثيرًا، لأن الملكة منذ زواجها وهي تسهد وتبكي كثيرًا.

على أي حال، فقد أوصى السيد دو تريفيل آثوس بخدمة الملك وخاصة خدمة الملكة، متوسّلًا إليه أن ينقل التوصية نفسها لرفاقه.

أما دارتانيان، فلم يغادر المنزل، لقد حول غرفته إلى مرصد، رأى من النوافذ أولئك الذين يصلون ليُقبَض عليهم، ثم بعد أن أزال البلاط من الأرضية، وفرَّغ الأرضية الخشبية، فلم يعد يفصله إلا سقف بسيط عن الغرفة التي تحتها، حيث كانت تجري الاستجوابات، وبذلك تمكن من سماع ما يدور كله بين المحققين والمتهمين.

كانت الاستجوابات التي يسبقها تفتيش دقيق للمعتقل مصممة دائمًا على النحو التالي:

- هل أعطتك السيدة بوناسيو أي شيء لتنقله إلى زوجها أو إلى شخص آخر؟

- هل أعطاك السيد بوناسيو شيئًا لزوجته أو لشخص آخر؟

- هل أخبرك أي منهما بشيء شخصيّ؟

قال دارتانيان في نفسه:

- إذا كانوا يعرفون شيئًا ما، فلن يسألوا مثل هذه الأسئلة، الآن ما الذي يحاولون اكتشافه؟ إذا لم يكن دوق باكنغهام في باريس، وإذا لم يكن قد قابل أو لم يقابل الملكة قط.

توقف دارتانيان عند هذه الفكرة، التي بدت له بعد ما سمعه كله، أنها لم تكن خالية من الاحتمالات.

في غضون ذلك، كانت مصيدة الفئران تعمل بشكل متواصل، وكذلك كانت يقظة دارتانيان.

في مساء اليوم التالي لاعتقال بوناسيو المسكين، كان آثوس قد غادر لتوه دارتانيان للذهاب إلى السيد دو تريفيل، وكانت الساعة التاسعة صباحًا، ولم يكن بلانشي قد رتب السرير بعد، وبدأ عمله، سمع طرقًا على الباب الخارجي، وفُتح هذا الباب وأُغلق على الفور، وأُلقي القبض على شخص ما في مصيدة فئران.

اندفع دارتانيان نحو المكان المقشرة أرضيته، وانبطح على بطنه أرضًا واستمع.

سرعان ما تعالى الصرخات، ثم الأنّات التي حاولوا كتمها، لم يكن ثمة استجواب على الإطلاق.

قال دارتانيان في نفسه:

- اللعنة! يبدو أنها امرأة: يفتشونها، فتقاوم، فيعنفونها، البائسون!

حبس دارتانيان أنفاسه وأصغى مليًّا لما يحدث أسفله:

- لكنني أقول لكم إنني سيدة المنزل، أيها السادة، أقول لكم إنني السيدة بوناسيو، أقول لكم إنني خادمة الملكة!

بكت المرأة التعيسة.

- السيدة بوناسيو! تمتم دارتانيان هل أنا محفوظ بما يكفي، لأجد ما يبحث عنه الجميع؟

قال المحققون:

- أنتِ بالتحديد من كنا ننتظره.

أصبح الصوت مكتومًا أكثر فأكثر، دوى صوت حركة صاخبة فوق الأرضية الخشبية، قاومت الضحية بقدر ما تستطيع امرأة أن تقاوم أربعة رجال.

تمتم الصوت الذي لم يصدر سوى أصوات غير مفهومة:

«عفوكم، أيها السادة، عفو...».

صرخ دارتانيان، وهو ينهض متأهبًا:

- إنهم يكممونها، وسيسحبونها بعيدًا، سيفي، حسنًا، إنها بجانبي، بلانشي! أين أنت؟

- سيدي؟

- أسرع وأحضر آثوس وبورثوس وأراميس، وسيكون أحد الثلاثة في منزله بالتأكيد، وربما يوجد الثلاثة في منازلهم، فليحملوا السلاح ويأتوا بسرعة، آه! تذكرت، يوجد آثوس عند السيد دو تريفيل.

- ولكن إلى أين أنت ذاهب يا سيدي، إلى أين أنت ذاهب؟

صاح دارتانيان:

- سأنزل من النافذة حتى أصل بسرعة، وأنت أعد البلاط، واكنس الأرض، واخرج من الباب، واركض لتنفيذ ما طلبته منك.

صرخ بلانشي:

- أوه! يا سيدي، سوف تقتل نفسك.

قال دارتانيان:

- اخرس أيها الأحمق، وأمسك بيده بحافة نافذته، وترك نفسه يسقط إلى الطابق التالي، الذي لحسن الحظ لم يكن مرتفعًا، دون أن يُصاب بأدنى خدش.

ثم ذهب على الفور ليطرق على الباب وهو يغمغم:

- بدوري سأقع في مصيدة الفئران، لكن الويل للقطط التي ستحتك بهذا الفأر.

عندما توقف الضجيج، واقتربت خطى، وما إن فتح الباب، حتى اندفع دارتانيان مشهرًا سيفه نحو شقة السيد بوناسيو، التي تحرك بابها آليًّا وعاد فانغلق خلفه من تلقاء نفسه.

ثم سمع أولئك الذين يقيمون في منزل بوناسيو سيئ الحظ وأقرب الجيران، صرخات وضربًا بالأرجل على الأرض، وصليل سيوف، وضوضاء انقلاب الأثاث، ثم بعد لحظة، اشْرأَبَّ أولئك الذين فوجئوا بهذا الضجيج من النوافذ لمعرفة السبب، فتمكّنوا من رؤية الباب المفتوح وأربعة رجال يرتدون ملابس سوداء، لا يُقذَفون خارجًا، وإنما يطيرون بعيدًا مثل الغربان المفزوعة، تاركة خلفها على الأرضيّة وزوايا الطاولات ريش أجنحتها، خرقًا من ثيابهم ونتفًا من معاطفهم.

كان دارتانيان قد انتصر دون صعوبة كبيرة، يجب أن نقول إن شرطيًّا واحدًا فقط كان مسلحًا، حاول أن يدافع عن نفسه عرضيًّا، صحيح أن الثلاثة الآخرين حاولوا ضرب الشاب بالكراسي والأواني الفخارية، لكن الخدشَيْن أو الثلاثة خدوش من سيف الجاسكوني أرعبتهم، كانت عشر دقائق كافية لهزيمتهم، وليصبح دارتانيان سيد ساحة المعركة.

كان الجيران الذين فتحوا نوافذهم، قد أغلقوها مرة أخرى بدم بارد معبرين عن السمة التي غدا عليها سكّان باريس في أوقات الشغب والمشاجرات الدائمة، بمجرد أن رأوا الرجال السود الأربعة يفرون: أدركوا بشكل غريزي، أن كل شيء في الوقت الحالي قد انتهى.

زد على ذلك فقد كان الوقت متأخرًا، لهذا ذهبوا إلى النوم مبكّرًا كما هي عادة سكان منطقة لوكسمبورغ.

التفت دارتانيان جهة السيدة بوناسيو التي تُرِكَت وحدها: كانت المرأة المسكينة على كرسي بذراعين وشبه مغشي عليها، تفحَّصها دارتانيان بنظرة سريعة.

كانت امرأة فاتنة في الخامسة والعشرين أو السادسة والعشرين، سمراء وذات

عينين زرقاوين، وأنف أفطس قليلًا، وأسنان رائعة، وبشرة رخامية ووردية وزبرجدية، ومع ذلك، هنا تنتهي العلامات التي يمكن أن تخلط بينها وبين سيدة عظيمة، كانت اليدان بيضاء، لكن دون نعومة، كما أن قدميها لا تؤشران على الوجاهة، لحسن الحظ، لم يكن دارتانيان مهتمًّا بعد بهذه التفاصيل.

بينما كان دارتانيان يتفحص السيدة بوناسيو، لمح عند قدميها على الأرض منديلًا ناعمًا من قماش الباتيست، التقطه كالمعتاد، ولاحظ في ركنه شعار النبالة نفسه الذي رآه على منديل أراميس، والذي كاد أن يقطع عنقه بسببه.

منذ ذلك الحين، بات دارتانيان حذرًا من المناديل المزخرفة، لذلك التقطه ووضعه في جيب السيدة بوناسيو دون أن ينبس ببنت شفة.

في هذا الوقت، شرعت السيدة بوناسيو تعود إلى رشدها، فتحت عينيها، ونظرت حولها في رعب، فرأت أن الشقة فارغة، وأنها وحدها مع من أنقذها، مدَّت يديها على الفور مبتسمة، كانت للسيدة بوناسيو أكثر الابتسامات سحرًا في العالم.

قالت:

- آه! سيدي! أنت من أنقذني، دعني أشكرك.

قال دارتانيان:

- سيدتي، لم أفعل سوى ما سيفعله أي رجل مكاني، لذا فأنت لا تدينين لي بأي شكر.

- نعم سيدي، نعم، وآمل أن أثبت لك أنك لم تنقذ شخصًا ناكرًا للجميل، لكن ماذا أراد هؤلاء الرجال مني، كنت أعتقد في البداية أنهم لصوص، ولماذا لا يوجد السيد بوناسيو في البيت؟

- سيدتي، هؤلاء الرجال كانوا أخطر بكثير من اللصوص؛ لأنهم عملاء الكاردينال، أما بالنسبة لزوجك السيد بوناسيو، فهو غير موجود، لأنهم أخذه بالأمس إلى سجن الباستيل.

صرخت السيدة بوناسيو:

- زوجي في الباستيل! عجبًا! يا إلهي! ماذا فعل؟ عزيزي المسكين! إنه البراءة نفسها!

وارتسمت ابتسامة مفاجئة اخترقت وجه الشابة المرعوبة.

قال دارتانيان:

- ماذا فعل يا سيدتي؟ أعتقد أن جريمته الوحيدة هي سعادة وتعاسة كونه زوجك.

- لكن يا سيدي، أنت تعلم...

- أعلم أنكِ خُطِفْتِ يا سيدتي.

- ومن يكون؟ هل تعرف من هو؟ حسنًا! إذا كنت تعلم، فأخبرني.

- رجل في الأربعين أو الخامسة والأربعين، ذو شعر أسود، وبشرة داكنة، وندبة على صدغه الأيسر.

- هذا هو، هذا هو، لكن ما اسمه؟

- حسنًا! اسمه؟ هذا ما لا أعرفه.

- وهل يعلم زوجي أنني كنت مخطوفة؟

- حُذِّرَ برسالة كتبها الخاطف نفسه.

وسألت السيدة بوناسيو بإحراج:

- وهل يشك في سبب هذا الحدث؟

- يرجع ذلك في اعتقادي إلى قضية سياسية.

- شككت في ذلك منذ البداية، والآن أعتقد ذلك، إذن عزيزي السيد بوناسيو لم يشك بي لحظة واحدة...؟

- آه! بعيدًا عن ذلك سيدتي، كان فخورًا جدًّا بحكمتك وخاصة بحبك.

مرقت ابتسامة ثانية فغمرت الشفاه الوردية للمرأة الشابة الجميلة دون أن تكشف شعورها الحقيقي.

وتابع دارتانيان:

- لكن، كيف أفلتِّ؟

- استفدت من لحظة تُرِكْتُ فيها وحدي، فاستعملت ملاءاتي ونزلت عبر النافذة، وركضت إلى هنا معتقدة أن زوجي يوجد في البيت.

- ليضعك تحت حمايته؟

- أوه! لا، عزيزي المسكين، أعرف أنه غير قادر على الدفاع عني، ولكنه يمكن أن يفيدنا في شيء آخر، فقد أردت تحذيره.

- من ماذا؟

- حسنًا! هذا ليس سري، لذا لا يمكنني إخباركم.

قال دارتانيان:

- معذرة يا سيدتي، نعم، أدعوك أن تكوني حريصة، بالإضافة إلى ذلك، لا أعتقد أننا هنا في مكان مناسب لإفشاء الأسرار، الرجال الذين طردتهم سيعودون بالعون، إذا وجدونا هنا فقد نهلك، لقد حذرت ثلاثة من أصدقائي، لكن من يدري ربما لن يكونوا رهن الإشارة!

صرخت السيدة بوناسيو مذعورة:

- نعم، أنت على حق، دعنا نهرب، دعنا نهرب.

عقب هذه الكلمات، أمسكت ذراع دارتانيان وسحبته بحيوية.

قال دارتانيان:

- لكن إلى أين نهرب؟، أين يمكننا النجاة؟

- دعنا نبتعد عن هذا المنزل أولًا، ثم سنرى.

وسار الشاب والشابة، تاركين الباب مشرعًا، وبسرعة نزلا إلى شارع حفاري القبور، ودخلا شارع خنادق السيد الأمير، ولم يتوقفا إلا عندما بلغا ساحة سان سولبيس.

سأل دارتانيان:

- والآن، ماذا سنفعل، وإلى أين تريدينني أن أصطحبك؟

قالت السيدة بوناسيو:

- إنني أشعر بالحرج الشديد من الرد عليك، أعترف بذلك، كانت نيتي أن أبلغ زوجي لكي يخبر السيد دولابوت، الذي سيخبرنا بدقة بما حدث في اللوفر خلال الأيام الثلاثة الماضية، وإذا لم يكن ثمة خطر يهددني لكي أعود إلى القصر.

قال دارتانيان:

- لكنني أستطيع أن أذهب وأخبر السيد دولابورت.

- دون شك، توجد مَلِمّة واحدة فقط، وهي أن السيد بوناسيو يعرفونه في اللوفر وبذلك سيُسمَح له بالمرور، بينما هم لا يعرفونك، وسيغلقون الباب في وجهك.

قال دارتانيان:

- حسنًا! لا بد أن يكون لديك في أحد منافذ اللوفر بواب تعرفينه، وبفضل كلمة منك يمكن...

حدّقت السيدة بوناسيو في الشاب وقالت:

- وإذا أعطيتك هذه الكلمة، هل ستنساها بمجرد استعمالها؟

قال دارتانيان:

- وعد شرف، وذمة رجل نبيل! بنبرة لا يمكن إلا أن تكون صادقة تمامًا.

- حسنًا، أنا أصدقك، تبدو شابًا شجاعًا وقد تكون ثروتك في تفانيك.

قال دارتانيان:

- سأفعل ما بوسعي كله دون وعود، وبإخلاص من أجل خدمة الملك ولكي أكون مقبولًا عند الملكة، لذا اعتمدي عليَّ مثل صديق.

- لكن، أين ستأخذني خلال ذلك الوقت؟

- ألا تعرفين شخصًا يمكن أن تحلي عنده ثم يأتي السيد دولابورت، ليصطحبك من عنده؟

- لا، لا أريد أن أثق بأحد.

قال دارتانيان:

- انتظري، نحن أمام بوابة آثوس، نعم إنه كذلك.

- من هو آثوس؟

- أحد أصدقائي.

- لكن إذا كان في المنزل ورآني؟

- لا يوجد في البيت، وسوف آخذ المفتاح بعد أن تستقري في شقته.

- لكن إذا عاد؟

- لن يعود، وإلى جانب ذلك، سيخبرونه أنني أحضرت امرأة، وأن هذه المرأة في بيته.

- أنت تعرف أن هذا سيسيء لشرفي كثيرًا!

- لا يهمك! لن يتعرف عليك أحد، أضيفي إلى ذلك نحن في وضع يسمح لنا بتجاوز بعض مظاهر اللباقة!

- إذن، لنذهب عند صديقك، أين يسكن؟

- شارع فيرو على مرمى حجر من هنا.

- هيا بنا.

واستأنف كلاهما سيرهما، وكما توقع دارتانيان، لم يكن آثوس في المنزل؛ لقد أخذ المفتاح الذي مُنِحَ له بوصفه صديقًا للمنزل، وصعد السلالم وأدخل السيدة بوناسيو إلى الغرفة، والشقة صغيرة كما وصفناها سابقًا.

وقال:

- أنتِ في بيتكِ، انتظري، أغلقي الباب من الداخل ولا تفتحي لأي شخص، إلا إذا سمعت ثلاث طرقات هكذا: (وطرق ثلاث مرات: طرقتان قريبتان من بعضهما وقويتان بدرجة كافية، وطرفة متباعدة وأكثر خفة).

قالت السيدة بوناسيو:

- هذا جيد، الآن حان دوري لأعطيك تعليماتي.

- أنا أصغي إليك.

- اذهب إلى مركز الحراسة في اللوفر، على جانب شارع دو ميشيل، واسأل عن جرمان.

- هذا جيد، وماذا بعد؟

- سيسألك ماذا تريد، فتجيبه بهاتين الكلمتين: تور وبروكسل، سيضع نفسه على الفور تحت تصرفك.

- وماذا سأطلب؟

- تطلب ملاقاة السيد دولابورت، حاجب الملكة.

ة وعندما سيحضر السيد دولابورت؟

- سوف ترسله لي.

- هذا جيد، لكن أين وكيف سأراكِ مرة أخرى؟

- هل تريد أن تراني مرة أخرى؟

- بالتأكيد.

- حسنًا! اعتمد عليَّ في هذه المسألة، وكن مطمئنًا.

- أنا أثق بوعدك.

- ثق بي.

حيّا دارتانيان السيدة بوناسيو، ورمقها بنظرة عاشقة، وعندما نزل الدرج، سمع الباب خلفه يغلق جيدًا، أسرع إلى اللوفر: وحينما دخل بوابته من جهة ليشيل، دقّت الساعة العاشرة صباحًا، الأحداث كلها التي سردناها للتو حدثت خلال حوالي نصف ساعة.

نَفَّذ كل شيء بحذافيره وكما طلبت السيدة بوناسيو، بناء على كلمة السر المتفق عليها، حياه جرمان تحية احترام، وبعد عشر دقائق، كان دولابورت في حجرة البواب، باختصار، وضعه دارتانيان في صلب الموضوع ودله على مكان وجود

السيدة بوناسيو، تأكّد دولابورت من صحة العنوان مرتجفًا، ثم هرع لنجدة السيدة، ولكنه ما إن خطا عشر خطوات حتى عاد، وقال لدارتانيان:

- أيها الشاب، أقدم لك نصيحة.

- ما هي؟

- قد تكون في ورطة بسبب ما حدث للتو.

- أتظن؟

- نعم.

- هل لديك صديق يمكن أن تلجأ إليه، ويمكن أن يبطئ الزمن.

- حسنًا.

- اذهب لرؤيته حتى يشهد أنك كنت في منزله في التاسعة والنصف في المحكمة، هذا يسمى حجة، وجد دارتانيان النصيحة حكيمة، فهرع بأقصى سرعة، وعندما وصل إلى قصر السيد دو تريفيل، بدلًا من الذهاب إلى غرفة الانتظار مثل الجميع، طلب الدخول إلى مكتبه مباشرة، ولأن دارتانيان كان منتظم الحضور إلى القصر، لم يجد صعوبة في الاستجابة لطلبه، وبعد خمس دقائق، سأل السيد دو تريفيل دارتانيان عما يمكن أن يفعله من أجل خدمته، وما الذي دعاه لزيارته في مثل هذه الساعة المتأخرة.

قال دارتانيان الذي استغل اللحظة التي تُرِكَ فيها بمفرده لتأخير زمن ساعة دو تريفيل بثلاثة أرباع الوقت المحدد:

- آسف يا سيدي!، كنت أحسب أنه منذ التاسعة وعشرين دقيقة فقط، كان ما زال متسع من الوقت لإبلاغك.

صرخ السيد دو تريفيل ناظرًا إلى ساعته:

- التاسعة وخمس وعشرون دقيقة! ولكن هذا مستحيل!

قال دارتانيان مشيرًا إلى ساعة مكتبه:

- انظر، يا سيدي، ها هو الدليل.

قال السيد دو تريفيل:

- هذا صحيح، كنت أعتقد أن الوقت متأخر عن ذلك، لكن دعنا من هذا، لم جئت في طلبي؟

ثم أبلغ دارتانيان السيد دو تريفيل قصة الملكة الطويلة، شرح له المخاوف التي تخالجه حول جلالة الملك، أخبره بما سمعه عن خطط الكاردينال لاستدراج باكنغهام، سرد هذا كله بهدوء وثقة، إذ بقي دو تريفيل مغمورًا

ومذهولًا، لكن سبق له أن لاحظ شيئًا جديدًا بين الكاردينال والملك والملكة.

عندما دقت الساعة العاشرة، غادر دارتانيان مكتب السيد دو تريفيل، الذي شكره على معلوماته، وأوصى أن يسعى دائمًا لخدمة الملك والملكة بإخلاص، ثم عاد إلى غرفة الاستقبال، لكن في أسفل الدرج، تذكر دارتانيان أنه نسي خيزرانته؛ ونتيجة لذلك، صعد مرة أخرى على عجل، وعاد إلى المكتب، وأدار إصبعه عقرب الساعة وضبطها على ساعته، لكي لا يلاحظ أحد في اليوم التالي أنها تعرضت للاختلال، والآن صار على يقين من وجود شاهد لإثبات حجة غيابه، نزل السلالم وسرعان ما وجد نفسه في الشارع.

11

المؤامرة تزداد تعقيدًا

بعد زيارته للسيد دو تريفيل، شرد دارتانيان في التفكير وهو يسلك أطول طريق ممكن إلى منزله.

بماذا كان يفكر دارتانيان وهو يبتعد عن طريقه، مُحدِّقًا في نجوم السماء، ومتنهّدًا أحيانًا، ومبتسمًا أحيانًا أخرى؟

كان يفكر في السيدة بوناسيو، بالنسبة لفارس مبتدئ، كانت الشابة تقريبًا عشقًا مثاليًّا، جميلة، وغامضة، ومطلعة على أسرار البلاط كلها تقريبًا، والتي تعكس الكثير من الجاذبية الساحرة على سماتها الرشيقة الساحرة والجذابة للعشاق المبتدئين، علاوة على ذلك، فقد أنقذها دارتانيان من أيدي أولئك الشياطين الذين أرادوا العبث بجسمها وإساءة معاملتها، وقد نسجت هذه الخدمة المهمة بينهما مشاعر الامتنان التي تأخذ بسهولة طابعًا أكثر رقة.

يرى دارتانيان نفسه بالفعل، ما دامت الأحلام تحلق على أجنحة الخيال الجامح، يدنو منه رسول من الشابة الذي يسلمه بعض رسائل المواعيد، أو سلسلة ذهبية، أو ماسة، قلنا سابقًا إن الفرسان يقبلون الهدايا من ملكهم دون خجل، دعنا نضيف أنه في هذا الزمن الذي صارت فيه الأخلاق متساهلة، لم يعد لديهم المزيد من الخجل تجاه عشيقاتهم اللواتي يتركن لهم دائمًا تذكارات ثمينة ومستمرة، كما لو أنهن يحاولن التغلب على هشاشة مشاعرهن بقوة الهدايا.

ثم يشق الفرسان طريقهم بواسطة النساء دون خجل، أولئك اللواتي يملكن الجمال فقط يمنحن جمالهن، ومن هنا بلا شك مصدر المثل الذي يقول: إن أجمل فتاة في العالم لا يمكنها أن تعطي سوى ما تملك، كما تمنح الثريات جزءًا

من أموالهن، ويمكننا الاستشهاد بعدد لا بأسه به من أبطال هذه الحقبة الباسلة الذين لم يكونوا ليربحوا حوافزهم أولًا، ولا معاركهم بعد ذلك، دون أكياس المال التي تعلقها عشيقاتهم على سروج خيولهم.

لم يكن دارتانيان يمتلك شيئًا، تبخر تردد القرويّ، والمظهر البراق الخفيف، والزهرة سريعة الزوال، والخوخ، مع ريح النصيحة غير التقليدية التي قدمها الفرسان الثلاثة لصديقهم. دارتانيان، تبعًا للعادة الغريبة التي كانت سائدة في ذلك الوقت، ينظر إلى نفسه في باريس كما في الريف، على أنه ليس أكثر ولا أقل مما هي عليه في الفلاندرز الإسباني هناك، والمرأة هنا، كأن يوجد في كل مكان عدو يجب محاربته، ومنافس يجب هزمه.

لكن، دعنا نقول في هذه اللحظة إن دارتانيان تأثر بشعور أكثر نبلًا وأكثر نكرانًا للذات، قال له تاجر الخردوات إنه غني، كان بإمكان الشاب أن يتخيل أنه مع أبله مثل السيد بوناسيو، لا بد أن المرأة هي التي تملك مفتاح الخزنة، لكن هذا كله لم يؤثر بأي شكل من الأشكال على الشعور الناتج عن مشهد السيدة بوناسيو، فصار الاهتمام غريبًا تقريبًا عن بداية حب له تبعات، نقول بشكل تقريبي، لأن فكرة أن الشابة جميلة، كريمة، روحانية، غنية في الوقت نفسه، لا تنتقص شيئًا من بداية الحب هذه، بل على العكس، فهي تؤكدها تمامًا.

توجد بسهولة مجموعة من الاهتمامات والنزوات الأرستقراطية التي تتوافق مع الجمال؛ الجورب الأبيض الناعم، الفستان الحريري، خمار الدانتيل، الحذاء الجميل، الشريط الجديد على الرأس، لا تجعل المرأة القبيحة جميلة، بل تجعل المرأة الجميلة جميلة، ناهيك عن الأيدي التي تزيّن هذه الأشياء كلها، يجب أن تظل الأيدي، خاصة عند النساء، بعيدة عن قسوة الشغل، لتظل جميلة.

ثم إن دارتانيان، كما يعرف القارئ جيدًا، الذي لا يخفى عنا وضعه المالي، لم يكن مليونيرًا؛ وإنما يأمل أن يصبح كذلك يومًا ما، لكن الوقت الذي حدده لنفسه لهذا التغيير السعيد كان بعيد المنال، في هذه الأثناء، يا له من يأس أن ترى امرأة تحبها ترغب في هذه الآلاف من الأشياء التي تشكل سعادة النساء، ولا تكون قادرًا

على منحها هذه الآلاف من الأشياء! على الأقل عندما تكون المرأة غنية وليس العاشق، ما لا يستطيع أن يقدمه لها، يقدمه لنفسها، وعلى الرغم من أن هذه المتعة هي عادة من مال الزوج، إلا أنه نادرًا ما يحظى بالامتنان عليها.

كان دارتانيان مستعدًّا ليكون أكثر العاشقين رقة، وصديقًا غاية في الإخلاص، وفي خضم تخطيطه لعشق زوجة تاجر الخردوات، لم ينسَ أصدقاءه، كانت السيدة بوناسيو الجميلة امرأة للنزهة في سهل سان دوني أو في معرض سان جيرمان بصحبة آثوس وبورثوس وأراميس، سيفخر دارتانيان بأن يطلعوا على مغامرته العظيمة، وبعد أن يمشي المرء فترة طويلة، يأتي الجوع؛ لقد لاحظ دارتانيان ذلك منذ فترة خلال تلك العشاءات الصغيرة الساحرة حيث تجلس يد صديق من جهة وقدم عشيقة من جهة أخرى، وأخيرًا سيكون دارتانيان في اللحظات الضاغطة، والمواقف المتطرفة، المنقذ الوحيد لأصدقائه.

وماذا عن السيد بوناسيو، الذي دفعه دارتانيان بين أيدي الحراس، وأنكره جهرًا ووعد بإنقاذه همسًا؟ يجب أن نعترف لقرائنا أن دارتانيان لم يفكر في الأمر بأي شكل من الأشكال، أو أنه إذا فعل ذلك، فسيحبذ أن يبقى حيث كان وأينما كان، الحب هو أكثر العواطف أنانية.

ومع ذلك، فليطمئن قراؤنا: إذا نسي دارتانيان مضيفه أو تظاهر بنسيانه، بحجة أنه لا يعرف إلى أين أخذوه، فلن ننساه نحن، لأننا نعرف مكانه، لكن في الوقت الحالي فلنحذو حذو الجاسكوني العاشق، أما تاجر الخردوات المحترم، فسنعود إليه لاحقًا.

بينما كان دارتانيان يفكر في حبه المستقبلي، متحدثًا إلى الليل، مبتسمًا للنجوم، صعد إلى شارع شيرش ميدي أو شاس ميدي(25)، كما كان يُطلق عليه آنذاك، ولأنه يوجد في منطقة أراميس، فقد خطرت بباله فكرة الذهاب لزيارة صديقه؛ لإعطائه بعض التفسيرات حول الأسباب التي دفعته إلى إرسال بلانشي مع دعوته للذهاب على الفور إلى مصيدة الفئران، لكن إذا كان أراميس يتواجد في المنزل حينما زاره بلانشي، فقد يركض بلا شك إلى شارع دي فوسويور، ولن يجد أحدًا

هناك سوى رفيقَيْه الآخرَيْن، فلا بد أنهم لن يعرفوا ما يعنيه ذلك، لذا فإن هذا الاضطراب يستحق تفسيرًا، وهذا ما قاله دارتانيان لنفسه بصوت عال.

ثم همس لنفسه أنها ستكون فرصة للتحدث عن السيدة بوناسيو الصغيرة والجميلة، التي كان عقلها، إن لم يكن قلبها، مشغولًا بالفعل، لا يجب أن تطلب الكتمان من الحب الأول؛ لأن الحب الأول يأتي مصحوبًا بفرح عظيم لدرجة أن هذا الفرح يجب أن يطفح، وإلا فإنه سيخنقك.

أمست باريس منذ ساعتين مظلمة وبدأت تصير مهجورة، تاهت إلى سمعه دقات الساعة الحادية عشرة المتناهية من الساعات كلها في ضاحية سان جيرمان، وكان الطقس معتدلًا، اتبع دارتانيان زقاقًا يقع في مكان حيث يمر الآن بشارع داساس(26)، يتنفس في الانبثاق العبق القادم مع الريح من شارع دو فوجيرار، والذي تبعثه الحدائق المنتعشة بالندى المسائي ونسيم الليل. في البعيد تتردد وتتكتم بواسطة المصاريع الجيدة، أغاني المخمورين في عدد قليل من الحانات المتوارية في السهل، في نهاية الممر، استدار دارتانيان إلى اليسار حيث يقع المنزل الذي عاش فيه أراميس بين شارع كاسيت وشارع سيرفاندوني.

كان دارتانيان قد مر للتو بشارع كاسيت فتعرَّف بالفعل على باب منزل صديقه، كان متواريًا تحت كتلة من أشجار الخبز والياسمين البري، والتي شكّلت سياجًا كبيرًا فوقها، عندما رأى شيئًا مثل الظل يخرج من شارع سيرفاندوني(27)، كان هذا الشيء ملفوفًا في عباءة، وظن دارتانيان في البداية أنه رجل، ولكن نظرًا للهيئة الصغيرة، والتردد في المشي، والحرج في الخطوة، سرعان ما اكتشف أنها امرأة، علاوة على ذلك، كانت هذه المرأة، كما لو أنها غير متأكدة تمامًا من المنزل الذي كانت تبحث عنه، نظرت إلى الأعلى لتتعرف عليه، وتوقفت، وعادت إلى الوراء، ثم عادت مرة أخرى، كان دارتانيان مفتونًا.

فكر دارتانيان:

- ماذا لو ذهبت لمساعدتها! يمكنك أن تدرك مـــن خلال مظهرها أنها صغيرة،

ربما جميلة، أوه! نعم، لكن المرأة التي تذرع الشوارع في هذه الساعة لن تخرج إلا للانضمام إلى حبيبها، حقًّا! إذا ذهبت فسأفسد الموعد، ولن يكون تصرفًا جيدًا لنسج علاقات.

ومع ذلك، لا تزال الشابة تتقدم، وهي تعد المنازل والنوافذ، لم تكن عالية ولا صعبة؛ إذ لا توجد سوى ثلاثة منازل فقط في هذا الجزء من الشارع، ونافذتين تطلان على هذا الشارع؛ إحداهما كانت لجناح موازٍ لجناح أراميس، والأخرى كانت لجناح أراميس نفسه.

قال دارتانيان لنفسه وهو يذكر ابنة أخت اللاهوتي:

- بالتأكيد! بالتأكيد! سيكون طريفًا لو أن هذه الحمامة الليلية كانت تبحث عن منزل صديقنا، لكن أقسم إن الأمر يبدو قريبًا من الصحة، آه! يا عزيزي أراميس، لكني هذه المرة أريد أن أعرف.

حاول دارتانيان أن يجعل جسمه رفيعًا قدر استطاعته، ولجأ إلى الجانب المظلم من الشارع، واندس بالقرب من مقعد حجري يوجد داخل كوة متسترة.

استمرت الشابة في التقدم، فبجانب خفة مظهرها التي خانتها، كانت قد أطلقت للتو سعالًا خفيفًا، فاعتقد دارتانيان أن هذا السعال كان إشارة.

في هذه الأثناء، إما أن يكون هذا الشخص قد أجاب على هذا السعال بعلامة مماثلة متفق عليها تهدد حيرة الباحثة الليلية، أو أنها أدركت دون مساعدة خارجية أنها وصلت إلى نهاية مسارها، اقتربت بحزم من مصراع أراميس وطرقت على ثلاث طرقات متساوية بإصبعها المعقوف.

غمغم دارتانيان:

- هذا جيد، إنه بيت أراميس، آه! يا لك من سيد منافق! ها قد ضبطتك تمارس علم اللاهوت!

وما كادت تنتهي الطرقات الثلاث حتى فُتِحَت النافذة الداخلية وظهر ضوء من

خلال نوافذ الجناح.

- آه! آه! كانت الزيارة متوقعة، ها هو سيفتح وسيُصعِد السيدة إلى الداخل، هذا جيد جدًّا!

ولكن، يا لدهشة دارتانيان! فقد ظل المصراع مغلقًا، بالإضافة إلى ذلك، اختفى النور الذي اشتعل للحظة، وغمر الظلام كل شيء.

اعتقد دارتانيان أنه لا يمكن أن يستمر على هذا المنوال، واستمر في النظر بكل إمعان، والاستماع بكل إصغاء.

كان مُحقًّا: بعد ثوانٍ قليلة، سُمِعَت نقرتان حادتان من الداخل.

ردت الشابة الواقفة في الشارع بنقرة واحدة، ففُتح المصراع.

يمكننا أن نحكم ما إذا كان دارتانيان ينظر ويستمع بشغف.

لسوء الحظ، نُقِلَ الضوء إلى شقة أخرى، لكن عيني الشاب اعتادت الليل، علاوة على ذلك، يُزعم أن عيون أهل جاسكون تشبه عيون القطط، فهي قادرة على الرؤية في أثناء الليل.

رأى دارتانيان الشابة وهي تسحب من جيبها شيئًا أبيض سرعان ما فتحته واتخذ شكل منديل، هذا الشيء المنشور، وأشارت إلى مُحاوِرها لينظر إلى شعار في زاويته.

تذَكَّرَ دارتانيان المنديل الذي وجده عند قدمَيْ السيدة بوناسيو، والمنديل الذي وجده عند قدمَيْ أراميس.

- اللعنة، ماذا يعني هذا المنديل؟

لم يستطع دارتانيان من مكانه رؤية وجه أراميس، ندعي أنه أراميس؛ لأن الشاب لم يكن لديه شك في أن صديقه كان يتحدث من الداخل مع السيدة الواقفة في الخارج، لذلك تغلب الفضول على الحكمة، واستغل انشغالهما، فخرج

من مخبئه، وكان سريعًا كالبرق، وتسلل كاتمًا صوت خطواته، ليلتصق بزاوية الجدار، حيث يمكن لعينيه أن تغوص بشكل مثالي إلى داخل شقة أراميس.

عندما وصل، كاد دارتانيان أن تصدر عنه صرخة مفاجأة: لم يكن أراميس من يتجاذب أطراف الحديث مع الزائرة الليلية، بل كانت فقط امرأة، رأى دارتانيان ما يكفي للتعرف على شكل ملابسها، ولكن ليس بما يكفي لتمييز ملامحها.

في اللحظة نفسها، أخذت المرأة في الشقة منديلًا آخر من جيبها، واستبدلت به المنديل الذي قدم لها، ثم قيلت بضع كلمات بين المرأتين، وأخيرًا، أُغْلِقَ المصراع، استدارت المرأة التي كانت خارج النافذة، وتجاوزت دارتانيان بأربع خطوات، وقد خفضت غطاء الرأس لعباءتها، ولكن الاحتياط اتُّخِذَ بعد فوات الأوان، فقد تعرف دارتانيان على السيدة بوناسيو سلفًا.

كان الشك أنها السيدة بوناسيو قد خطر بباله بالفعل عندما سحبت المنديل من جيبها، ولكن ما هو احتمال أن السيدة بوناسيو، التي أرسلته إلى اللوفر للبحث عن السيد دولابورت، ستذرع شوارع باريس وحدها في الساعة الحادية عشرة والنصف ليلًا، معرضة نفسها للاختطاف مرة ثانية؟

لا بد إذن من أن يكون ذلك من أجل قضية غاية في الأهمية، وما هي القضية المهمة التي ستدفع امرأة تبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا؟ غير الحب.

ولكن هل كانت تعرض نفسها لمخاطر مماثلة من أجلها أم نيابة عن شخص آخر؟ هذا ما تساؤل عنه الشاب، الذي لدغه شيطان الغيرة في قلب عاشق مبتدئ.

وفضلًا عن ذلك كانت ثمة طريقة بسيطة جدًّا للتحقق من المكان الذي تذهب إليه السيدة بوناسيو، وهي أن يتعقبها، كانت هذه الطريقة غاية في البساطة لدرجة أن دارتانيان استخدمها بشكل طبيعي وغريزي.

ولكن عندما رأت الشاب الذي كان ملتصقًا بالجدار مثل تمثال ينفصل عن مكانه، وسمعت صوت وقع الأقدام تتردد خلفها، أطلقت السيدة بوناسيو صرخة مكتومة وهربت.

فركض دارتانيان وراءها، لم يكن صعبًا اللحاق بامرأة يضايقها معطفها، فأدركها في ثلث الشارع الذي دخل إليه، كانت المرأة البائسة منهكة، ليس من التعب، بل من الرعب، وعندما وضع دارتانيان يده على كتفيها، سقطت على ركبة واحدة، وهي تبكي بصوت مختنق:

- اقتلني إذا أردت، لكنك لن تعرف.

رفعها دارتانيان ووضع ذراعيه حول خصرها، ولكن عندما شعر أن ثقلها ينذر بالسوء، سارع إلى طمأنتها، لكن الصوت اختزل كل شيء، اعتقدت الشابة أنها تعرفت على صاحب الصوت، فتحت عينيها، وألقت نظرة على الرجل الذي أرعبها كثيرًا، وما أن تعرفت على دارتانيان، حتى أطلقت صرخة فرح.

وقالت:

- آه! هذا أنت، هذا أنت! شكرًا لك يا ربي!

- نعم، هذا أنا، أنا من أرسله الإله ليحرسك.

سألت الشابة ذات الابتسامة الساحرة، والتي سيطرت عليها إلى حد ما شخصيتها الساخرة، والتي اختفى عنها الخوف منذ اللحظة التي تعرفت فيها على صديق ظنته قبل لحظات عدوًا.

- هل كنت تتبعني؟

قال دارتانيان:

- لا، لا، أنا أعترف بذلك، الصدفة وحدها وضعتني في طريقك، رأيت امرأة تطرق نافذة أحد الأصدقاء...

قاطعت السيدة بوناسيو:

- صديق لك؟

- دون شك؛ أراميس هو أحد أعز أصدقائي.

- من يكون أراميس؟

- كفي عن ذلك! لن تقولي أنك لا تعرفين أراميس؟

- هذه المرة الأولى التي أسمع فيها بهذا الاسم.

- إذن هذه هي المرة الأولى التي تأتين فيها إلى هذا المنزل؟

- بلا أدنى شك.

- أولًا تعلمين أنه مسكن شاب؟

- لا.

- يقطنه فارس؟

- لا على الإطلاق.

- إذن فهو ليس الشخص الذي جئت تبحثين عنه؟

- قطعًا لا، بالمناسبة، ما رأيته صحيح، الشخص الذي تحدثت إليه كان امرأة.

- صحيح، لكن هذه المرأة من أصدقاء أراميس.

- أنا لا أدري.

- إنها تقطن في بيته.

- هذا لا يعنيني.

- لكن من هي؟

- حسنًا! هذا ليس سرّي.

- عزيزتي السيدة بوناسيو، أنت ساحرة، لكن في الوقت ذاته أنت المرأة الأكثر غموضًا...

- هل خسرت في هذه الحالة؟

- لا، على العكس من ذلك، أنت فاتنة.

- لذا ناولني ذراعك.

- عن طيب خاطر، والآن؟

- الآن ستأخذني.

- إلى أين؟

- حيث أذهب.

- لكن إلى أين تذهبين؟

- سترى ذلك؛ لأنك ستتركني عند الباب.

- هل ينبغي أن أنتظر؟

- سيكون ذلك بلا جدوى.

- إذن ستعودين وحدك؟

- ربما نعم وربما لا.

- لكن هل سيكون الشخص الذي سيرافقك بعد ذلك رجلًا، أم ستكون امرأة؟

- لا أعلم بعد.

- أنا سأعرف!

- كيف ذلك؟

- سأنتظر حتى أراك تغادرين.

- في هذه الحالة، وداعًا!

- كيف ذلك؟

- أنا لا أحتاجك.

- لكنك طلبت...

- طلبت مساعدة رجل وليس مراقبة جاسوس.

- الكلمة قاسية بعض الشيء!

- ماذا نسمي من يتعقب الناس غصبًا؟

- شخصًا طائشًا.

- الوصف وديع ولطيف.

- هيا يا سيدتي، أرى أن بمقدورك أن تفعلي ما تريدين.

- لماذا تحرم نفسك من ميزة القيام بذلك على الفور؟

- ألا يمكن أن يتوب الشخص؟

- وهل أنت تائب حقًّا؟

- أنا لا أعرف، لكن ما أعرفه هو أنني وعدتك بأن أفعل ما تريدين، إذا سمحت لي بمرافقتك إلى حيث تذهبين.

- وسوف تتركني بعد ذلك؟

- نعم.

- ولن تجسس عليَّ عندما أخرج؟

- لا.

- كلمة شرف؟

- وعد رجل نبيل!

- إذن أمسك ذراعي ولنواصل السير.

مد دارتانيان ذراعه إلى السيدة بوناسيو، التي أمسكتها وهي تضحك قليلًا وترتجف يسيرًا، وحثَّا السير كلاهما إلى مرتفع شارع لاهارب، عند وصولهما إلى هناك، بدت الشابة مترددة، كما فعلت سلفًا في شارع دو فوجيرارد، ولكن من خلال بعض العلامات، بدت وكأنها تعرّفت على الباب، فاقتربت منه وقالت:

- والآن يا سيدي، هذا هو المكان الذي أريد، أشكرك ألف شكر على رفقتك الموقرة التي أنقذتني من الأخطار كلها التي كنت سأتعرض لها لو كنت وحدي، ولكن الآن هذا هو الوقت المناسب للحفاظ على وعدك، لقد وصلت إلى وجهتي.

- ولن تخافي من أي شيء عند عودتك؟

- سأخاف فقط من اللصوص.

- هل هذا هين؟

- ماذا يمكن أن يأخذوا مني؟ ليس معي بنس واحد.

- نسيتِ المنديل الجميل المطرز والمزخرف.

- أي منديل؟

- ما وجدته عند قدميك وأعدته إلى جيبك.

صرخت الشابة:

- اصمت، اصمت أيها الشقي! هل تريد أن تسبب في هلاكي؟

هتف دارتانيان وأمسك يدها وغمرها بنظرة محتدمة:

- يمكنك أن تلاحظي أن الخطر ما زال محدقًا بك، لأن كلمة واحدة جعلتك ترتجفين، وتقرين عند سماع هذه الكلمة أنك ستهلكين، آه! انظري، هنا! كوني أكثر كرمًا وثقي بي، ألم تكتشفي في عيني أنه لا يوجد في قلبي إلا التفاني والتعاطف؟

أجابت السيدة بوناسيو:

- نعم، اسألني أيضًا عن أسراري، وسأخبرك بها، لكن أسرار الآخرين فلن أفشيها أبدًا.

قال دارتانيان:

- هذا حسن، سأكتشفها لأن هذه الأسرار يمكن أن يكون لها تأثير على حياتك، هذه الأسرار يجب أن أعرفها.

صرخت الشابة بجدية جعلت دارتانيان يرتجف رغْمًا عنه:

- احترس، عجبًا! أريدك ألا تتدخل في أي شيء يهمني، ولا تسعى إلى مساعدتي فيما أنجزه، وهذا ما أطلبه منك باسم المعروف الذي قدمته لي، والذي لن أنساه أبدًا مدى حياتي، بل صدق ما أقوله لك، لا تقلق عليَّ بعد الآن، فأنا لم أعد موجودة بالنسبة لك، وكأنك لم تقابلني قط من قبل.

قال دارتانيان منزعجًا:

- هل يفعل أراميس ما أفعله نفسه يا سيدتي؟

- لقد ذكرت هذا الاسم مرتين أو ثلاث مرات يا سيدي، رغم قولي إنني لا أعرفه.

- أنت لا تعرفين الرجل الذي طرقتِ على مصراع نافذته، كفي يا سيدتي! إذا كنت تعتقدين أنني ساذج أيضًا!

- اعترف بأنك تخترع هذه القصة لتجعلني أتحدث، وأن هذه الشخصية من

صنع خيالك.

- أنا لا أخترع أي شيء يا سيدتي، أنا لا أصنع أي شيء، أنا أقول الحقيقة الصحيحة.

- أنت تقول أن أحد أصدقائك يعيش في هذا المنزل؟

- أقولها وأكررها للمرة الثالثة، هذا المنزل يسكنه صديقي، وهذا الصديق هو أراميس.

همست الشابة:

- سيتضح كل شيء لاحقًا، الآن يا سيدي، اصمت.

قال دارتانيان:

- لو كان بمقدورك أن تري قلبي مكشوفًا تمامًا، فستقَرئين الكثير من الفضول الذي يجعلني مدعاة للشفقة، والكثير من الحب، إذ سترضين فضولي على الفور، لا حاجة للخوف من الذين يحبونك.

قالت الشابة وهي تهز رأسها:

- أنت تتسرع بالحديث عن الحب يا سيدي!

- لأن الحب داهمني ولأول مرة وأنا لم أبلغ العشرين بعد.

رمقته الشابة بنظرة مختلسة:

قال دارتانيان:

- اسمعي، جئت منذ ثلاثة أشهر، فاتني مبارزة مع أراميس حول منديل مثل الذي سلمته إلى المرأة التي كانت في منزله، من أجل منديل عليه الشعار نفسه، أنا متأكد.

قالت الشابة:

- سيدي، أقسم لك أنك ترهقني كثيرًا بهذه الأسئلة.

- ولكن يا سيدتي، أنت شديدة الحذر، فكري في الأمر، إذا قُبِض عليك وبحوزتك هذا المنديل، ألن تكوني متهمة؟

- لماذا أُتَّهَم، أليست الأحرف الأولى خاصتي: ك. ب، كونستانس بوناسيو؟

- أو كاميل دو بوا تريسي!

- صه يا سيدي، مرة أخرى أطلب منك أن تصمت! آه! ما دامت الأخطار التي تعترضني لن تمنعك، فكر في تلك التي يمكن أن تعترضك، أنت!

- أنا؟

- نعم أنت، ثمة خطر السجن، ويوجد خطر الموت بسببي.

- لهذا لن أتركك بعد الآن.

قالت الشابة وهي تتوسل ويداها مضمومتان:

- سيدي، يا سيدي، أرجوك.. ارحل، ها هو منتصف الليل، هذه هي الساعة التي أنتظرها.

قال الشاب وهو ينحني:

- سيدتي، لا أستطيع رفض طلب من يحدثني بهذه الطريقة، كوني سعيدة، سأرحل بعيدًا.

- لكنك لن تتبعني، ولن تتجسس عليّ؟

- سأعود الآن إلى منزلي.

صاحت السيدة بوناسيو وهي تمد يدًا له ووضعت الأخرى فوق مطرقة باب صغير يكاد لا يُبصَر في الحائط.

- آه! كنت أعرف جيدًا أنك شاب شجاع!

أمسك دارتانيان باليد الممدودة له وقبّلها بحماس وصرخ:

- آه! كنتُ أفضّل ألا أراك أبدًا بهذه الوحشية الساذجة التي تفضلها النساء على تصنُّع التأدب غالبًا، لأنها تكشف أعماق الفكر، وتثبت أن العاطفة تنتصر على العقل.

أجابت السيدة بوناسيو بصوت مداعب تقريبًا، وهي تصافح دارتانيان الذي لم يتخلَّ عن يدها:

- حسنًا، حسنًا! لن أقول بقدر ما تقول: ما ضاع اليوم لن يضيع في المستقبل، من يدري إن أصبحت حرة ذات يوم، لن أُلبّي فضولك؟

صرخ دارتانيان بسعادة غامرة:

- وهل تعديني لقاء حبي؟

- أوه! من هذه الناحية، لا أريد الالتزام إطلاقًا، فهذا يعتمد على المشاعر التي يمكن أن تلهمني إياها.

- اليوم كذلك يا سيدتي...

- اليوم يا سيدي، ما زلت في مرحلة العرفان فقط.

قال دارتانيان بحزن:

- آه! أنت في غاية السحر، لكنك تستغلين حبي.

- لا، أنا أستغل كرمك، هذا كل شيء، لكن صدقني، مع بعض الأشخاص، يمكن أن يُعَوَّض كل شيء.

- أوه! أنت تجعلينني أسعد الرجال، تذكري هذه الليلة، تذكري هذا الوعد.

- اطمئن، في الوقت المناسب سوف أتذكر كل شيء، حسنًا! اذهب إذن، أرجوك! موعدي في منتصف الليل بالضبط، وقد تأخرت.

- خمس دقائق.

- نعم، لكن في بعض الظروف، خمس دقائق هي خمس قرون.

- عندما نحب.

- حسنًا! وما أدراك أن الأمر لا يتعلق بحبيب؟

صاح دارتانيان:

- هل رجل من ينتظرك؟ هل هو رجل!

قالت السيدة بوناسيو مبتسمة ابتسامة طفيفة تدل على شعورها بنفاد الصبر:

- رويدك، ها هي المناقشة، ستدأ من جديد.

- لا، لا، أنا ذاهب، أنا ذاهب، أنا أثق بك، أريد أن أحصل على مزايا التفاني كلها، هذا الإخلاص يجب أن يكون غباءً، وداعًا سيدتي، وداعًا!

انفصل بصعوبة عن اليد التي كان يمسكها، وابتعَد راكضًا عند زاوية الشارع، التفت: انفتح باب وانغلق، ثم اختفت المرأة الجميلة.

واصل دارتانيان طريقه، فقد وعد السيدة بوناسيو بألا يتجسس عليها، وكانت حياتها تعتمد على المكان الذي ستذهب إليه، أو على الشخص الذي سيرافقها، وكان دارتانيان سيعود إلى المنزل، لأنه قد قال إنه سيعود إلى بيته، بعد خمس دقائق، كان في شارع الفوسويور.

وقال لنفسه:

- يا لآثوس المسكين، لن يعرف ماذا يعني ذلك، سيكون قد نام وهو ينتظر قدومي، أو سيكون قد عاد إلى بيته، وعندما يعود إلى المنزل سيكون قد علم أن امرأة حضرت إلى بيته، امرأة عند آثوس! في الأحوال كلها، كانت توجد امرأة في بيت أراميس، هذا غريب للغاية، أنا مشتاق جدًّا لمعرفة كيف سينتهي هذا كله.

أجاب صوت شاب عرف أنه صوت بلانشي:

- بشكل سيئ يا سيدي، بشكل سيئ.

لأنه في أثناء حديثه بصوت عالٍ، على منوال الأشخاص المنشغلين جدًّا، دخل الزقاق المؤدية نهايته إلى الدرج الصاعد إلى غرفته.

سأل دارتانيان:

- كيف سينتهي بسوء؟ ماذا تقصد أيها الأحمق؟ ماذا حدث؟

- أنواع المصائب كلها.

- ما هي؟

- أولاً أُلقي القبض على السيد آثوس.

- آثوس اعتُقل! لماذا؟

- وجدوه في بيتك، وظنوه أنت.

- ومن اعتقله؟

- اعتقله الحراس الذين أحضرهم الرجال المتشحون بالسواد وسبق أن طردتهم شر طردة.

- لماذا لم يفصح عن اسمه؟ لماذا لم يقل لهم أن لا علاقة له بهذا الأمر؟

- كان حريصًا على عدم القيام بذلك يا سيدي؛ لأنه بدلًا من ذلك، اقترب مني

وقال:

- سيدك الآن من بحاجة إلى حريته، وليس أنا، لأنه يعرف كل شيء، وأنا لا أعرف شيئًا، سيعتقدون أنه اعتُقل، وهذا سيمنحه الوقت، في غضون ثلاثة أيام سأفصح عن هويتي، وسيضطرون إلى إطلاق سراحي.

همس دارتانيان:

- أحسنت يا آثوس! القلب النبيل، هذا هو آثوس الأصيل! وماذا فعل به الحراس؟

- أخذه أربعة، لا أعرف إلى أين، إلى الباستيل أو إلى فورت لافيك(28)، وبقي اثنان مع الرجال السود، الذين فتّشوا في كل مكان وأخذوا الأوراق جميعها، أخيرًا، حرس الاثنان الباب خلال هذا التفتيش، ثم عندما انتهى كل شيء، غادروا، تاركين المنزل فارغًا ومفتوحًا على مصراعيه.

- وماذا عن بورثوس وأراميس؟

- لم أجدهما ولم يحضرا.

- لكن يمكنهما القدوم في أي وقت؛ لأنك قلت لخادميهما إنني أنتظرهما؟

- نعم يا سيدي.

- حسنًا! لا تتحرك من مكانك وإذا جاءا، أخبرهما بما حدث لي، وأن ينتظرا في ملهى بوم دو بان، المكان هناك يشكل خطرًا، ويمكن أن يتجسس على المنزل، سأركض إلى قصر السيد دو تريفيل لأخبره بما حدث كله، ثم سأنضم إليهما هناك.

قال بلانشي:

- هذا جيد يا سيدي.

قال دارتانيان وقد رجع على أعقابه، ليوصي خادمه بأن يتحلى بالشجاعة.

- لكنك ستبقى، لن تخاف!

قال بلانشي:

- لا تقلق يا سيدي، أنت لا تعرفني بعد، أنا شجاع عندما يلزم ذلك، هيا اذهب، سيكون كل شيء على ما يرام.

قال دارتانيان:

- إذن اتفقنا، تُقتَل بدلًا من ترك منصبك.

- نعم يا سيدي، ولا يوجد شيء لن أفعله لأثبت لسيدي أني أشد إخلاصًا.

قال دارتانيان لنفسه:

- حسنًا، يبدو أن الطريقة التي استخدمتها مع هذا الصبي هي بالتأكيد الطريقة الصحيحة: سأستخدمها في بعض الأحيان.

وانطلق بسرعة، رغم شعوره بالتعب جراء مشاوير اليوم، سار دارتانيان نحو شارع دو كولومبييه.

لم يجد السيد دو تريفيل في قصره، كان يشرف على فرقته التي تحرس قصر اللوفر، من الضروري الوصول إلى السيد دو تريفيل، يجب إبلاغه بما يجري، لذلك قرر دارتانيان محاولة دخول اللوفر بزي حرس السيد ديسار الخاص به، لأنه بمثابة جواز مرور.

لذلك نزل إلى شارع دو بوتي أغوستين(29)، ثم صعد إلى الرصيف لينتقل إلى شارع لو بون توف، خطرت له فكرة للحظة، أن يستخدم المعبر، لكن عندما وصل إلى حافة المياه، وضع يده آليًّا في جيبه فاكتشف أنه لا يحمل نقودًا ليدفع لصاحب المعدية.

عندما وصل إلى شارع جينيغو(30)، رأى شخصين يخرجان من شارع دوفين، كانا يسيران بسرعة.

كان الشخصان رجلًا وامرأةً.

بدت المرأة شبيهة بالسيدة بوناسيو، وكان الرجل يشبه أراميس.

بالإضافة إلى ذلك، كانت المرأة ترتدي تلك العباءة السوداء التي لا زال بإمكان دارتانيان تمييزها.

بالإضافة إلى ذلك، كان الرجل يرتدي زي الفرسان.

كانت المرأة تضع قبعة على رأسها، ووضع الرجل منديله على وجهه، فحاول كلاهما أن يخفيا معالم وجهيهما كي لا يتعرف عليهما أحد.

عبرا الجسر: كان الطريق نفسه الذي يسلكه دارتانيان، وما دام يتوجه إلى اللوفر، فبدا كما لو أنه يتبعهما.

لم يكد دارتانيان يقطع عشرين خطوة، حتى أضحى مقتنعًا بأن المرأة هي السيدة بوناسيو، وأن الرجل هو أراميس.

شعر على الفور بشكوك الغيرة كلها تشتعل في قلبه.

لقد تعرض لخيانة مزدوجة من صديقه، ومن المرأة التي أحب بالفعل يوصفها عشيقة، أقسمت السيدة بوناسيو بإيمانها أنها لا تعرف أراميس، وبعد ربع ساعة من قسمها، ها هو يجدها تمسك ذراع أراميس.

لم يفكر دارتانيان بكونه يعرف المرأة الجميلة منذ ثلاث ساعات فقط، وأنها لا تدين له بشيء سوى القليل من الامتنان، لأنه خلصها من الرجال السود اللذين الذين أرادوا خطفها، وأنها لم تعده بأي شيء، كان يعد نفسه عاشقًا غاضبًا ومخدوعًا، احتقن وجهه من شدة الغضب، وقرر أن يستوضح كل شيء.

لاحظ الشاب والشابة أن شخصًا يتعقبهما، فضاعفا وتيرة سيرهما، وحث دارتانيان خطاه، وتجاوزهما، ثم عاد في اتجاههما عندما كانا أمام نافورة السامرية، التي كانت مضاءة بعمود إنارة يبعث وهجه على جزء كبير من الجسر.

توقف دارتانيان أمامهما، وتوقفا بدورهما أمامه.

سأل الفارس متراجعًا خطوة إلى الوراء ولهجة أجنبية أثبتت لدارتانيان أنه كان مخطئًا في بعض تخميناته:

- ماذا تريد يا سيدي؟

صاح دارتانيان:

- ليس أراميس!

- لا يا سيدي، لست أراميس، ونظرًا لاندهاشك، فإني أعتقد أنك حسبتني شخصًا آخر، وأنا أسامحك.

- أنت تسامحني! هتف دارتانيان.

أجاب الغريب:

- نعم، دعني أذهب إذن مادمت لا تعرفني.

قال دارتانيان:

- أنت على حق يا سيدي، فأنا لا أعرفك، لكني أعرف السيدة.

قال الغريب:

- أنت لا تعرف السيدة!

- أنت مخطئ يا سيدي، أنا أعرفها.

قالت السيدة بوناسيو بنبرة تأنيب:

- حسنًا! حسنًا يا سيدي! لقد وعدتني وعد الجندي وأقسمت قسم الرجل النبيل، كنت أتمنى أن تكون صادقًا.

قال دارتانيان محرجًا:

- وأنت يا سيدتي، وعدتني أيضًا...

قال الغريب:

- أمْسِكي ذراعي يا سيدتي، ودعينا نواصل سيرنا.

ومع ذلك، ظل دارتانيان مذهولًا ومرهقًا ومشحونًا بما حدث له كله، واقفًا وذراعاه متشابكتان أمام الفارس والسيدة بوناسيو.

تقدم الفارس خطوتين للأمام ودفع دارتانيان بيده.

قفز دارتانيان إلى الخلف وسحب سيفه.

في الوقت نفسه وبسرعة البرق، سلّ الغريب سيفه.

صاحت السيدة بوناسيو، وهي تلقي بنفسها بين المقاتلَيْن ممسكة السيفين بكلتا يديها.

- أرجوك يا مولاي!

صاح دارتانيان مستنيرًا بفكرة مفاجئة:

- سيدي! يا مولاي! آسف يا سيدي، لكن هل أنتم...

قالت السيدة بوناسيو بصوت منخفض:

- مولاي دوق باكنغهام، والآن يمكنك أن تُهلكنا جميعًا.

- مولاي، سيدتي، عفوكما الشديد، ولكني أحببتها يا مولاي وشعرت بالغيرة، أنت تعلم ما هو الحب يا سيدي، اغفر لي، وأخبرني كيف يمكنني أن أقتل من أجل سموك.

قال باكنغهام وهو يمد يده إلى دارتانيان، الذي صافحه الأخير باحترام:

- أنت شـــــاب شجاع، تقدم لي خدماتك وأنا أقبلها، اتبعنا على بعد عشرين

خطوة، نحن متوجهان إلى اللوفر، وإذا اكتشفت أحدًا يتجسس علينا فاقتله!

وضع دارتانيان سيفه المسلول تحت ذراعه، وترك السيدة بوناسيو والدوق يتقدمان بعشرين خطوة إلى الأمام بينما سار هو خلفهما، على استعداد لتنفيذ تعليمات الوزير النبيل والأنيق لتشارلز الأول حرفيًّا.

لكن لحسن الحظ، لم تسنح للعميل الشاب أي فرصة لتقديم دليل إخلاصه للدوق، ودخلت الشابة والفارس الوسيم قصر اللوفر عبر باب السلم دون أدنى مضايقة.

أما دارتانيان، فقد ذهب على الفور إلى حانة لابوم دو بين، حيث وجد بورثوس وأراميس في انتظاره.

ولكن دون أن يقدم لهما أي تفسير إضافي للإزعاج الذي سببه لهما، أخبرهما أنه أنهى القضية بمفرده، والتي اعتقد لحظتها أنه كان بحاجة إلى مساعدتهما.

والآن، بعد أن حملتْنا أحداث روايتنا بعيدًا، فلندع أصدقاءنا الثلاثة يعودون إلى بيوتهم، ولنتعقب دوق باكنغهام ومرشدته بين منعطفات قصر اللوفر.

12

جورج فيليرز دوق باكنغهام

دخلت السيدة بوناسيو والدوق قصر اللوفر دون صعوبة، كان معروفًا أن السيدة بوناسيو من حاشية الملكة؛ ارتدى الدوق زي فرسان السيد دو تريفيل الذين كانوا في الخدمة كما قلنا في ذلك المساء، إلى جانب ذلك كان جيرمان في خدمة الملكة أيضًا، وإذا حدث أي شيء ستتهم السيدة بوناسيو بإحضار حبيبها إلى قصر اللوفر، هذا كل شيء، ستتحمل عواقب الجريمة كلها، ستفقد سمعتها هذا صحيح، ولكن أية قيمة لسمعة زوجة صغيرة لتاجر خردوات في هذا العالم.

بمجرد دخولهما البلاط تبع الدوق والشابة أسفل الحائط مسافة خمس وعشرين خطوة، وما إن عبرا هذه المساحة حتى دفعت السيدة بوناسيو بابًا خلفيًا صغيرًا مفتوحًا (يكون مفتوحًا أثناء النهار، ولكنه يغلق عادة في الليل) انفتح الباب فدخل كلاهما ووجدا نفسيهما في الظلام، لكن السيدة بوناسيو كانت تعرف الممرات والمنعطفات كلها في هذا الجزء من اللوفر المخصص للخدم والحشم، أغلقت الأبواب خلفها وأخذت الدوق من يدها، وتلمست بضع درجات وأمسكت بالدرابزين، ولمست خطوة بقدمها وبدأت في صعود السلم، أحصى الدوق طابقين ثم استدارت يمينًا، واتبعت ممرًا طويلًا، ونزلت طابقًا مرة أخرى، وخطط بضع خطوات أخرى، وأدخلت مفتاحًا في قفل، وفتحت بابًا وطلبت من الدوق الدخول إلى شقة مضاءة بمصباح ليلي فقط قائلة: «ابقَ هنا يا سيدي الدوق، سنعود» ثم خرجت من الباب نفسه بعدما أغلقته، وبذلك وجد الدوق نفسه سجينًا كليًّا.

ورغم عزلته إلا أنه يجب أن يقال إن دوق باكنغهام لم يشعر بالخوف لحظة، كانت الشجاعة والجرأة من أبرز مميزات شخصيته الساعية وراء المغامرة وحب

الرومانسية، لم تكن هذه هي المرة الأولى التي يخاطر فيها بحياته في مثل هذه المحاولات، لقد علم أن هذه الرسالة المزعومة من آن النمساوية التي جاء استجابة لها إلى باريس كانت فخًّا، وبدلًا من العودة إلى إنجلترا استثمر الفرصة المتاحة له، فأخبر الملكة أنه لن يغادر دون رؤيتها، لكن الملكة رفضت بلباقة في البداية، ثم خافت أخيرًا أن يقوم الدوق الغاضب ببعض الحماقات، فقررت بالفعل استقباله وتوسلت إليه أن يغادر على الفور، عندما اختطفت السيدة بوناسيو التي كانت مسؤولة عن اصطحاب الدوق وإحضاره إلى اللوفر في المساء نفسه لاتخاذها هذا القرار، منذ يومين ولا أحد يعرف ما حدث لها تمامًا، وبقي كل شيء معلقًا، لكن بمجرد أن صارت حرة، وما إن وصلت بلابورت استأنفت الأمور مجراها، وهي الآن أكملت المشروع المحفوف بالمخاطر الذي كان سينفذ لولا اعتقالها قبل ثلاثة أيام.

مكث باكنغهام بمفرده، فدنا من مرآة ولاحظ أن بدلة الفرسان كانت تناسبه بشكل رائع.

كان في الخامسة والثلاثين(31) حينها كان يعتبر بحق الرجل الأكثر وسامة، والفارس الأكثر أناقة في فرنسا وإنجلترا.

كان مُفضَّلًا من طرف ملكين(32)، ثريًّا بالملايين وقويًّا في مملكة يبلبلها بنزواته ويهدئها على هواه، عاش جورج فيلبي دوق باكنغهام واحدة من الحيوات الرائعة التي بقيت على مر القرون مصدر دهشة للأجيال القادمة.

كان واثقًا من نفسه أيضًا، مقتنعًا بسلطته، واثقًا من أن القوانين التي تحكم الرجال الآخرين لا يمكن أن تطبق عليه، فذهب مباشرة إلى الهدف الذي حدده لنفسه، على الرغم من أن هذا الهدف كان أشد سموًّا وفتنة لدرجة يمكن أن يكون التفكير فيه بالنسبة للآخرين جنونًا مطلقًا؛ لهذا تقرّب من النمساوية الجميلة والمزهوّة بنفسها فجعلها تحبه بعد محاولاته المتكررة لإبهارها.

وقف إذن جورج فيلبي أمام المرآة كما قلنا، وأعاد تمويجات شـــــعره الأشقر

الجميل التي خسرها بسبب وزن قبعته، وبرم شاربه مفعِمًا قلبه بالفرح والسعادة والفخر باقترابه من اللحظة التي اشتاق إليها فترة طويلة، فابتسم ابتسامة فخر وأمل.

في تلك اللحظة فُتح باب سري من الحائط المنجد بقماش موشّى ومطرز وانبثقت منه امرأة، رأى باكنغهام هذا الظهور المفاجئ في المرآة فصرخ، كانت الملكة!

كانت آن النمساوية التي تبلغ في ذلك الوقت ستة وعشرين أو سبعة وعشرين عامًا، وهذا يعني أنها كانت في ذروة جمالها الرائع كله.

كانت مشيتها مشية ملكة! كانت عيناها تومضان بلون الزمرد كانتا جميلتين تمامًا، وفي الآن نفسه مترعتين بالوداعة والعظمة.

كان فمها صغيرًا وقرمزيًّا، وعلى الرغم من أن شفتها السفلى تشبه شفاه أمراء النمسا، بارزة قليلًا فوق الأخرى، إلا أن ابتسامتها كانت في منتهى السخاء، لكنها تخفي ازدراء عميقًا.

وكانت نعومة بشرتها لا مثيل لها، وكانت يداها وذراعاها جميلتين بشكل مدهش، لذلك تغنّى بها شعراء ذلك الوقت كلهم، وأجمعوا أن جمالها لا يضاهى.

وأخيرًا شعرها الذي كان في شبابها أشقر ثم تحوّل إلى لون كستنائي تجعله مجعدًا قليلًا، وتثبته بمساحيق كثيرة، فينسدل حول وجهها بشكل مثير للإعجاب.

انبهر باكنغهام للحظة، لم يرَ آن النمساوية بهذا الجمال قط وسط الحفلات الراقصة والمناسبات وميدان الفروسية، وكما تجلت له في هذه اللحظة مرتدية فستانًا بسيطًا من الساتان الأبيض، وبصحبتها الدونا إستيفانيا الوصيفة الوحيدة من نسائها الإسبانيات التي لم تُطرد بسبب غيرة الملك واضطهاد ريشيليو.

خطت آن من النمسا خطوتين إلى الأمام، فاندفع باكنغهام جاثيًا أمام ركبتيها، وقبل أن تتمكن الملكة من إيقافه قبّل حاشية ردائها.

- أيها الدوق، أنت تعلم سلفًا أنني لست أنا من أرسل في طلبك.

صاح الدوق:

- عجبًا! نعم يا سيدتي، نعم جلالتك، أعلم أنني كنت أحمق، عندما اعتقدت أن الثلج سوف ينبض بالحياة، وأن الرخام ستدب فيه الحرارة، ولكن، ماذا تريدين؟ عندما نحب نصدق بسهولة الحب؛ وعلاوة على ذلك أنا لم أخسر كل شيء في هذه الرحلة لأنني تمكّنت من رؤيتك.

أجابت آن:

- نعم، لكنك تعرف لماذا طلبت أن أراك يا سيدي، أردت أن أراك لتشفق على نفسك، أردت أن أراك لأنك غير مقدر لمشكلاتي كلها، لقد أصررت أن تبقى في مدينة حيث تخاطر بحياتك وتجعلني أخاطر بشرفي، أراك لأخبرك أن كل شيء يُفرّق بيننا، أعماق البحر، عداوة الممالك، قدسية القسم! إنه تدنيس للمقدسات أن نقاتل ضد أشياء كثيرة، يا سيدي أراك أخيرًا لأخبرك أنه لا يجب أن نرى بعضنا مرة أخرى.

قال باكنغهام:

- تحدثي يا سيدتي، تكلمي يا ملكة، رقة صوتك تحجب قسوة كلامك، أنت تتحدثين عن تدنيس المقدسات! لكن تدنيس المقدسات هو انفصال القلوب التي خلقها الله لتكون لبعضها بعضًا.

صرخت الملكة:

- يا مولاي، لقد نسيت، أنا لم أخبرك قط بأنني أحبك.

- لكنك لم تخبريني قط أنك لا تحبينني، وفي الحقيقة إن قولك مثل هذه الكلمات سيكون بمثابة نكران الجميل من جلالتك، أخبريني أين ستجدين حبًّا نظير حبي، حبًّا لا يطفئه الزمن والغياب ولا اليأس، حبًّا يكتفي بتذكار بسيط، بنظرة ضائعة وكلمة فالتة؟

لقد مرت ثلاث سنوات سيدتي منذ رأيتك للمرة الأولى، وطيلة ثلاث سنوات أحببتك هكذا.

هل تريدينني أن أخبرك ماذا كنتِ ترتدين عندما رأيتك أول مرة؟ هل تريدين مني أن أشرح بالتفصيل زينتك كلها؟ هنا لا يزال بإمكاني رؤيتك: كنت جالسة على الطريقة الإسبانية؛ كنت ترتدين فستانًا من الساتان الأخضر مطرّزًا بالذهبي والفضي بكمين متدليين ومعقودين على ذراعيك الجميلتين، وفوقهما ألماس كبير؛ كان وجهك مُكدّرًا، وعلى رأسك قلنسوة صغيرة من لون لباسك مزينة بريشة مالك الحزين.

حسنًا! انظري، انظري، يمكنني أن أغمض عيني، وأراكِ كما كنت حينها، وأعيد فتحهما وأراك كما أنت الآن، وهذا يعني أنكِ أكثر جمالًا مئات المرات!

همست آن النمساوية، لم تجد الشجاعة للاستياء من الدوق لأنه احتفظ بصورتها جيدًا في قلبه.

- ما هذا الجنون! يا لها من حماقة أن تغذي هذه الذكريات بشغف عديم الفائدة!

- وبماذا تريدينني أن أحيا؟ لا أملك سوى هذه الذكريات، إنها سعادتي وثروتي وأملي، في كل مناسبة أراك فيها أضم ماسة أخرى إلى قلبي، منذ ثلاث سنوات يا سيدتي لم أركِ سوى أربع مرات، كان آخرها في حدائق أميان.

قالت الملكة متوردة الوجه:

- أيها الدوق، لا تتحدث عن تلك الأمسية.

- أوه! دعينا نتحدث عنها، على العكس يا سيدتي فلنتحدث عنها؛ إنها الأمسية الأكثر سعادة وإشراقًا في حياتي، هل تذكرين كم كانت تلك الأمسية جميلة؟ كم كان الهواء عطرًا وعذبًا ورائعًا، كم كانت السماء زرقاء ومرصعة بالنجوم! آه! هذه المرة يا سيدتي تمكّنت للحظة من أن أكون بمفردي معكِ؛ هذه المرة كنت

مستعدة لتخبريني بأي شيء، عزلة حياتك، أحزان قلبك! كنت مستندة إلى ذراعي هذه، شعرت وأنا أميل برأسي على كتفك أن شعرك الجميل يداعب وجهي، وعند كل ملامسة خفيفة كنت أرتعش من قمة الرأس إلى أخمص القدمين، آه! يا ملكتي يا ملكتي! حسنًا، أنت لا تعرفين ما في هذه اللحظات المماثلة من نعيم السماء، وأفراح الفردوس المحبوسة، خذي ممتلكاتي وثروتي ومجدي، ما تبقى لي من أيام في حياتي مقابل مثل هذه اللحظة ومثل هذه الليلة! في تلك الليلة يا سيدتي، في تلك الليلة أحببتني، أقسم بذلك.

- سيدي، نعم من الممكن أن تأثير المكان وجمال هذه الأمسية الجميلة، وسحر نظراتك، قد تتضافر الآلاف من الظروف في بعض الأحيان لتفقد امرأة بوصلتها في تلك الأمسية المحتومة لكنك رأيت ذلك يا سيدي، فقد جاءت الملكة لنجدة المرأة الضعيفة: عند أول كلمة تجرأت على قولها، عند الجسارة الأولى استجبت.

- أوه! نعم، نعم، هذا صحيح، وكان من الممكن أن يخضع أي حب آخر غير حبي لهذا الاختبار؛ لكن حبي بالنسبة لي نبع أكثر حماسة وأبدية! كنت تعتقدين أنك تهربين مني عندما عدت إلى باريس، كنت تعتقدين أنني لن أجرؤ على ترك الكنز الذي كلفني سيدي بحمايته. آه! لا تهمني كنوز العالم كلها وملوك الأرض جميعهم! بعد ثمانية أيام عدت يا سيدتي. هذه المرة لن تجدي ما تقولينه؛ لقد جازفت بمكانتي وبحياتي لرؤيتك ثانية واحدة، حتى إنني لم ألمس يدك وقد سامحتني عندما رأيت استسلامي وندمي الشديدين.

- نعم، لكن الافتراء استحوذ على هذه الحماقات التي لا شأن لي بها كلها، كما تعلم يا سيدي، إن الملك اشتد غضبه بما يفتريه السيد الكاردينال، فانفجر انفجارًا رهيبًا؛ طرد السيدة دو فيرنيه، ونفى بوتانغ، وتحط على السيدة دو شيفروز، وعندما أردت العودة سفيرًا إلى فرنسا، تذكر أن الملك نفسه يا سيدي، الملك نفسه عارض ذلك.

- نعم، وستدفع فرنسا الثمن حربًا لرفض ملكها، لم يعد بإمكاني رؤيتك يـــا

سيدتي. حسنًا أريدك أن تسمعي أخباري كل يوم.

ما الهدف في نظرك من هذه الرحلة الاستكشافية لي، وهذه الرابطة مع بروتستانت لاروشيل التي أخطط لها؟ إنها من أجل مسرة أن أراك!

وأضاف:

- لا أمل لي في اجتياح باريس بقوة السلاح، أعلم ذلك. لكن هذه الحرب ستكون قادرة على تحقيق السلام، وهذا السلام يتطلب مفاوضًا، وسأكون أنا هذا المفاوض، لن يجرؤ أحد على رفضي بعد ذلك، وسأعود إلى باريس، وسأراك مرة أخرى، وسأكون سعيدًا لحظة، صحيح أن آلاف الرجال قد دفعوا حياتهم ثمن سعادتي، ولكن ما يهمني أن أراك مرة أخرى! ربما يكون هذا كله منتهى الجنون، وربما بلا معنى، ولكن قولي لي، من هي المرأة التي لديها حب أكثر عشقًا؟ أي ملكة تملك خادمًا أكثر حماسة؟

- سيدي، سيدي، تستدعي في دفاعك أشياء تحمل في طياتها صك اتهامك؛ سيدي، أدلة الحب التي تعرضها أمامي تكاد تكون بمثابة جرائم.

- لأنك لا تحبينني يا سيدتي: لو كنت تحبينني فسترين هذا كله بشكل مختلف، لو كنت تحبينني، أوه! ولكن لو كنت تحبينني فسيكون ذلك سعادة هائلة وسأصبح مجنونًا، آه! السيدة دو شيفروز التي تحدثت عنها سابقًا، السيدة دو شيفروز كانت أقل قسوة منك، أحبها كونت هولاند فاستجابت لحبه.

همست آن النمساوية وقد غلبتها مشاعر هذا الحب العميق.

- السيدة دو شيفروز ليست ملكة.

- ستحبينني لو لم تكوني كذلك، قولي يا سيدتي، هل تحبينني؟ سأستطيع أن أصدق أن كرامة مكانتك وحدها هي التي تجعلك قاسية معي؛ لذلك أستطيع أن أصدق أنك لو كنت السيدة دو شيفروز، فربما صار باكنغهام المسكين مفعمًا بالأمل؟ أشكرك على هذه الكلمات العذبة يا ملكتي الجميل، أشكُرك كثيرًا.

- آه! سيدي، لقد أسأت الفهم، أسأت التفسير، لم أقصِد...

قال الدوق:

- سكوت! سكوت! إذا كنت سعيدًا نتيجة خطأ ما فلا تكوني قاسية لسلبها مني، لقد قلتها بنفسك، لقد استدرجت إلى الفخ، وربما سألقى حتفي لأن هذا غريب، منذ فترة ساورني شعور بأنني سأموت، وابتسم الدوق ابتسامة حزينة لكنها ساحرة.

صرخت آن النمساوية بنبرة خوف رهيب:

- آه، يا إلهي!

- أنا لم أخبرك لكي أخيفك يا سيدتي، بل ما قلته مجرد سخافة، وأعتقد أنني لست معنيًّا بمثل هذه الأحلام الكابوسية، لكن هذه الكلمة التي قلتها للتو، هذا الأمل الذي كدت أن تمنحيني إياه، يمكن أن أدفَع مقابله كل شيء، حتى حياتي.

قالت آن النمساوية:

- حسنًا! وأنا أيضًا يا دوق لديّ حدوسي، ولدي أيضًا أحلامي، لقد تخيلتك ملقى جريحًا غارقًا في دمائك.

قاطع باكنغهام:

- على الجانب الأيسر مطعونًا بسكين، أليس كذلك؟

- نعم، هو كذلك يا سيدي، هو كذلك، على الجانب الأيسر بسكين! من يستطيع أن يخبرك أنني حلمت بهذا الحلم؟ لقد عهدت به إلى الإله وحده، في صلواتي أيضًا.

- أنا لا أريد المزيد، أنت تحبينني يا سيدتي، هذا جيد.

- هل أحبك أنا؟

- نعم أنت. هل سيرسل لك الإله الأحلام نفسها لو لم تكوني تحبينني؟ هل سيكون نذيرنا نفسه لو لم يكن وجودنا يجمعه قلب واحد وحب واحد؟ أنت تحبينني أيتها الملكة وتخافين على حياتي؟

صرخت آن النمساوية:

- أوه! يا إلهي يا إلهي! إنه أكثر مما يمكنني تحمله يا دوق، أرجوك اذهب، غادر؛ لا أدري إن كنت أحبك أو لا أحبك؛ لكن ما أعرفه هو أنني لن أكون خائنة. لذا ارحمني واذهب، أوه! إذا أصبت في فرنسا، إذا مت في فرنسا، إذا كنت أستطيع أن أفترض أن حبك سيكون سبب موتك، فلن أعزي نفسي أبدًا وسأصاب بالجنون. اذهب، اذهب، اذهب، انطلق، أتوسل إليك.

قال باكنغهام:

- أوه ما أجملك! أوه كيف لا أحبك!

- اذهب! اذهب! أتوسل إليك، وعُد لاحقًا سفيرًا لمملكتك، عُد وزيرًا، عد محاطًا بالحراس الذين سيدافعون عنك، بالخدم الذين سيحمونك، وبعد ذلك لن أخاف على حياتك، وسأكون سعيدة برؤيتك مرة أخرى.

- أوه! هل صحيح حقًّا ما تقولينه لي؟

- نعم.

- حسنًا! أعطني عربون لينك، شيئًا منك يذكرني بأنني لم أكن أحلم، شيئًا ارتديته ويمكنني أن أرتديه بدوري، خاتمًا، عقدًا، سلسلة.

- وهل ستذهب؟ هل ستذهب إذا أعطيتك ما تطلبه مني؟

- نعم.

- على الفور؟

- نعم.

- وهل ستغادر فرنسا وتعود إلى إنجلترا؟

- نعم أقسم بذلك!

- انتظِر إذن، انتظِر.

ودخلت آن النمساوية شقتها وغادرتها على الفور، وهي تحمل في يدها صندوقًا صغيرًا من خشب الورد مطعمًا بالذهب.

وقالت:

- خذ يا سيدي الدوق خذ، احتفظ به تذكارًا مني.

أخذ باكنغهام الصندوق وسقط على ركبتيه للمرة الثانية.

فقالت الملكة:

- لقد وعدت بالمغادرة.

- وأنا أفي بوعدي، يدك، يدك يا سيدتي وسأرحل.

مدت آن النمساوية يدها، وأغمضت عينيها واتكأت بالأخرى على إستيفانيا لأنها شعرت أن قوتها تتخلى عنها.

بشغف ضغط باكنغهام شفتيه على تلك اليد الجميلة، ثم نهض على قدميه وقال:

- بعد ستة أشهر، إذا لم أكن ميِّتًا فسوف أراك مرة أخرى يا سيدتي، حتى لو اضطررت إلى قلب العالم من أجل ذلك.

واحترامًا لوعده هرع خارجًا من الشقة.

التقى في الممر بالسيدة بوناسيو التي كانت تنتظره، فاصطحبته بالاحتياطات نفسها والسعادة ذاتها إلى خارج قصر اللوفر.

13

السيد بوناسيو(33)

في خضم ما جرى - كما لاحظنا- كانت هناك شخصية لم ننشغل بها إلا قليلًا، على الرغم من موقفه غير المستقر، هذه الشخصية هي السيد بوناسيو، الشهيد المحترم للمؤامرات السياسية والغرامية التي تشابكت جيدًا مع بعضها بعضًا في هذا العصر الفروسي والشهم على حد سواء.

لحسن الحظ -يتذكره القارئ أو لا يتذكره- لقد وعدنا ألا نغفل عنه، كان الحراس الذين ألقوا القبض عليه قد اقتادوه مباشرة إلى الباستيل حيث أجبر على المرور مرتجفًا أمام فصيل من الجنود وهم يحملون بنادقهم.

من هناك أدخل إلى رواق سفلي، وقد تعرض من طرف أولئك الذين أحضروه لأقصى أنواع الإهانة والمعاملة.

بعد حوالي نصف ساعة جاء محضر ليضع حدًّا لتعذيبه، ولكن ليس لمخاوفه، فأعطى الأمر لنقل السيد بوناسيو إلى غرفة الاستجواب، عادة ما يُستجوب السجناء في منازلهم، لكن مع السيد بوناسيو فالأمر سيان.

انقض اثنان من الحراس على تاجر الخردوات، وأجبراه على عبور فناء، وأدخلاه إلى ممر كان فيه ثلاثة حراس، وفتحوا بابًا ودفعوه إلى غرفة سفلية حيث كان ثمة أثاث لا يتألف سوى من طاولة وكرسي ومُفوَّض، كان المُفوَّض جالسًا على الكرسي منهمكًا في الكتابة على الطاولة.

قاد الحارسان السجين إلى الطاولة وابتعدا بناء على إشارة من المُفوّض.

رفع المُفوّض الذي كان حتى ذلك الحين منشغلًا بأوراقه رأسه ليرى من يتعامل معه، كان هذا المُفوض رجلًا مملًا له أنف مدبب، وعظام وجنتين صفراء بارزة،

وعينان صغيرتان لكنهما فضوليتان وحيويتان، ملامحه تشبه سمات ابن عرس والثعلب، اشرأبَّ برأسه المدعوم برقبة طويلة متحركة، فأخرجها من طوق المعطف الأسود الضخم، وأرجحه بحركة تشبه إلى حد كبير حركة السلحفاة وهي تسحب رأسها من قوقعتها.

بدأ بسؤال السيد بوناسيو عن اسمه الأول والأخير وعمره وحالته ومحل إقامته.

رد المتهم بأن اسمه جاك ميشيل بوناسيو، وأنه يبلغ من العمر 51 عامًا، وهو تاجر خردوات متقاعد، وأنه يعيش في شارع فوسويور، رقم 112.

بعد ذلك ألقى عليه المُفوّض بدلًا من الاستمرار في الاستجوابه خطابًا عظيمًا عن الخطر الذي يواجهه برجوازي غامض عندما يقوم بالتدخل في الشؤون العامة.

لقد عقد هذا الاستهلال بعرض روى فيه قوة وأعمال الكاردينال، ذلك الوزير الذي لا يُضاهى، وهذا المنتصر للوزراء السابقين، والمثال للوزراء القادمين، صاحب الأفعال والسلطة التي كل من حاول أن يحبطها نال عقابه.

بعد هذا الجزء الثاني من خطابه، ركّز نظرته الصقرية على بوناسيو المسكين، ودعاه للتفكير في خطورة وضعه.

كان جوهر شخصية السيد بوناسيو مزيجًا من أنانية عميقة، وبخل دنيء، وكلاهما متبل باللؤم الشديد! وكان الحب الذي ألهمته إياه زوجته الشابّة مجرد شعور ثانوي، لا يمكن أن ينافس المشاعر البدائية التي جئنا على ذكرها آنفًا.

في الواقع، فكر بوناسيو حول ما قيل له فقال بخجل:

- لكن سيدي المُفوّض أعتقد أنني أعرف وأقدر أكثر من أي شخص آخر فضيلة السيادة التي لا تضاهى، والتي نتشرف بأن تحكمنا.

سأل المُفوّض بريبة:

- حقًّا؟ ولكن إذا كان الأمر كذلك حقًّا فلماذا أنت موجود في الباستيل؟

أجاب بوناسيو:

- كيف وصلت هنا؟ أو بالأحرى لماذا أنا هنا، بالنسبة لي هذا ما يستحيل تمامًا أن أخبرك به، لأنني أنا بنفسي لا أعرف، ولكن من المؤكد أن هذا ليس بسبب إساءة مقصودة إلى الكاردينال.

- ومع ذلك، لا بد أنك ارتكبت جريمة؛ لأنك هنا متهم بالخيانة العظمى.

صرخ بوناسيو خائفًا:

- الخيانة العظمى! الخيانة العظمى! وكيف تتوقع أن يُتهم خائن مسكين يكره الموغينو، ويكره الإسبان بالخيانة العظمى؟ فكّر في الأمر يا سيدي، الشيء ماديًّا مستحيل.

قال المُفوّض وهو ينظر إلى المتهم كما لو أن له كفاءة النفاذ بعينيه الصغيرتين إلى أعماق القلوب:

- السيد بوناسيو، السيد بوناسيو، هل لديك زوجة؟

أجاب تاجر الخرداوات مرتجفًا ومستشعرًا أن هذا هو المكان الذي ستختلط فيه الأمور:

- نعم يا سيدي، أقصد كان لدي واحدة.

- كيف؟ كانت لديك واحدة! ماذا فعلت بها إذا لم تعد لك؟

- اختطفوها مني يا سيدي.

قال المُفوّض:

- هل اختطفوها منك؟ حقًّا!

شعر بوناسيو في هذه «حقًّا» ما سيزيد من ارتباك القضية أكثر فأكثر.

- اختطفوها منك! قال المُفوّض، وهل تعرف من الرجل الذي نَفَّذ عملية الاختطاف؟

- أعتقد أنني أعرفه.

- من هو؟

- ضع في اعتبارك أنني لا أؤكد أي شيء، أيها المُفوّض، وأنني أنقل إليك شكوكي فقط.

- بمن تشك؟ قل، أجب بصراحة.

كان السيد بوناسيو في حيرة كبيرة من أمره؛ هل ينكر كل شيء أم يقول كل شيء؟ إذا أنكر كل شيء، قد يعتقد أنه يعرف الكثير ويجب أن يعترف به، وإذا قال كل شيء، فإنه سيظهر حسن النية، لذلك قرر أن يقول كل شيء.

فقال:

- أظن أنه رجل طويل، ذو شعر أسود، يشبه إلى حد كبير سيدًا عظيمًا، لقد تعقبنا عدة مرات كما تهيأ لي، عندما كنت أنتظر زوجتي أمام شباك الحراسة في اللوفر لإحضارها إلى المنزل.

بدت على المُفوّض علامات القلق وقال:

- وما اسمه؟

- حسنًا! فيما يتعلق باسمه فأنا لا أعرف، لكن إذا قابلته فسأتعرّف إليه على الفور حتى وإن كان من بين ألف شخص.

تجهم المُفوّض واستطرد قائلًا:

- هل ستتعرف إليه من بين ألف؟

أجاب بوناسيو وقد لاحظ أنه قد سلك الطريق الخطأ:

- أعني، أي أقصد...

قال المُفوّض:

- أجبت بأنك ستتعرَّف إليه، هذا جيد، هذا يكفي لهذا اليوم قبل أن نذهب إلى أبعد من ذلك، يجب إخبار شخص ما أنك تعرف خاطف زوجتك.

صرخ بوناسيو في يأس:

- لكنني لم أخبرك أنني أعرفه، قلت لك على العكس...

قال المُفوّض للحارسين:

- خذا السجين.

- وأين نأخذه؟ سأل المحضر.

- إلى زنزانة.

- أي زنزانة؟

رد المُفوّض بلا مبالاة بثت الرعب في قلب بوناسيو المسكين:

- أوه! يا إلهي، كيفما اتفق طالما أنها ستغلق جيدًا.

قال في نفسه:

- واحسرتاه واحسرتاه! ما هذا الشقاء الذي ينزل على رأسي؟ لا بد أن زوجتي قد ارتكبت جريمة مروعة، ويُعتقد أنني متواطئ معها، ولذلك سأعاقب معها، ستكون قد تحدثت عن ذلك وستعترف بأنها أخبرتني بكل شيء، يا لها من امرأة ضعيفة! زنزانة لأول وافد! هذا ما سيحصل! سرعان ما تمضي الليلة، وغدا رأسًا إلى المشنقة! آه يا إلهي! يا إلهي ارحمني!

أخذ الحارسان السجين من ذراعيه دون الاهتمام برثائه لنفسه؛ لأنهم تعودوا

سماع هذا النوع من الشكاوى واقتادوه بعيدًا، بينما انشغل المُفوّض بكتابة رسالة على عَجَل للمحضر الذي ينتظرها.

لم يَنَم بوناسيو، ليس لأنه تضايق من زنزانته ولكن لأن مخاوفه كانت كبيرة جدًا، بقي جالسًا على كرسيه طوال الليل يرتجف من أدنى ضوضاء، وعندما تسللت أشعة النهار الأولى إلى غرفته تهيأ له أن الفجر قد اكتسى لونًا جنائزيًّا.

فجأة سمع صوت سحب الأقفال، فهبَّ مرتجفًا رجفة رهيبة، كان يعتقد أنهم سيأتون ليأخذوه إلى السقالة؛ لذلك عندما رأى بوضوح وببساطة مُفوّض ومحضر اليوم السابق بدلًا من الجلاد كاد يُطوِّق عنقيهما فرحًا.

قال المُفوّض:

- لقد أصبحت قضيتك في غاية التعقيد منذ الليلة الماضية، أنصحك بقول الحقيقة كاملة، لأن توبتك وحدها يمكن أن تصد عنك غضب الكاردينال.

صرخ بوناسيو:

- لكنني على استعداد لقول أي شيء، على الأقل كل ما أعرفه، اسأل من فضلك.

- أين زوجتك أولًا؟

- ولكنني أخبرتك أنها اختطفت مني.

- نعم، ولكن منذ الساعة الخامسة بعد ظهر أمس وبفضلك هربت.

صرخ بوناسيو:

- هربت زوجتي! عجبًا! البئيسة! سيدي إذا هربت فهذا ليس خطأي، أقسم على ذلك.

- إذن ماذا كنت تفعل عند جارك السيد دارتانيان؟ لماذا اجتمعت به طويلًا خلال النهار؟

- آه! نعم أيها المُفوّض، نعم، هذا صحيح وأعترف أنني كنت مخطئًا، حين ذهبت لرؤية السيد دارتانيان.

- ما الغرض من هذه الزيارة؟

- أطلب منه مساعدتي في العثور على زوجتي، ظننت أنه يحق لي المطالبة بها، لقد كنت مُخطئًا على ما يبدو، وأستميحك عذرًا.

- وبماذا رد دارتانيان؟

- وعدني السيد دارتانيان بمساعدتي لكن سرعان ما أدركت أنه كان يخونني.

- أنت تعترض على العدالة! لقد أبرم معك السيد دارتانيان اتفاقًا، وبموجب هذا الاتفاق طرد ضباط الشرطة الذين اعتقلوا زوجتك، وأبعدها عن عمليات التفتيش كلها.

- هل خطف السيد دارتانيان زوجتي! آه، لكن ماذا تقول لي؟

- لحسن الحظ أن السيد دارتانيان بين أيدينا وسوف نواجهه.

- آه! صرخ بوناسيو يا إلهي، لا أطلب شيئًا أفضل، لن أكون آسفًا لرؤية شخص أعرفه.

قال المُفوّض للحارسين:

- أحضروا السيد دارتانيان.

وأدخل الحارسان آثوس.

قال المُفوّض مخاطبًا آثوس:

- السيد دارتانيان قل ما حدث بينك وبين السيد.

صرخ بوناسيو:

ة لكن! هذا ليس السيد دارتانيان!

صاح المُفوّض:

- كيف! أليس هو السيد دارتانيان؟

أجاب بوناسيو:

- قطعًا ليس هو.

سأل المُفوّض:

- ما اسم السيد؟

- لا أستطيع أن أخبرك، أنا لا أعرفه.

- كيف! لا تعرفه؟

- لا.

- أنت لم تره قط؟

- ربما، لكنني لا أعرف اسمه.

سأل المُفوّض:

- اسمك؟

أجاب الفارس:

- آثوس.

صرخ المُفوّض المسكين الذي بدأ يفقد صوابه:

- لكن هذا ليس اسم رجل، هذا اسم جبل!

قال آثوس بهدوء:

- هذا اسمي.

- لكنك قلت إن اسمك دارتانيان.

- أنا؟

- نعم أنت.

- في الواقع هم من قالوا لي: هل أنت السيد دَرتانيان؟ قلت: هل تعتقد ذلك؟ صرخ الحراس أنهم متأكدون، فلم أشأ إزعاجهم، إلى جانب ذلك قد أكون مخطئًا.

- سيدي، أنت تهين جلال العدالة.

قال آثوس بهدوء:

- لا، إطلاقًا.

- أنت السيد دارتانيان.

- يمكنك أن ترى أنك ما زلت تناديني بالاسم نفسه.

صرخ السيد بوناسيو بدوره:

- ولكن أقول لك سيدي المُفوّض إنه لا يوجد أدنى شك، هذا ليس السيد دارتانيان المقيم في شقتي، وبالتالي على الرغم من أنه لا يدفع لي الإيجار؛ وبسبب ذلك تحديدًا لا بد أن أتعرَّف إليه. السيد دَرتانيان هو شاب يبلغ حوالي تسعة عشر أو عشرين عامًا، والسيد لا يقل عن ثلاثين عامًا، السيد دارتانيان يعمل ضمن حرس السيد ديسار، والسيد من فرسان السيد دو تريفيل: انظر إلى زيه الرسمي أيها السيد المُفوّض، انظر إلى زيه الرسمي.

همس المُفوّض:

- هذا صحيح، بالتأكيد صحيح.

في هذه اللحظة انفتح الباب بحدة وقام أحد حراس الباستيل بتسليم رسالة إلى المُفوّض.

هتف المُفوض:

- أوه! الشقية!

- كيف؟ ماذا تقول؟ عمَّن تتحدث؟ آمل ألا تكون زوجتي!

- على العكس، إنها هي، قضيتك جيدة.

صرخ تاجر الخردوات ساخطًا:

- سحقًا! من فضلك قل لي سيدي كيف يمكن أن تزداد قضيتي سوءًا مما تفعله زوجتي بينما أوجد في السجن!

- لأن ما تفعله نتيجة خطة متفق عليها بينكما، وهي خططة جهنمية!

- أقسم لك أيها المُفوّض، إنك مخطئ تمامًا، وإنني لا أعرف شيئًا مما يجب أن تفعله زوجتي، وأنني بعيد كل البعد عما فعلته، وإنها إذا فعلت أشياء غبية فأنا أنكرها وألعنها.

قال آثوس للمُفوّض:

- حسنًا! إذا لم تعد بحاجة لي هنا فأرسلني إلى مكان ما، لأن سيدك بوناسيو في منتهى الملل.

قال المُفوّض مشيرًا إلى آثوس وبوناسيو بالإيماءة نفسها:

- أعد السجينين إلى زنزانتيهما، واحرص على أن يحتجزا بصرامة أكبر من أي وقت مضى.

قال آثوس بهدوئه المعتاد:

- مع ذلك، إذا كانت قضيتك مع السيد دارتانيان فأنا لا أرى حقًّا فيما ستحتاجني.

صرخ المُفوّض:

- افعلوا ما قلته! وأشدد على السرية المطلقة! هل تسمعون؟

تبع آثوس حراسه وهو يهز كتفيه، وناح السيد بوناسيو نواحًا يمزق قلب نمر. أُعيد تاجر الخردوات إلى الزنزانة نفسها التي أمضى فيها الليلة المنصرمة، وبكى بوناسيو طوال اليوم مثل تاجر خردوات حقيقي، ينقصه جلد الفرسان وقوتهم، كما أخبرنا بنفسه.

في المساء، حوالي الساعة التاسعة بينما كان على وشك أن يتخذ قرارًا بالذهاب إلى الفراش، سمع وقع خطوات في رواقه، اقتربت هذه الخطوات من زنزانته، وفتح بابها، وظهور الحراس.

جاء ضابط شرطة بعد الحراس وقال:

- اتبعني.

صرخ بوناسيو:

- أتبعك! أتبعك في هذه الساعة! وإلى أين يا إلهي؟

- حيث أُمرنا بأخذك.

- لكن هذا ليس جوابًا.

- ومع ذلك، هذا هو الجواب الوحيد الذي يمكننا قوله لك.

وغمغم تاجر الخردوات المسكين:

- آه! إلهي يا إلهي، هذه المرة ضعت!

وتبع الحراس الذين جاؤوا لإحضاره تلقائيًّا ودون مقاومة.

عبروا الرواق نفسه الذي سلكه سلفًا، وعبر الفناء الأول ثم المبنى الرئيس الثاني، وأخيرًا عند بوابة الفناء الأمامي وجد عربة محاطة بأربعة حراس من الخيالة، وضعوه في هذه العربة وجلس ضابط الشرطة بجانبه، وأحكم إغلاق الباب جيدًا، فوجد الاثنان نفسيهما داخل سجن متنقل.

بدأت العربة تتحرك ببطء مثل عربة جنازة، ومن خلال البوابة المغلقة كان السجين يرى البيوت والرصيف، هذا كل شيء، ولكن بالنسبة لباريسي حقيقي مثله فقد تعرّف بوناسيو إلى كل شارع من خلال العلامات واللافتات وأعمدة الإنارة. عندما وصل إلى سان بول المكان الذي يعدم فيه سجناء الباستيل، فقد وعيه تقريبًا وانهار مرتين، كان يعتقد أن العربة ستتوقف عند هذا الحد، لكن العربة تجاوزت المكان.

وعندما صار أبعد، استولى عليه رعب شديد مرة أخرى، فقد مرت العربة بجانب مقبرة سان جان(34) حيث يدفن مجرمو الدولة، لكن شيئًا واحدًا فقط طمأنه قليلًا، إذ قبل دفنهم عادة ما تقطع رؤوسهم، بيد أن رأسه لا يزال بين كتفيه، ولكن عندما رأى أن العربة كانت تسير في طريقها إلى لاغريف، ولمح الأسطح الحادة لقصر دوفيل، وشعر بأن العربة تدمج تحت الأقواس اعتقد أن كل شيء قد انتهى بالنسبة له، فعزم على الاعتراف إلى ضابط الشرطة وعند رفض هذا الأخير، أطلق عويلًا حادًّا لدرجة أن الضابط هدده إذا ما استمر في الصراخ بهذه الطريقة فإنه سيضطر إلى تكميمه.

طمأن هذا التهديد بوناسيو إلى حد ما: إذا كان عليهم إعدامه في لاغريف فلا فائدة من إسكاته؛ لأنهم وصلوا تقريبًا إلى مكان الإعدام، وبالفعل اجتازت العربة المكان المشؤوم دون توقف، لم يعد شيء أمامه ليخافه الآن سوى لا كروا دو تراهوار(35) الذي شقت العربة الطريق في اتجاهه.

هذه المرة لم يعد هناك أي شك في لا كروا دو تراهوار سبق أن أُعدم المجرمون

المتآمرون، اعتقد بوناسيو أنه يستحق سان بول أو ساحة دو غريف، لكنه في كروا دو تراهوار ستنتهي رحلته ومصيره! لا يستطيع حيث هو رؤية هذا الصليب المؤسف، لكنه شعر بطريقة ما أنه سائر لمقابلته، عندما بات على بعد حوالي عشرين خطوة فقط سمع ضوضاء وتوقفت العربة، لقد كان فوق ما يمكن أن يتحمله بوناسيو المسكين الذي سحق سلفًا بالمشاعر المتتالية التي خاضها، فأطلق أنينًا خافتًا شبيهًا بحشرجة رجل يحتضر، وأغمي عليه.

14

رجل مونغ

لم يكن هذا التجمهر ناتجًا عن توقع إعدام رجل، ولكن من أجل مشاهدة رجل مشنوق.

توقفت العربة للحظة، ثم استأنفت السير، وعبرت الحشد، وواصلت طريقها، ودخلت شارع سان هونوري، وانعطفت إلى شارع دو بون أونفون وتوقفت أمام باب منخفض.

فُتِح الباب، وتلقاه حارسا بوناسيو بين ذراعيهم، ساعدهم الضابط، ودفعوه إلى زقاق، وجعلوه يصعد سلمًا، ثم وضعوه في غرفة انتظار.

حدثت هذه الحركات كلها بطريقة آلية.

كان يمشي كما يسير المسرنم، فكان يرى الأشياء مغبشة، ويسمع أصواتًا دون أن يفهمها، وكان من الممكن أن يُعدم في تلك اللحظة لو حاول الدفاع عن نفسه، والصراخ والتوسل.

لذلك بقي جامدًا على المقعد حيث وضعه الحراس، مستندًا إلى الحائط وذراعاه متدليتان.

ولكنه عندما نظر حوله، لم يرَ شيئًا يهدده، إذ لم يكن ثمة ما يشير إلى أنه في خطر حقيقي، كان المقعد مبطنًا بشكل مناسب، وكان الجدار مغطى بجلد كوردوفان الفاخر، وكانت هناك ستائر حمراء كبيرة تطفو أمام النافذة، مثبتة برباطات ذهبية، أدرك تدريجيًّا أن خوفه مبالغ فيه، وبدأ تحريك رأسه إلى اليمين واليسار ومن الأسفل إلى الأعلى.

عقب هذه الحركة التي لم يعارضها أحد، استعاد القليل من الشجاعة وغامر بإرجاع إحدى رجليه، ثم تلاها بالأخرى، وأخيرًا استخدم كلتا يديه، واستند إلى كرسيه ووقف على قدميه.

في ذلك الوقت، فتح ضابط أنيق الباب، واستمر في تبادل بضع كلمات أخرى مع شخص يوجد في الغرفة المجاورة، ثم التفت إلى السجين وقال:

- هل تُدعى بوناسيو؟

رد تاجر الخردوات متلعثمًا وشبه ميت:

- نعم سيدي الضابط.

- ادخل. قال الضابط.

وتنحى جانبًا حتى يتمكّن تاجر الخردوات من المرور، فأطاع هذا الأخير دون رد، ودخل الغرفة حيث بدا أن أحدًا كان في انتظاره.

كانت عبارة عن مكتب كبير، ذي جدران مزيّنة بأسلحة هجومية ودفاعية عديدة، بعضها مجهز بالنيران، وجاهز للاستعمال، وفي منتصف الحجرة، كانت هناك طاولة مربعة، مغطاة بالكتب والأوراق، وُضعت فوقها خريطة كبيرة لمدينة لاروشيل.

كان يقف أمام المدفأة رجل متوسط القامة، منتصب المظهر فخور بنفسه، ذو عينين ثاقبتين، وجبهة عريضة، ووجه نحيل طويل يتسيده شارب بارز، وكان الرجل بالكاد يبلغ من العمر ستة وثلاثين إلى سبعة وثلاثين عامًا، إلا أن شعره وشاربه يميلان إلى اللون الرمادي، يبدو هذا الرجل من دون سيفه رجلًا محاربًا، ينتعل حذاء من جلد الجاموس ما زال معفرًا بقليل من الغبار، مما يدل على أنه كان يمتطي حصانه في أثناء النهار.

كان هذا الرجل هو أرمانَد جان دوبليسيس، كاردينال دو ريشيليو، ليس كما صُوِّر لنا، مكسورًا مثل رجل عجوز، ويتألم مثل شهيد، فالجسد مكسور، والصوت

مطفأ، ومدفون داخل مقعد وثير كبير كما لو كان مدفونًا قبل الأوان في قبر، لا يحيا إلا بقوة عبقريته، ولم يعد يحافظ على الصراع مع أوروبا إلا بالممارسة الأبدية لذهنه، ولكن كما كان حقًّا في ذلك الوقت، بمعنى أنه كان فارسًا ماهرًا وشهمًا، هزيل الجسم فعلًا، ولكنه مدعوم بتلك القوة الأخلاقية التي جعلته أحد أكثر الرجال غير العاديين الموجودين؛ كان يستعد أخيرًا، بعد أن دعم دوق نيفير على حكم دوقية مانتوا، وبعد أن أخذ نيم وكاستر وأوزيس، لطرد الإنجليز من إيل دو ري وفرض الحصار على لاروشيل(36).

من النظرة الأولى، لا شيء إذن يدل على أنه الكاردينال، وكان من المستحيل على أولئك الذين لم يروا وجهه قط أن يخمنوا أمام أي شخص يقفون.

ظل تاجر الخردوات المسكين واقفًا عند الباب، بينما كانت عينا الشخصية التي وصفناها للتو مثبتتين عليه، ويبدو أنهما تريدان اختراق أعماق ماضيه.

سأل بعد لحظة صمت:

- هل هذا بوناسيو؟

قال الضابط:

- نعم يا سيدي.

- لا بأس، أعطني هذه الأوراق واتركنا.

أخذ الضابط الأوراق المعينة من فوق الطاولة، وسلمها لمن طلبها، وانحنى، ثم انصرف.

تعرف بوناسيو في هذه الأوراق إلى محضر استجوابه في سجن الباستيل، ومن وقت لآخر، كان الرجل الواقف بجانب المدفأة يرفع عينيه عن المكتوب، ويغرقهما مثل خنجر في قاع قلب رجل الخردوات المسكين.

بعد عشر دقائق من القراءة وعشر ثوانٍ من الفحص، همس الكاردينال: «هذا

الوجه لم يتآمر قط، لكن لا يهم، من يدري، دعنا نجرب».

قال الكاردينال ببطء:

- أنت متهم بالخيانة العظمى.

صاح بوناسيو مناديًا محققه باللقب الذي سمع الضابط يمنحه إياه:

- يا مولاي، هذا ما أخبروني به بالفعل، لكن أقسم لك أني لا أعرف.

كبح الكاردينال ابتسامة:

- لقد تآمرت أنت وزوجتك مع السيدة دو شيفروز ومع اللورد دوق باكنغهام.

أجاب التاجر:

- في الحقيقة يا مولاي، لقد سمعتها تذكر هذه الأسماء كلها.

- وبأي مناسبة؟

- قالت إن الكاردينال ريشيليو استدرج دوق باكنغهام إلى باريس ليقضي عليه ويقضي على الملكة معه.

صاح الكاردينال بعنف:

- هي قالت ذلك؟

- نعم يا مولاي؛ لكنني أخبرتها أن قول مثل هذه الأشياء باطل، وأن سماحته غير قادر على...

قاطعه الكاردينال:

- اصمت، أنت أبله.

- هذا بالضبط ما قالته زوجتي لي، يا مولاي.

- هل تعرف من خطف زوجتك؟

- لا يا مولاي.

- ولكن لديك شكوك؟

- نعم سيدي؛ لكن هذه الشكوك بدت وكأنها تزعج المفوض، ولم يأخذها بالحسبان.

- هل تعلم أن زوجتك قد هربت؟

- لا يا مولاي، لقد علمت ذلك حينما كنت في السجن، وبوساطة المفوض أيضًا، يا له من رجل طيب جدًّا!

منع الكاردينال ابتسامة ثانية.

- إذن أنت لا تعرف ما حدث لزوجتك منذ هروبها؟

- إطلاقًا يا مولاي، لكنها لا بد أن تعود إلى قصر اللوفر.

- حتى الواحدة صباحًا لم تكن هناك بعد.

- آه! إلهي! ولكن ماذا حل بها بعد ذلك؟

- سنعرف؛ لا تقلق؛ لا يخفى شيء على الكاردينال، الكاردينال يعرف كل شيء..

- في هذه الحالة يا مولاي، هل تعتقد أن الكاردينال سيوافق على إخباري بما حدث لزوجتي؟

- ربما؛ لكن عليك أولًا أن تعترف بكل ما تعرفه عن علاقة زوجتك بالسيدة دو شيفروز.

- لكن يا مولاي، أنا لا أعرف، ولم أرها قط.

- عندما ذهبت لاصطحاب زوجتك إلى اللوفر، هل عادت إليك مباشرة؟

- تتأخر أحيانًا، كان يجب أن تتعامل مع تجار الكتان الذين أرسلها إليهم.

- وكم كان عدد تجار القماش؟

- اثنين يا مولاي.

- ما عنوانيهما؟

- أحدهما في شارع دو فوجيرارد، والآخر في شارع دو لا هارب.

- هل تدخل برفقتها عندهما؟

- أبداً يا مولاي، كنت أنتظرها عند الباب.

- وما الحجة التي تبرر بها دخولها وحدها هكذا؟!

- لا تبرر أي شيء، تطلب مني أن أنتظر، فأنتظر.

قال الكاردينال:

- أنت زوج لطيف يا عزيزي السيد بوناسيو!

قال تاجر الخردوات لنفسه:

- يناديني يا سيدي العزيز! اللعنة! القضية تسير على ما يرام!

- هل يمكنك التعرف إلى بابَي المتجرين؟

- نعم.

- هل تعرف رقميهما؟

- نعم.

- ما هما؟

- رقم 25 في شارع دو فوجيرار، ورقم 75 في شارع دو لا هارب.

قال الكاردينال:

- هذا جيد.

عقب هذه الكلمات، التقط جرسًا فضيًّا ورنَّ رَنات؛ فعاد الضابط.

قال بصوت منخفض:

- انطلق، وأحضر لي روشفور؛ اطلب منه أن يأتي الآن، إذا كان موجودًا في المنزل.

قال الضابط:

- الكونت هنا، إنه يطلب التحدث إلى سماحتكم!

غمغم بوناسيو الذي كان يعلم أن هذا اللقب يُمنح عادة للكاردينال:

- يا صاحب السماحة!

قال ريشيليو بلهفة:

- دعه يأتِ إذن، دعه يأتِ!

هرع الضابط خارج الحجرة، بالسرعة التي يطيع بها خدم الكاردينال.

- صاحب السماحة! غمغم بوناسيو وهو يدحرج عينيه التائهتين.

لم تمر خمس ثوانٍ على اختفاء الضابط، حتى فُتح الباب ودخلت شخصية جديدة.

صاح بوناسيو:

-إنه هو.

- من هو؟ سأل الكاردينال.

- من اختطف زوجتي مني.

رن الكاردينال للمرة الثانية، فعاود الضابط الظهور.

- ضع هذا الرجل بين يدي اثنين من الحراس، ودعه ينتظرني، ليمثل أمامي مرة أخرى.

صاح بوناسيو:

- لا يا مولاي! لا ليس هو! لا، لقد كنت مخطئًا، هذا شخص آخر لا يشبهه على الإطلاق! السيد رجل نزيه.

قال الكاردينال:

- خذوا هذا الأحمق!

سحب الضابط بوناسيو من ذراعه، وأعاده إلى غرفة الانتظار حيث وجد حارسيه.

تابع الشخص الجديد بوناسيو بعينيه المستعجلتين حتى غادر، وبمجرد أن أغلق الباب خلفه، قال وهو يقترب من الكاردينال بخفة:

- لقد التقيا بعضهما بعضًا.

- من؟ سأل سماحته.

- هي وهو.

- الملكة والدوق؟ صرخ ريشيليو.

- نعم.

- وأين؟

- في قصر اللوفر.

- هل أنت واثق؟

- متأكد تمامًا.

- من أخبرك بذلك؟

- السيدة دو لانوي، التي تخدم سماحتكم بإخلاص، كما تعلمون.

- لماذا لم تخبرنا من قبل؟

- إما صدفة أو عدم ثقة، فقد جعلت الملكة السيدة دو فارجيس تنام في غرفتها، وأبقتها طوال النهار.

- حسنًا، لقد تعرضنا للهزيمة، دعنا ننتقم.

- سأساعدك بروحي كلها يا مولاي، كن مطمئنًا.

- كيف جرت الأمور؟

- عند منتصف الليل كانت الملكة مع وصيفاتها...

- أين؟

- في غرفة نومها...

- حسنًا.

- عندما قدم لها منديل من طرف السيدة المكلفة بملابسها...

- وماذا بعد؟

- عبرت الملكة على الفور عن انفعال شديد، وعلى الرغم من المساحيق الحمراء التي كانت تغطي وجهها، إلا أنها أصبحت شاحبة.

- وماذا بعد؟ وماذا بعد؟

- ومع ذلك، وقفت، وبصوت متغير قالت: «سيداتي، انتظرنني عشر دقائق، ثم سأعود»، وفتحت باب مخدعها، ثم خرجت.

- لماذا لم تأتِ السيدة دو لانوي لتخبرك في اللحظة نفسها؟

- لم يكن الأمر مؤكدًا حتى ذلك الحين؛ إلى جانب ذلك، قالت الملكة: «سيداتي، انتظرنني»، ولم تجرؤ على عصيان الملكة.

- وكم مكثت الملكة خارج الغرفة؟

- ثلاثة أرباع الساعة.

- أي من وصيفاتها رافقتها؟

- الدونا إستيفانيا فقط.

- ثم عادت بعد ذلك؟

-نعم، ولكن من أجل أخذ علبة صغيرة من خشب الورد، وخرجت على الفور.

- وعندما عادت لاحقًا، هل أعادت الصندوق؟

- لا.

- هل عرفت السيدة دو لانوي ماذا كان يوجد في هذا الصندوق؟

- نعم، أحجار كريمة كان جلالة الملك قد أعطاها للملكة.

- وعادت دون هذا الصندوق؟

- نعم.

- ترى السيدة دو لانوي أنها سلمته إلى باكنغهام بعد ذلك؟

- هل هي متأكدة.

- كيف ذلك؟

- خلال النهار، بحثت السيدة دو لانوي بصفتها رئيسة وصيفات الملكة عن

هذا الصندوق، وعبرت عن قلقها لأنها لم تجده وانتهى بها الأمر إلى سؤال الملكة عن اختفائه.

- وماذا قالت الملكة؟

- تورّد وجه الملكة كثيرًا وأجابت أنها كسرت إحدى ترصيعاته في اليوم السابق، فأرسلته إلى صائغها لإصلاحه.

- يجب أن تمر عنده وتتأكد من أن الأمر صحيح أم لا.

- لقد ذهبت إليه.

- حسنًا! وماذا قال الصائغ؟

- الصائغ لم يسمع بالأمر.

- حسنًا! حسنًا يا روشفور، لم نفقد كل شيء، وربما.. ربما سيكون كل شيء أفضل!

- الحقيقة أني لا أشك في أن عبقرية سماحتكم...

- أن أصلح حماقات عميلي، أليس كذلك؟

- هذا بالضبط ما كنت سأقوله، لو سمح لي سماحتكم بإنهاء جملتي.

- الآن هل تعرف أين كانت دوقة شيفروز ودوق باكنغهام مختبئين؟

- لا يا مولاي، لم يستطع رجالي إخباري بأي شيء إيجابي عن ذلك.

- وأنا أعلم ذلك.

- أنت يا سيدي؟

- نعم، أو على الأقل أشك في ذلك، يوجد الأول في شارع دو فوجيرارد، رقم 25، والآخر في شارع دو لا هارب، رقم 75.

- هل يريد مني سماحتكم أن أقبض عليهما؟

- سيكون قد فات الأوان، سيكونان قد رحلا.

- على أي حال، يمكننا أن نتأكد.

- خذ عشرة رجال من حراسي وفتش المنزلين.

- سأذهب يا مولاي.

واندفع روشفور خارجًا من الشقة.

مكث الكاردينال بمفرده، يفكر للحظة ثم دق الجرس مرة ثالثة.

عاد الضابط نفسه للظهور.

قال الكاردينال:

- أحضروا السجين.

أحضر بوناسيو مرة أخرى، وبإشارة من الكاردينال، انسحب الضابط.

قال الكاردينال بصرامة:

- لقد خدعتني.

صرخ بوناسيو:

- أنا أخدع سماحتك!

- عندما ذهبت زوجتك إلى شارع دو فوجيرارد وشارع دو لا هارب، لم تكن ذاهبة إلى تجار القماش.

- يا إلهي! وإلى أين كانت ذاهبة؟

- كانت ذاهبة لرؤية دوقة شيفروز ودوق باكنغهام.

قال بوناسيو مستعيدًا ذكرياته كلها:

- نعم، نعم، هذا هو، سماحتكم على حق، لقد أخبرت زوجتي عدة مرات أنه من المستغرب أن يسكن تجار القماش في مثل هذه المنازل المجردة من عنوان المحل، وفي كل مرة كانت زوجتي تضحك، يا ويلي يا مولاي!

وألقى بوناسيو بنفسه عند قدمي سماحته وأضاف:

- آه! رحماك أيها الكاردينال، أيها الكاردينال العظيم، الرجل العبقري الذي يقدسه الجميع.

لم يستمتع الكاردينال كثيرًا بالانتصار الذي حققه على هذا الكائن المبتذل المدعو بوناسيو ثم على الفور تقريبًا، كما لو خطرت في ذهنه فكرة جديدة، مطط شفتيه بابتسامة، ومدّ يده إلى تاجر الخردوات وقال له:

- قم يا صديقي، أنت رجل شجاع.

هتف بوناسيو:

- الكاردينال يلمس يدي! لمستُ يد الرجل العظيم! وينادي الرجل العظيم صديقه!

قال الكاردينال بتلك النبرة الأبوية التي كان يعرف أحيانًا كيف يؤديها، لكنها لا تخدع إلا الأشخاص الذين لا يعرفون حقيقته.

- نعم صديقي، نعم! ولأننا اتهمناك ظلمًا، حسنًا، ستحتاج إلى تعويض، انتظر! خذ هذا الكيس المكون من مئة بيستول، واغفر لي.

قال بوناسيو مترددًا في أخذ الكيس خوفًا من أن تكون هذه الهدية المزعومة مجرد مزحة:

- أن أغفر لك يا مولاي! لكنك كنت حرًّا تمامًا في اعتقالي، ولك مطلق الحرية

في تعذيبي، ولك مطلق الحرية في أن تشنقني، أنت السيد، وليس لدي الحق في أن أقول أدنى كلمة، أغفر لك يا مولاي! بالله عليك، أنت لا تفكر في الأمر حقًّا.

- بلى يا عزيزي السيد بوناسيو! أرى أن هذا من فيض كرمك، أشكرك على ذلك، إذن ستأخذ هذا الكيس وستذهب دون أن تكون مستاءً؟

- سأذهب مسرورًا يا مولاي.

- وداعًا إذن، أو بالأحرى إلى اللقاء، لأنني أتمنى أن نلتقي مرة أخرى.

- متى تشاء يا مولاي، وأنا تحت أوامر سماحتكم.

- سنلتقي كثيرًا، كن مطمئنًا، لأنني وجدت سحرًا شديدًا في محادثتك.

- وداعًا سيد بوناسيو، وداعًا.

وأشار الكاردينال بإيماءة يده، فرد عليها بوناسيو بالانحناء حتى كاد يلمس الأرض؛ ثم خرج متراجعًا إلى الوراء، وعندما صار في غرفة الانتظار، سمعه الكاردينال يقول بحماسه وبصوت عال: «يعيش مولاي! تحيا سماحته! يحيا الكاردينال العظيم!».

استمع الكاردينال بابتسامة إلى هذا التعبير الرائع عن المشاعر الحماسية للسيد بوناسيو، ثم عندما تلاشت صيحات بوناسيو، قال:

- حسنًا، الآن ها هو رجل مستعد للقتل من أجلي.

وطفق الكاردينال يفحص خريطة لاروشيل بقدر كبير من الاهتمام؛ تلك الخريطة التي قلنا أنها كانت ممدودة فوق مكتبه، فتتبع بقلم الرصاص الخط الذي كان من المقرر أن يمر فيه الحاجز الشهير، والذي بعد ثمانية عشر شهرًا سيغلق ميناء المدينة المحاصرة.

في خضم استغراقه في تأملاته الاستراتيجية، فُتِح الباب مرة أخرى، ودخل روشفور.

قال الكاردينال بشغف، وهو يقف بتأهب ليثبت درجة الأهمية التي يوليها للمهمة التي انتدب إليها الكونت:

- حسنًا، ماذا لديك؟

قال الأخير:

- حسنًا! امرأة شابة ما بين السادسة والعشرين والثامنة والعشرين عامًا ورجل ما بين الخامسة والثلاثين إلى الأربعين عامًا أقاما فعلًا؛ الرجل أربعة أيام والمرأة خمسة أيام أخرى، في المنازل التي أشار إليها سماحتكم؛ فغادرت المرأة الليلة والرجل هذا الصباح.

صرخ الكاردينال:

- هل كانا هما؟! رمق الساعة وتابع: لقد فات الأوان للمطاردة، ستكون الدوقة في تور والدوق في بولون، يجب أن تلحق بهما في لندن.

- ما هي أوامر سماحتك؟

- لا تنبس بكلمة عما حدث، فقد تظل الملكة في أمان تام، ولا تعرف أننا نعرف سرها، دعها تصدق أننا لا نبحث عن أي مؤامرة كيفما كانت، وأرسل لي محافظ الأختام سيغير(37).

- وماذا عن الرجل الذي أحضرناه لسماحتك؟

- أي رجل؟ سأل الكاردينال.

- المدعو بوناسيو؟

- فعلت كل ما يمكنني فعله، لقد جعلت منه جاسوسًا على زوجته.

انحنى الكونت دو روشفور احترامًا وتقديرًا لتفوق سيده العظيم وانسحب.

مكث الكاردينال بمفرده، فجلس مرة أخرى، وكتب رسالة ختمها بختـــــــمه

الخاص، ثم قرع الجرس، فدخل الضابط للمرة الرابعة.

قال:

- أحضر لي فيتراي، وأخبره أن يستعد لرحلة.

بعد لحظة، كان الرجل الذي طلبه واقفًا أمامه، مستعدًّا كل الاستعداد للقيام برحلته.

قال:

- يا فيتراي، ستغادر على الفور إلى لندن، ولن تتوقف للحظة في الطريق، وستعطي هذه الرسالة لميلادي، ها هو إذن بمئتي بيستول، اذهب إلى أمين الصندوق الخاص بي واستلم المال، وستحصل على المزيد إذا عدت إلى هنا في غضون ستة أيام ونفذت مهمتي على نحو صحيح.

دون أن يجيب الرسول بكلمة واحدة، انحنى وأخذ الرسالة، وإذن مئتي مدقة، وخرج.

وإليكم ما تحويه الرسالة:

«ميلادي،

كوني حاضرة في أول حفل راقص يكون دوق باكنغهام موجودًا فيه، ستكون على صدريته اثنتا عشرة ماسة، تودي إليه ولاطفيه ثم مزقيه إلى نصفين،

وبمجرد أن تصبح هذه الماسات بحوزتك، أخبريني بذلك».

15

رجال القضاء ورجال السيف

في اليوم التالي لوقوع هذه الأحداث، لم يظهر آثوس مرة أخرى، فأبلغ دارتانيان وبورثوس السيد دو تريفيل عن اختفائه.

أما بالنسبة لأراميس، فقد طلب إجازة خمسة أيام، وذهب إلى روان -كما قيل- لقضاء مآرب عائلية.

كان السيد دو تريفيل بمثابة والد لجنوده كلهم دون تمييز أو إقصاء بين الأكثر شهرة وأقلها، وبمجرد أن يرتدي أحدهم بزّة الفرقة، يصبح واثقًا من مساعدته ودعمه كما لو كان شقيقه نفسه.

لذلك هرع على وجه السرعة إلى ملازم الجنايات، ثم استدعي الضابط المسؤول عن مركز الصليب الأحمر، فعلم من المعلومات المتتالية أن آثوس قد تم إيداعه مؤقتًا في فور- ليفيك.

لقد مرّ آثوس بالمحن جميعها التي رأينا بوناسيو يمر بها.

شاهدنا مشهد المواجهة بين الأسيرَين، وأن آثوس كشف أن اسمه آثوس وليس دارتانيان.

وأضاف أنه لا يعرف السيد أو السيدة بوناسيو، وأنه لم يتحدث إلى أي منهما، وأنه جاء حوالي الساعة العاشرة مساءً لزيارة صديقه دارتانيان، لكنه ظل حتى ذلك الوقت مع السيد دو تريفيل، إذ تناول العشاء؛ وأضاف أن عشرين شاهدًا يمكن أن يشهدوا على هذه الحقيقة، وقام بتعيين العديد من السادة المرموقين، ومن بين آخرين، السيد دوق تريموي.

كان المفوض الثاني مندهشًا مثل الأول من التصريح البسيط والحازم لهذا الفارس الذي كان يود أن ينتقم منه لأن رجال الرداء يحبون كثيرًا الفوز على رجال السيف، لكن ذكر اسم السيد دو تريفيل واسم السيد دوق تريموي يستحقان التريث والتفكير.

فأرسل آثوس أيضًا إلى الكاردينال، لكن لسوء الحظ كان الكاردينال في قصر اللوفر مع الملك.

كانت تلك اللحظة هي بالتحديد التي وصل فيها السيد دو تريفيل إلى قصر جلالة الملك، تاركًا ملازم الجنايات وحاكم سجن فور ليفيك، من دون أن يتمكّن من العثور على آثوس.

كان السيد دو تريفيل قائدًا للفرسان لذلك فهو يدخل قصر الملك في الأوقات نفسها.

نحن نعرف ما هي أسباب تحامل الملك على الملكة، وقد حافظ الكاردينال على هذا التحامل بمهارة، بحيث كان يتفنن في حبك المؤامرات، بل كان أكثر تشككًا في النساء أكثر من الرجال، وكان أحد الأسباب العظيمة لهذا التحامل قبل كل شيء، صداقة آن النمساوية مع السيدة دو شيفروز، إذ كانت هاتان المرأتان تقلقانه أكثر من الحروب مع إسبانيا، والمشاجرات مع إنجلترا، والعقبات المالية، وكانت لديه نظرة وقناعة راسخة أن السيدة دو شيفروز تخدم الملكة ليس فقط في مؤامراتها السياسية، ولكن ما يقلقه أكثر، مؤامراتها العاطفية.

كان أول ما قاله السيد الكاردينال للملك، إن السيدة دو شيفروز المنفية في تور والتي يعتقد أنها موجودة في تلك المدينة، قد أتت إلى باريس، وأمضت فيها خمسة أيام، فاشتد غضب الملك، هذا الملك المتقلب الخائن الذي يريد أن يُطلق عليه لوي العادل ولوي العفيف، وستجد الأجيال القادمة صعوبة في فهم هذه الشخصية التي لا يشرحها التاريخ إلا بالوقائع وليس بالمنطق أبدًا.

لكن عندما أضاف الكاردينال أن السيدة دو شيفروز لم تأت إلى باريس فحسب،

بل إن الملكة أيضًا أعادت التواصل معها عن طريق إحدى تلك المراسلات الغامضة التي كانت تسمى في ذلك الوقت «الجمعية السرية»، وفي اللحظة التي أوشك فيها الكاردينال أن يكشف الخيوط الأكثر غموضًا في هذه المؤامرة، وعندما تمكّن من القبض على الفاعل في حالة التلبّس مع تقديم الأدلة جميعها، تجرأ أحد الفرسان على مقاطعة مسار العدالة بعنف من خلال انقضاضه بحد السيف على رجال نزيهين مكلفين بالتحقيق في القضية برمتها بنزاهة من أجل وضعها أمام ناظري الملك، ولم يستطع لوي الثالث عشر ضبط نفسه، فهرول نحو مخدع الملكة ساخطًا وناقمًا ذلك الغضب الذي يحول الأمير الصامت إلى كائن أشد قسوة ووحشية.

أصبح الملك على ما هو عليه، بالرغم من أن الكاردينال لم يقل كلمة عن دوق باكنغهام، وفي ذلك الوقت، دخل السيد دو تريفيل، هادئًا، مهذبًا، وفي هندام لائق.

حدس القائد ما حدث توًّا عبر حضور الكاردينال وملامح وجه الملك المتجهمة، فشعر السيد دو تريفيل بقوة شمشون نفسها أمام الفلستينيين(38).

كان لوي الثالث عشر يضع يده بالفعل على مقبض الباب، لكن على إثر الضوضاء التي أحدثها السيد دو تريفيل عند دخوله، استدار.

فقال الملك ولم يستطع مداراة جماح غضبه:

- وصلت في الوقت المناسب، وصلتني أخبار عن فرسانك، ويا لها من أخبار.

قال السيد دو تريفيل ببرود:

- وأنا لدي الكثير من الأشياء لأبلغها إلى جلالتكم عن رجال القضاء..

- بكل سرور، قال الملك بغطرسة.

وتابع السيد دو تريفيل:

- يشرفني أن أبلغ جلالتك، أن مجموعة من المدعين العامين والمفوضين

والشرطة، وهم أشخاص محترمون جدًّا لكن لديهم تصميم شديد على مواجهة رجال الزي الرسمي، فقد سمحوا لأنفسهم في أحد المنازل، باعتقاله ونقله أمام الملأ والزجّ به داخل سجن فور ليفيك، وهذا كله بناءً على أمر رفضوا تبريره لي، وهو أحد فرسانِي أو بالأحرى فرسانك يا سيدي، وهو رجل حسن السلوك، ذائع الصيت تقريباً، وجلالة الملك يعرفه جيدًا، إنه السيد آثوس.

قال الملك بتلقائية:

- آثوس، نعم، بالمناسبة، أعرف هذا الاسم.

قال السيد دو تريفيل:

- لعل جلالتكم يتذكره، السيد آثوس هو ذلك الفارس الذي أصاب في المبارزة المؤسفة التي تعرفها السيد دو كاهوزاك بجروح خطيرة، وبالمناسبة يا مولانا، تابع تريفيل، مخاطبًا الكاردينال، السيد دو كاهوزاك على ما يرام، أليس كذلك؟

- شكرًا لك! قال الكاردينال وهو يعض على شفتيه غاضبًا.

- كان السيد آثوس قد ذهب لزيارة أحد أصدقائه الذي كان حينها غائبًا، وتابع السيد دو تريفيل، الشاب البيرني، الطالب المنتسب إلى حرس جلالة الملك في فرقة إيسار، ولكن ما إن جلس والتقط كتابًا في انتظار صديقه حتى داهمه حشد من الأعوان والجنود وقاموا بمحاصرة المنزل، وكسروا عدة أبواب...

وضع الكاردينال إشارة للملك تعني: «هذه هي الحالة التي أخبرتك عنها».

أجاب الملك:

- نحن نعلم هذا كله، لأنه نفذ من أجل خدمتنا.

قال تريفيل:

- وإذن من أجل خدمة جلالتكم أيضًا، أُلقي القبض على أحد الفرسان الأبرياء مثل مجرم، ونُقل وسط جمهور وقح، هذا الرجل الشجاع، الذي سُفك دمه عشر

مرات في خدمة جلالتكم والذي هو على استعداد لإراقته مرة أخرى.

قال الملك مهزوزًا:

- عجبًا! هل حدثت أشياء مثل هذه؟

تدخل الكاردينال بهدوء شديد:

- لم يقل السيد دو تريفيل إن هذا الفارس البريء، وهذا الرجل الشجاع قد ضرب بحد سيفه قبل ساعة واحدة فقط أربعة مفوضين أوكلت لهم التحقيق في مسألة ذات أهمية قصوى.

صرخ السيد دو تريفيل بصراحته الجاسكونية ووقاحته العسكرية:

- أتحدى سماحتكم لإثبات ذلك، لأنه قبل ساعة كان السيد آثوس قد شرفني بتناول العشاء في منزلي، والتحدث معي في غرفة الاستقبال في القصر بصحبة السيد دوق تريموي، والسيد كونت شالو اللذين كانا هناك أيضًا.

نظر الملك إلى الكاردينال.

قال الكاردينال مجيبًا بصوت عالٍ على استفسار الملك الصامت:

- لعمري تحقيق قضائي سيفي بالغرض، ويشرفني أن أقدمه لجلالتكم.

أجاب تريفيل بفخر:

- وهل يساوي تحقيق قضائي بواسطة أهل القضاء كلمة الشرف؟

قال الملك:

- هيا، هيا يا تريفيل، كن هادئًا.

قال تريفيل:

- إذا كان لدى سماحته أي شك تجاه أحـــــــد فرساني، فإن قضاء الكاردينال

معروف جيدًا بالنسبة لي لطلب إجراء تحقيق بنفسي.

استمر الكاردينال بهدوء أعصاب:

- في المنزل الذي تمت فيه المداهمة، وأعتقد أنه لصديق الفارس البيريني.

- سماحتك يريد التحدث عن السيد دارتانيان؟

- أعني الشاب الذي تحميه يا سيد دو تريفيل.

- نعم سماحتك، إنه هو.

- هل تشك أن هذا الشاب قد قدم له مشورة سيئة...

قاطعه السيد دو تريفيل:

- إلى السيد آثوس وهو رجل يبلغ ضعف عمره؟ لا يا صاحب السعادة، وإلى جانب ذلك، فقد أمضى السيد دارتانيان الأمسية برفقتي.

قال الكاردينال:

- إذن، قضى الجميع المساء بصحبتك؟

قال تريفيل وقد احمرت جبهته غضبًا:

- هل سيشك سماحته في كلامي؟

قال الكاردينال:

- لا، لا حاش لله! لكن في أي وقت كان برفقتك؟

- أوه! أستطيع أن أقول هذا عن علم لسماحتك؛ لأنه عندما دخل، لاحظت أن الساعة كانت التاسعة والنصف، على الرغم من أنني اعتقدت أن الوقت كان أكثر من ذلك.

- ومتى غادر قصرك؟

- في العاشرة والنصف؛ ساعة بعد الحدث.

أجاب الكاردينال:

- لكن في النهاية من سيشك للحظة في ولاء تريفيل، وقد شعر أن الانتصار قد تخلى عنه، لكن أخيرًا، فقد اعتُقل آثوس في هذا المنزل في شارع دو فوسويور.

- هل محظورة زيارة الصديق لصديقه؟ ومحظور تآخي أحد فرسان فرقتي بأحد حراس فرقة السيد ديسار؟

- نعم، عندما يكون المنزل الذي يصادق الصديق مشبوهًا.

قال الملك:

- لأن هذا المنزل مشتبه به يا تريفيل، ربما لا تعرف؟

- في الواقع يا مولاي، لم أكن أعرف، وعلى أي حال، يمكن أن يكون

مريبًا في كل مكان، لكني أجهل أن الجزء الذي يقيم فيه السيد دارتانيان كان كذلك، لكن يمكنني أن أؤكد لكم يا مولاي، أنه إذا صدقت ما قاله، فلا يوجد خادم أكثر منه إخلاصًا لصاحب الجلالة، وهو معجب إعجابًا عميقًا بالكاردينال.

- أليس هذا الدارتانيان هو من أصاب يوساك ذات يوم في هذا اللقاء المؤسف الذي وقع بالقرب من دير الكارم ديشوسيه؟ سأل الملك وهو ينظر إلى الكاردينال، الذي احمرّ خجلًا.

- وفي اليوم التالي بيرناجو، نعم يا مولاي، نعم إنه هو، ولجلالتكم ذاكرة جيدة.

- تعال، ماذا تقترحون حلًّا؟ قال الملك.

قال الكاردينال:

- هذا يعني جلالتكم أكثر مني، وأود أن أؤكد الجرم.

قال تريفيل:

- وأنا أدحض ذلك، لكن لجلالة الملك قضاته، وهم سيقررون.

قال الملك:

- هذا كل شيء، دعونا نعِد القضية إلى القضاة؛ هذا شأنهم أن يحاكموا ويحكموا.

استطرد تريفيل:

- لكن من المحزن جدًّا أنه في هذه الأوقات غير السعيدة التي تمر بها، الحياة الأكثر نقاءً، ولا تعفي الفضيلة التي لا جدال فيها الإنسان من العار والاضطهاد، لذا فإن الجيش لن يكون سعيدًا، كما يمكنني القول، لأنه سيعدّ نفسه هدفًا لمعاملة قاسية في قضايا خاصة بالشرطة.

كانت الكلمة طائشة، لكن السيد دو تريفيل أطلقها عن علم، فقد كان يريد انفجارًا، لأن اللغم سيشعل النار بينما النار ستضيء.

صاح الملك مكررًا كلمات السيد دو تريفيل:

- قضية الشرطة! قضية الشرطة! وماذا تعرف يا سيدي؟ اهتم بأعمال فرسانك ولا تصدع رأسي، يبدو عند سماعك أنه إذا أُلقي القبض على فارس بسبب سوء حظه، فإن فرنسا ستصبح في خطر، مهلًا يا لها من ضوضاء من أجل فارس! إن شئت اعتقلت عشرة، سحقًا! بل الفرقة كلها! ولا أريد أن أسمع كلمة.

قال تريفيل:

- ما دام جلالتك يشتبه بهم، فإن الفرسان مذنبون، وأنا أيضًا يا مولاي مستعد أن أعيد سيفي إليكم، لأن الكاردينال بعد اتهامه لجنودي، سينتهي به الأمر بلا ريب إلى اتهامي؛ فمن الأفضل أن أكون سجينًا معينًا مع السيد آثوس الذي تم اعتقاله بالفعل، والسيد دارتانيان الذي لا شك أنه سيعتقل قريبًا.

- أيها الجاسكوني، هل ستنتهي؟ قال الملك.

قال تريفيل دون أن يخفض صوته على الإطلاق:

- سيدي، أطلب إعادة الفارس إليّ، أو أن يحاكم.

قال الكاردينال:

- سوف نحاكمه.

- حسنًا، كان ذلك أفضل كثيرًا، لأني في هذه الحالة سأطلب من جلالة الملك الإذن للترافع عنه.

خشي الملك من فورة.

- إذا قال سماحته إن لا دوافع شخصية له في القضية...

عندما رأى الكاردينال الملك قادمًا صوبه، هَبَّ لمقابلته قائلًا:

- عفوك، لكن ما دام جلالتكم يرى فيّ قاضيًا متهمًا، فإني أنسحب.

قال الملك:

- هيا، هل تقسم لي إن السيد آثوس كان معك في أثناء الحدث، وأنه لم يشارك فيه بتاتًا؟

- أقسم لكم، أنتم الأكثر محبة والأكثر تقديرًا في العالم!

قال الكاردينال:

- من فضلك فكر يا مولاي، فإذا أطلقنا سراح السجين بهذه الطريقة، لن نتمكّن من معرفة الحقيقة بعد الآن.

استأنف السيد دو تريفيل:

- سيكون السيد آثوس دائمًا رهن الإشارة، مستعدًّا للإجابة عندما يريد القضاة أن يستجوبوه، ولن يهرب، سيدي الكاردينال؛ لا تقلق، أنا أتعهد نيابة عنه.

قال الملك:

- في الواقع، لن يهرب، وسوف نعثر عليه دائمًا كما يقول السيد دو تريفيل، وإلى جانب ذلك...

أضاف وهو يخفض صوته وينظر باستجداء إلى سماحته، فلنمنحهم الأمان، هذه سياسة.

سياسة لوي الثالث عشر دفعت ريشيليو إلى الابتسام وقال:

- اؤمر يا مولاي، لكم حق العفو.

قال تريفيل الذي أراد أن تكون له الكلمة الأخيرة:

- إن حق العفو لا ينطبق إلا على المذنبين، وفارسي بريء، لذلك العفو ما ستأمر به، ولكن يا مولاي، إنها العدالة.

- وهل هو في فور ليفيك؟ قال الملك.

- نعم يا مولاي، وفي غياهب زنزانة كالمجرمين.

همس الملك:

- اللعنة! اللعنة! ما العمل؟

فاستطرد الكاردينال:

- وقّعوا على أمر الإفراج، وسينتهي كل شيء، وأعتقد، مثل جلالتكم، أن ضمان السيد دو تريفيل أكثر من كافٍ.

انحنى تريفيل باحترام بفرح لا يخلو من مزيج من الخوف، فقد كان يفضل مقاومة عنيدة من جانب الكاردينال على هذه السهولة المفاجئة.

وقّع الملك على أمر الإفراج، وحمله تريفيل دون تأخير.

وبينما كان على وشك الخروج، ابتسم له الكاردينال ابتسامة ودودة، وقال للملك:

- يسود انسجام جيد بين القادة والجنود بين فرسانك يا مولاي؛ وهذا مفيد جدًّا للخدمة ومشرف جدًّا للجميع.

قال تريفيل لنفسه:

- سيدبر لي خدعة سيئة دائمًا، ولا يمكنك أن تحسم الأمر نهائيًّا مع مثل هذا الرجل، ولكن لنسرع، فقد يغير الملك رأيه في أي لحظة، وفي النهاية، فإن تسليم رجل يخرج من الباستيل أو فور ليفيك أصعب من الاحتفاظ به سجينًا

هناك.

دخل السيد دو تريفيل منتصرًا إلى فور ليفيك، حيث أطلق سراح الفارس الذي لم يتخلَّ عن هدوئه اللامبالي.

ثم ما إن رآه دارتانيان قال له:

- لقد أفلتَّ من عنق الزجاجة، وها أنت قد دفعت ثمن ضربة سيفك لجوساك، ولا تزال ضربتك لبرناجو تنتظرك، لكن لا يجب أن تثق كثيرًا.

علاوة على ذلك، كان السيد دو تريفيل محقًّا في عدم الثقة في الكاردينال والاعتقاد بأن كل شيء لم ينتهِ بعد؛ لأن قائد الفرسان بالكاد أغلق الباب خلفه حتى قال سماحته للملك:

- الآن وبعد أن أصبحنا بمفردنا، سنجري محادثة جادّة، إذا أحب جلالة الملك.
كان السيد باكنغهام في باريس طوال خمسة أيام ولم يغادرها حتى صباح اليوم.

16

عندما بحث حارس الأختام أكثر من مرة عن الجرس لقرعه كما كان يفعل فيما مضى.

من المستحيل تخيل وقع هذه الكلمات القليلة على لوي الثالث عشر وما خلفته من تأثير في نفسه؛ فقد امتقع وشحب وجهه دفعة واحدة، وبذلك لاحظ الكاردينال أنه استعاد باجتياح واحد ما فقده في السابق.

صرخ الملك:

- السيد دو باكنغهام في باريس! وماذا يفعل هنا؟

- لا شك أنه جاء للتآمر مع أعدائنا من الهوغونوتيون والإسبان.

- لا، والإله، لا! جاء للتآمر ضد شرفي مع السيدة دو شيفروز، السيدة دو لونجيفيل وكوندي!

- حسنًا! ومولاي، يا لها من فكرة! الملكة في منتهى الحكمة، وقبل كل شيء هي تحب جلالتكم حبًّا جمًّا.

قال الملك:

- المرأة ضعيفة يا سيدي الكاردينال. وفيما يتعلق بحبها الجَم، فإن لي وجهة نظر حول هذا الحب.

قال الكاردينال:

- ما زلت أصر على أن دوق باكنغهام جاء إلى باريس من أجل مشروع سياسي

بحت.

- وأنا متأكد من أنه جاء من أجل شيء آخر، سيدي كاردينال؛ ولكن إذا كانت الملكة مذنبة، دعها ترتجف ذعرًا!

قال الكاردينال:

- بالمناسبة، مهما صددت تفكيري عن هذه الخيانة، فإن جلالتك تذكرني بذلك: السيدة دو لانوي التي -بناءً على أمر جلالتكم- استجوبتها مرات عديدة أخبرتني هذا الصباح أن ليلة أول أمس سهرت الملكة لوقت متأخر جدًّا، وأنها بكت كثيرًا هذا الصباح، وكانت تكتب طوال اليوم.

قال الملك:

- هذا مؤكد، كانت بلا شك تكتب للكاردينال، أريد أوراق الملكة.

- ولكن كيف نستولي عليها يا مولاي؟ أخال أن هذه المهمة لا يمكن أن أقوم بها أنا أو جلالتكم.

صرخ الملك بأقصى درجات الغضب:

- لكن كيف فعلنا مع زوجة المارشال أنكر؟ بحثنا في خزانتها وفي النهاية فتشناها هي نفسها.

- يا مولاي لم تكن زوجة المارشال أنكر سوى زوجة المارشال أنكر، تلك المغامرة الفلورنسية وهذا كل شيء، بينما المهيبة زوجة صاحب الجلالة هي آن النمساوية، ملكة فرنسا، إحدى أعظم الأميرات في العالم.

- إنها مذنبة أكثر من السيد الدوق! كلما نسيت المكانة الرفيعة التي وُضعت فيها نزلت إلى الدرك السفلي، لقد مر وقت طويل منذ أن قررت وضع حد لكل هذه المؤامرات الصغيرة في السياسة والحب، يساعدها أيضًا ذلك المدعو لابورت...

قال الكاردينال:

- أعتقد أنه العمود الفقري في هذا كله، أعترف بذلك.

قال الملك:

- هل تعتقد -مثلي- أنها تخونني؟

- أؤمن وأكرر لجلالتك أن الملكة تتآمر على سلطة ملكها، لكني لم أقل تتآمر على شرفها.

- وأنا أقول لك ضد كليكما، أقول لك إن الملكة لا تحبني، أقول لك إنها تحب شخصًا آخر، أقول لك إنها تحب هذا السافل دوق باكنغهام! لماذا لم تعتقله بينما كان في باريس؟

- أوقف الدوق! اعتقل رئيس وزراء الملك تشارلز الأول! هل تفكر في ذلك حقًّا يا مولاي؟ يا له من انفجار! وإذا كانت ظنون جلالتكم -التي ما زلت أشك فيها- بعض الحقيقة فيا له من انفجار رهيب! يا لها من فضيحة يائسة!

- لكن بما أنه كان يقدم نفسه كمشرد ولص، فيجب أن...

أجم لوي الثالث عشر عن إتمام الكلام خائفًا مما كاد أن يقوله بينما اشرأبّ ريشيليو مادًّا رقبته ينتظر عبثًا الكلمة التي كظمها الملك.

- يجب أن...؟

قال الملك:

- لا شيء، لا شيء، لكن ألم تغفل عنه طوال فترة وجوده في باريس؟

- لا يا مولاي.

- أين كان يقيم؟

- شارع لا هارب رقم 75.

- أين يوجد؟

- على جانب اللوكسمبورغ.

- وهل أنت متأكد من أنهما لم يلتقيا؟

- أعتقد أن الملكة شديدة الارتباط بواجباتها يا مولاي.

- لكنهما يتراسلان، كانت الملكة تكتب له طوال اليوم، أحتاج هذه الرسائل.

- مولاي، ولكن...

- سيدي الدوق، بأي ثمن أريدهم.

- ومع ذلك، أريد أن أوجّه لجلالتكم ملاحظة...

- هل ستخونني أنت أيضًا سيدي الكاردينال، هل يجب أن تعارض دائمًا رغباتي بهذه الطريقة؟ هل تتواطأ أيضًا مع الإسبان والإنجليز، ومع السيدة دو شيفروز، ومع الملكة؟

أجاب الكاردينال متنهدًا:

- مولاي، ظننت أنني في مأمن من مثل هذه الشبهة.

- السيد كاردينال، هل سمعتني؟ أريد هذه الرسائل!

- ليس ثمة إلا طريقة واحدة.

- وما هي؟

- أن يتكلف محافظ الأختام سيغير بهذه المهمة، ويدخل الأمر بالكامل ضمن مسؤوليته.

- فلنرسله الآن لإحضارها!

- يجب أن يكون في بيتي يا مولاي؛ لأني كنت قد طلبت حضوره، وعندما أتيت إلى اللوفر تركت له أمرًا بأن ينتظرني.

- أرسل في طلبه الآن!

- أوامر جلالتكم ستنفذ ولكن...

- لكن ماذا؟

- لكن الملكة قد ترفض الانصياع.

- بناءً على أوامري؟

- نعم، إذا كانت لا تعلم أن هذه الأوامر صادرة عن الملك.

- حسنًا! حتى لا تشك في ذلك، سأخبرها بنفسي.

- سيتذكر جلالتك أنني فعلت ما بوسعي كله لمنع الانفصال.

- نعم أيها الدوق، أعلم أنك متسامح جدًّا تجاه الملكة، وربما تكون متسامحًا أكثر من اللازم، سنتحدث عن هذا الأمر لاحقًا.

- متى يسمح صاحب الجلالة، وسأكون دائمًا سعيدًا وفخورًا يا سيدي للتضحية بنفسي من أجل الانسجام الحسن الذي أتمنى أن أراه بينك وبين ملكة فرنسا.

- حسنًا أيها الكاردينال، حسنًا، لكن في غضون ذلك أرسل إليّ محافظ الأختام وأنا سأدخل عند الملكة.

وفتح لوي الثالث عشر الباب المفضي، ودخل الممر المؤدي إلى مخدع آن النمساوية.

كانت الملكة بين صويحباتها؛ السيدة دو غيتو، السيدة دو سابليه، السيدة دو مونبازون، السيدة دو غيميني، وفي إحدى الزوايا كانت هذه الوصيفة الإسبانية

دونا إستيفانيا التي رافقتها من مدريد، بينما كانت السيدة دي غيميني تقرأ، وكان الجميع يستمعون باهتمام للقارئة، باستثناء الملكة التي -على العكس من ذلك- هي التي تعمدت هذه القراءة لتتمكن، وهي تتظاهر بالاستماع، من متابعة خيط أفكارها الخاصة.

هذه الأفكار الذهبيّة التي كانت تتلألأ ببريق الحب الأخير، لم تكن أقل حزنًا، رغم أن آن النمساوية كانت محرومة من ثقة زوجها، وتلاحقها كراهية الكاردينال الذي لم يستطع أن يغفر لها، لأنها صدَّت عاطفته الأكثر ليونة، وقد عذبتها هذه الكراهية في حياتها كلها! على الرغم من أن ماري دو ميديسيس، إذا أردنا أن نصدق مذكرات ذلك الوقت، قد بدأت تمنح الكاردينال العاطفة المرغوب فيها عكس آن النمساوية التي رفضتها دائمًا، ونتيجة لذلك رأت آن النمساوية من حولها تساقط خدمها الأكثر إخلاصًا، وكاتمات أسرارها الحميميات، وأعز صديقاتها، مثل هؤلاء الأشخاص التعساء الذين وهبوا هبة كارثية، جلبت الحظ السيئ لكل من لمسته، وكانت صداقتها علامة قاتلة تستوجب الاضطهاد، وقد شاهدنا أن السيدة دو شيفروز والسيدة دو فيرنيه استبعدتا إلى المنفى؛ كذلك لم يخفِ لابورت عن عشيقته أنه كان يتوقع القبض عليه في أي لحظة.

وأثناء استغراقها في أفكارها العميقة والحالكة، فتح باب الغرفة ودخل الملك.

صمتت القارئة على الفور، ووقفت السيدات كلهن، وساد صمت عميق.

أما الملك فلم يبدِ أي علامة على التهذيب، بل مكث واقفًا أمام الملكة، وقال بصوت لا مبالٍ:

- سيدتي، ستتلقي زيارة من المستشار الذي سيبلغك ببعض الأمور التي كلفته بتنفيذها.

أصبح وجه الملكة التعيسة شاحبًا؛ فبعدما تعرضت باستمرار للتهديد بالطلاق والنفي وحتى المحاكمة، لم تستطع إلا أن تقول:

- لكن لماذا هذه الزيارة يا مولاي؟ ما الذي سيخبرني به المستشار ولا يستطيع

جلالتكم أن يخبرني به بنفسه؟

استدار الملك وعاد أدراجه، وفي اللحظة نفسها أعلن نقيب الحرس السيد دو جيتو عن زيارة المستشار.

عندما ظهر المستشار، كان الملك قد خرج بالفعل من باب آخر.

دخل المستشار مرتبكًا ينتزع ابتسامة ويداري خجلًا؛ فهذا طبعه الذي سنعثر عليه مرة أخرى وعلى الأرجح في سياق هذه الحكاية، وإذن لا حرج أن يعرفه القراء منذ الآن.

كان هذا المستشار رجلًا لطيفًا، من دو روش لو ماسل شانوان في نوتردام. كان في يوم من الأيام خادم الكاردينال، وجده سماحته رجلًا شديد الإخلاص فاعتمد عليه وشعر تجاهه بالرضا.

تُروى عنه بعض القصص ومنها هذه القصة:

بعد أن كان شابًّا ذا عاطفة عاصفة، انعزل إلى دير ليكفر هناك -على الأقل، ولبعض الوقت- عن حماقات المراهقة.

لكن عند دخوله هذا المكان المقدس، لم يستطع المسكين التوبة، فداهمته باستمرار نزواته السابقة التي كان بلا هوادة مهووسًا بها، فأوصاه رئيس الدير الذي كان قد أسرّ له بهذا العار أن يدير مكيدة للشيطان المُغري؛ وذلك باللجوء إلى حبل الجرس وأن يقرعه بصوت عالٍ وعند ضجيج التبليغ، يعلم الرهبان أن الفتنة كانت تحاصر أخًا، فتبدأ الجماعة بأكملها في الصلاة.

للوهلة الأولى بدت النصيحة جيدة بالنسبة للمستشار المستقبلي، فقد تمكّن من محاصرة الروح الشرير بكثرة صلوات الرهبان، لكن الشيطان لا يسمح لنفسه بأن يُطرد بسهولة من المكان الذي احتله عندما تضاعف طرد الأرواح الشريرة، وتضاعفت الإغراءات، بات قرع الجرس لا يتوقف لا في النهار ولا في الليل، مبرزًا الرغبة الشديدة في قهر النفس التي شعر بها التائب.

لم يسترح الرهبان لحظة خلال النهار، كانوا لا يفعلون شيئًا عدا صعود ونزول الدرج المؤدي إلى الكنيسة في الليل، كانوا مضطرين للقفز عشرين مرة من أسرتهم والسجود على أرضية حجيراتهم.

لا ندري إن كان الشيطان من استسلم أم الرهبان هم الذين أنهكوا، ولكن في نهاية ثلاثة أشهر، ظهر التائب مرة أخرى في العالم الخارجي بسمعة أفظع شخصية ممسوسة على الإطلاق.

عند مغادرته الدير، دخل القضاء، وأصبح رئيسًا في قرية مورتييه بدلًا من عمه، وانضم إلى حزب الكاردينال الذي لم يلبث في المحكمة إلا مدة قليلة؛ بحيث أصبح مستشارًا، فخدم سماحته بحماسة في كراهيته للملكة الأم وانتقامه من آن النمساوية؛ أثار حفيظة القضاة في قضية شالي، وشجع محاكمات السيد دو لافيماس، ثم أخيرًا، بعد أن حظي بثقة الكاردينال كلها، وهي الثقة التي اكتسبها جيدًا، جاء لينفّذ المهمة الفريدة التي سيقابل من أجلها الملكة.

كانت الملكة ما تزال واقفة عندما دخل، لكنها لم تلاحظه عندما جلست مرة أخرى على كرسيها، وأوصت صويحباتها بالجلوس مرة أخرى على وسائدهن ومقاعدهن، وبصوت عالٍ سألته آن النمساوية:

- ماذا تريد يا سيدي، ولأي غرض أتيت؟

- قدمت هنا باسم جلالة الملك يا سيدتي، ومع كل الاحترام الواجب لجلالتك، يشرفني أن أفتش تفتيشًا دقيقًا بين أوراقك.

- كيف يا سيدي! تفتش أوراقي... أنا! يا له من تصرف مهين!

- أرجوكِ سامحيني يا سيدتي، لكن في مثل هذا الظرف أنا لست سوى الأداة التي يستخدمها الملك، ألم يخرج جلالة الملك من هنا، ألم يخبركِ بنفسه للاستعداد لهذه الزيارة؟

- فتش يا سيدي، فيبدو أني مجرمة، إستيفانيا، أعطِه مفاتيح منضدتي وخزاناتي.

قام المستشار باطلاع رسمي داخل الأثاث، لكنه كان يعلم جيدًا أن ما يبحث عنه لا يوجد فيه فمن المؤكّد أن تكون الملكة قد حزمت الرسالة المهمة التي كتبتها في ذلك النهار.

عندما أعاد المستشار فتح وإغلاق أدراج الخزانات عشرين مرة، كان من الضروري، مهما كان التردد الذي يشعر به، إنهاء هذه القضية، أي تفتيش الملكة نفسها؛ لذلك تقدم المستشار نحو آن النمساوية، وبنبرة غاية في الحيرة وبحركة شديدة الإحراج، قال:

- والآن، يجب أن أقوم بالتفتيش الرئيس.

- ما هو؟ سألت الملكة التي لم تفهم أو بالأحرى لم ترغب أن تفهم.

- كان جلالة الملك على يقين من أنك كتبت رسالة خلال النهار؛ إنه يعلم أنها لم تبعث بعد إلى عنوانها، وهذه الرسالة ليست في مكتبك ولا في خزاناتك، ومع ذلك فهذه الرسالة موجودة في مكان ما.

قالت آن النمساوية وهي تقف بكبرياء محدجة المستشار بنظرة شبه مهددة:

- هل تجرؤ على لمس ملكتك؟

- سيدتي أنا من رعايا الملك المخلصين، ومهما أمر جلالة الملك سأفعله.

قالت آن النمساوية:

- حسنًا! هذا صحيح، كما خدمه جواسيس الكاردينال بشكل جيد، لقد كتبت رسالة اليوم، هذه الرسالة لم تغادر مكانها البتة والرسالة هناك.

- ومدت الملكة يدها الجميلة إلى صدريتها.

قال المستشار:

- إذن، أعطني هذه الرسالة يا سيدتي.

قالت آن:

- سأعطيها للملك فقط، يا سيدي.

لو أراد الملك تسلم هذه الرسالة يا سيدتي، لطلبها منك بنفسه، لكني أكرر أني أنا الذي كلفه ليطلبها منك، وإذا لم تسلميها...

- حسنًا؟

- أنا مرة أخرى من أمرني بأخذها منك.

- كيف، ماذا تقصد؟

- إن أوامري لا حدود لها يا سيدتي، وتخول لي الحصول على رسالتك

المشبوهة حتى لو كانت مع جلالتك.

صرخت الملكة:

- يا للهول!

- من فضلك يا سيدتي، تصرفي بمرونة أكبر.

- هل تعلم يا سيدي أن هذا سلوك عنيف ومقزز؟

- سامحيني يا سيدتي هذه أوامر الملك.

صرخت الملكة التي ثارت فيها دماؤها الإسبانية والنمساوية:

- لن أتألم منه لا، لا، بل أفضل أن أموت!

انحنى المستشار احترامًا للملكة، لكن بنية واضحة جدًّا ألا يتراجع قيد أنملة عن إنجاز المهمة التي كلف بها، وكما قد يفعل الجلاد في حجرة التحقيق، اقترب من آن النمساوية التي انفجرت عيناها على الفور بعبرات الغضب.

كانت الملكة، كما قلنا، جميلة جدًّا.

لذلك يمكن اعتبار المهمة حساسة، وقد خلص الملك، بسبب غيرته من باكنغهام، ألا يشعر بالغيرة تجاه أي شخص بعد الآن.

لا شك أن المستشار كان يبحث بعينيه في تلك اللحظة عن حبل الجرس الشهير لكنه لم يجده فاتخذ قراره ومد يده إلى حيث اعترفت الملكة بأن الرسالة موجودة.

تراجعت آن النمساوية خطوة إلى الوراء شاحبة وكأنها على وشك الموت، واستندت بيدها اليسرى، حتى لا تسقط على الطاولة خلفها، ثم سحبت بيمينها ورقة من صدرها وسلمتها إلى محافظ الأختام.

صرخت الملكة بصوت مكسور ومرتعش:

- خذ يا سيدي، ها هي ذي الرسالة، خذها وأرحني من حضورك الكريه.

أخذ المستشار الرسالة مرتجفًا ارتجافًا واضحًا، وانحنى حتى لامس الأرض وانسحب.

ما إن أغلق الباب خلفه حتى سقطت الملكة نصف مغمًى عليها بين أحضان وصيفاتها.

نقل المستشار الرسالة إلى الملك دون قراءة كلمة واحدة من محواها، أخذها الملك بيد مرتجفة، وبحث عن العنوان المفقود، فأصبح شاحبًا جدًّا، فتحها ببطء، ثم رأى من الكلمات الأولى أنها موجهة إلى ملك إسبانيا، فقرأ بسرعة كبيرة.

لقد كانت خطة هجومية ضد الكاردينال، دعت الملكة شقيقها وإمبراطور النمسا للتظاهر بأنهم أصيبوا بجروح بسبب سياسة ريشيليو الذي كان همه الأبدي الحط من منزلة النمسا لإعلان الحرب على فرنسا، وفرض إقامة الكاردينال كشرط للسلام، لكن لا أثر للحب، فلم تكن هناك كلمة واحدة في هذه الرسالة كلها.

سأل الملك وهو في غاية السعادة عما إذا كان الكاردينال لا يزال في اللوفر، فقيل

له: إن سماحته كان ينتظر في المكتب أوامر جلالته.

فذهب إليه الملك على الفور.

قال له:

- خذ أيها الدوق، كنت محقًّا، وأنا كنت على خطأ، المؤامرة سياسية كلها، ولم يرد ذكر للحب في هذه الرسالة! لكن في المقابل، الرسالة تعنيك كثيرًا.

أخذ الكاردينال الرسالة وقرأها بأكبر قدر من الاهتمام ثم عندما وصل إلى النهاية، أعاد قراءتها مرة أخرى.

وقال:

- حسنًا! جلالتكم، أنت ترى إلى أي مدى يذهب أعدائي: يهددونك بحربين إذا لم تطردني، في الحقيقة يا سيدي، لو كنت في مكانك لاستسلمت لمثل هذه المناشدات القوية، ومن جانبي سأكون سعيدًا سعادة حقيقية بانسحابي من هذه الشؤون.

- ماذا تقول أيها الدوق؟

- أقول يا سيدي، إنّ صحتي استنزفت في هذه الصراعات المفرطة، وفي هذه الأعمال الأبدية، أقول إنني، على الأرجح، لن أكون قادرًا على تحمل إجهاد حصار لاروشيل، ومن الأفضل أن تعين إما السيد دو كوندي، أو السيد باسومبيير، أو أخيرًا رجلًا شجاعًا قادرًا على شن الحرب وليس أنا، رجل الكنيسة الذي تحيدونه باستمرار عن دعوة الإله لينشغل بأمور لا يصلح لها، ستكون أكثر سعادة في الداخل يا مولاي، وليس لدي شك في أنك ستكون أعظم في الخارج.

قال الملك:

- سيدي الدوق، أنا أفهم، كن مطمئنًا، فكل من ورد اسمه في هذه الرسالة سيعاقب كما يستحق، والملكة أيضًا.

- ماذا تقول يا مولاي؟ ليبرحمني الإله، إن الملكة تعتبرني مصدر إزعاج! لقد اعتقدت دائمًا أنني عدوها، يا مولاي، على الرغم من أن جلالة الملك يمكن أن يشهد بأنني كنت دائمًا أدافع عنها بحرارة، حتى ضدك! لكن إذا خانت جلالتك في شرفه، فسيكون ذلك أمرًا آخر، وسأكون أول من يقول: لا رحمة يا مولاي، ولا رحمة للمذنب! لحسن الحظ لم يكن الأمر كذلك، وها قد حصل جلالتك توًّا على دليل جديد.

قال الملك:

- هذا صحيح سيدي الكاردينال، وأنت محق، كما هو الحال دائمًا، لكن الملكة تستحق غضبي كله.

- لكن أنت يا مولاي من تكبدته، وصدقًا، أتفهم ذلك؛ لأن الملكة إن كانت مستاءة جدًّا من جلالتك؛ فلأنك تعاملها بقسوة!

- هذه هي الطريقة التي أُعامل بها أعدائي دائمًا وأعداءك أيها الدوق، مهما كانت مكانتهم، مهما كان الخطر فإني سأتعامل معهم بقسوة.

- إن الملكة عدوي، لكنها ليست عدوك، وهي على العكس من ذلك، فهي زوجة مخلصة ومطيعة وفوق الشبهات؛ لذلك اسمح لي يا مولاي أن أشفع لها عند جلالتكم.

- إذن فلتعترف بذنبها، وتعد إليّ أولًا!

- على العكس من ذلك يا مولاي، كن قدوة؛ فأنت من أخطأ أولًا؛ لأنك شككت بها.

قال الملك:

- أنا أعود أولًا؟ أبدًا!

- مولاي، أتوسل إليك.

- علاوة على ذلك، كيف سأعود أولًا؟

- أن تقوم بشيء تحبه.

- مثل ماذا؟

- أقم حفلًا راقصًا، أنت تعرف كم تحب الملكة الرقص؛ وأؤكد لكم أن استياءها لن يصمد أمام اهتمام مماثل.

- سيدي الكاردينال، أنت تعرف أنني لا أحب الملذات الدنيوية كلها.

- ستكون الملكة أكثر امتنانًا لك لأنها تعرف مدى كراهيتك لهذه المتعة، إلى جانب ذلك ستكون فرصة كي ترتدي تلك الأزرار الماسية الجميلة التي قدمتها لها يوم حفلتها، ولم تسنح لها الفرصة لتزدان بها.

بدا الملك وهو في غمرة فرحه بإيجاد الملكة مذنبة بجريمة لم يكن يهتم بها كثيرًا، وبريئة من خطأ كان يخشاه بشدة مستعدًّا للتصالح معها، فقال:

- سنرى سيدي الكاردينال، سنرى... سنرى، ولكن، أنت متسامح جدًّا.

قال الكاردينال:

- يا سيدي، اترك القسوة للوزراء، أما التسامح فإنه فضيلة الملوك، استخدمه، وسترى أنه حسن.

عندئذٍ سمع الكاردينال ضربات الساعة الحادية عشرة، فانحنى باحترام شديد، وطلب الإذن من الملك للانصراف، متوسلًا إليه أن يتصالح مع الملكة.

كانت آن النمساوية تتوقع العتاب بعد الاستيلاء على رسالتها، كانت في منتهى الذهول عندما جاء الملك لرؤيتها في اليوم التالي محاولًا التصالح معها. كانت ردة فعلها الأولى النفور، فقد تعرض كبرياؤها وكرامتها كملكة للإهانة القاسية لدرجة أنها لم تستطع التغاضي، ولكن بعد أن تمكّنت وصيفاتها من إخماد غضبها، بدت أخيرًا كأنها تناست الأمر؛ فاستغلّ الملك هذه اللحظة ليخبرها بأنه قرر إقامة حفل

راقص.

كان من النادر الاحتفاء بالمسكينة آن النمساوية، وكان لهذا الإعلان، كما كان يعتقد الكاردينال، مفعولًا سحريًّا فقد اختفى أثر استيائها الأخير إن لم يكن من قلبها، فعلى الأقل تبدّد عن وجهها، سألت في أي يوم سيقام هذا الحفل، لكن الملك أجاب بأن الضروري أن يتوصل إلى تفاهم بشأن هذه النقطة مع الكاردينال.

في الواقع، كان الملك يسأل الكاردينال كل يوم في أي وقت سيعقد هذا الحفل؟ وكل يوم كان الكاردينال، تحت أي ذريعة، يؤجل موعده.

هكذا مرت عشرة أيام.

في اليوم الثامن بعد المشهد الذي تحدثنا عنه، تلقّى الكاردينال خطابًا مختومًا من لندن يحتوي على هذه الأسطر القليلة فحسب:

«هي بحوزتي، لكني لا أستطيع مغادرة لندن، لأنني أفتقد المال، أرسل لي خمسمئة بيستول، وبعد أربعة أو خمسة أيام من استلامها، سأكون في باريس».

في اليوم نفسه الذي تلقّى فيه الكاردينال هذه الرسالة، وجّه إليه الملك سؤاله المُعتاد.

عدّ ريشيليو أصابعه وهمس في خاطره:

- قالت إنها ستصل بعد أربعة أو خمسة أيام من استلام المال، سيستغرق الأمر أربعة أو خمسة أيام حتى يصلها المال، وأربعة أو خمسة أيام حتى تعود، أي عشرة أيام، الآن دعونا نأخذ في الاعتبار الرياح المعاكسة، وسوء الحظ، ونقاط ضعف المرأة، ونحدد الموعد بعد اثني عشر يومًا.

قال الملك:

- حسنًا! سيدي الدوق، هل حسبت؟

- نعم، يا مولاي، اليوم هو 20 سبتمبر، وأعضاء مجلس البلدية في المدينة يقيمون حفلًا في 3 أكتوبر، وسيكون هذا مناسبًا بشكل رائع، حيث لن يبدو الأمر وكأنّك ستعود إلى الملكة.

ثم أضاف الكاردينال:

- بالمناسبة يا سيدي، لا تنسَ أن تخبر جلالة الملكة في اليوم السابق لهذا العيد أنك تريد أن تراها مزدانة بماساتها الكريمة.

17

حياة البوناسيو الزوجية

كانت هذه هي المرة الثانية التي يتحدَّث فيها الكاردينال عن الماسات مع الملك، لذلك صُدم لوي الثالث عشر بهذا الإصرار، واعتقد أن هناك لغزًا وراء هذه التوصية.

لقد تعرّض الملك للإهانة أكثر من مرة لأن الكاردينال -الذي كانت شرطته ممتازة، على الرغم من أنها لم تصل بعد إلى كمال الشرطة الحديثة- كان على دراية أفضل منه بما يجري في قصره؛ لذلك كان يأمل أثناء محادثته مع آن النمساوية، أن يحصل على بعض المعلومات ثم يعود إلى سماحته ببعض الأسرار التي يعرفها الكاردينال أو لا يعرفها، وفي كلتا الحالتين، ستؤدي إلى زيادة رفعته ودرايته بشؤونه أمام وزيره.

فهرع إلى الملكة، وكعادته، بادرها بتهديدات جديدة موجهة إلى حاشيتها، فطأطأت آن النمساوية رأسها، وتركت سيل الغضب يتدفق دون إجابة، راجية من قلبها أن يتوقف في النهاية، لكن لم يكن هذا ما أراده لوي الثالث عشر؛ لقد أراد لوي الثالث عشر من المناقشة أن يضيء ظلمة اللغز، مقتنعًا أن الكاردينال يملك دافعًا خفيًّا، ولا ريب في أنه يهيئ له مفاجأة رهيبة، لأن سماحته يعرف كيف يصنعها، وقد وصل إلى هذا المقصد بإصراره على الاتهام.

صرخت آن النمساوية، التي سئمت من هذه الهجمات الغامضة:

- لكن... ولكن يا مولاي، أنت لا تخبرني بما في قلبك كله، ماذا فعلت؟ لنرَ، ما الجريمة التي ارتكبتها؟ من المستحيل أن تحدث جلالتك هذه الضجة كلها حول رسالة مكتوبة إلى أخي.

عندما هوجم الملك بدوره بطريقة أكثر مباشرة، لم يعرف بماذا يجيب، فاعتقد أن هذا هو الوقت المناسب لتقديم التوصية التي كان يجب أن يقدمها في اليوم السابق للحفلة فقط.

قال جلالته:

- سيدتي، ستكون هناك حفلة في قصر البلدية قريبًا، ومن أجل تكريم أعضائنا الشجعان، ستظهرين هناك في لباس احتفالي، مزينًا على الخصوص بأزرار الماس التي أهديتك إياها في عيدك، هذا هو جوابي.

كان الجواب رهيبًا، إذ اعتقدت آن النمساوية أن لوي الثالث عشر يعرف كل شيء، وأن الكاردينال قد عرف أيضًا من خلال هذه المواربة الطويلة التي دامت سبعة أو ثمانية أيام، أصبحت الملكة في منتهى الشحوبة، واستندت بيدها الجميلة بشكل مثير للإعجاب، والتي بدت بعد ذلك مثل يد مصنوعة من الشمع، ونظرت إلى الملك بعينين مرعوبتين، عاجزة عن النطق.

قال الملك وقد استمتع بهذا الإحراج إلى أقصى حدوده، لكن دون أن يخمّن السبب:

- هل تسمعين يا سيدتي، هل تسمعين؟

- نعم يا مولاي، أسمعكم. تلعثمت الملكة.

- هل ستحضرين الحفل الراقص؟

- نعم.

- مع عقْدك الماسي؟

- نعم.

ازداد شحوب الملكة، ولو كان ذلك ممكنًا، للاحظه الملك واستمتع بتلك القسوة الباردة التي كانت أحد الجوانب السيئة في شخصيته.

قال الملك:

- إذًا اتفقنا، وهذا كل ما أردت أن أخبرك به.

- لكن في أي يوم ستقام هذه الحفلة؟ سألت آن النمساوية.

شعر لوي الثالث عشر غريزيًّا أنه لا يجب أن يجيب على هذا السؤال، فقد تحدثت الملكة بصوت من في نزعه الأخير.

قال:

- لكن قريبًا جدًا يا سيدتي، لكني لم أعد أذكر التاريخ المحدد، سأطلب من الكاردينال ذلك.

صرخت الملكة:

- إذن الكاردينال من أخبرك عن هذا الحفل؟

أجاب الملك مندهشًا:

- نعم يا سيدتي، ولكن لمَ هذا السؤال؟

- هل هو مَن طلب منك دعوتي للظهور بالعقد؟

- وماذا تعنين يا سيدتي...

- هو يا مولاي، إنه هو.

- حسنًا! هل يهم إن كان هو أم أنا؟ هل هناك جريمة في هذه الدعوة؟

- لا يا مولاي.

- إذًا سوف تحضرين بأبهى حلّة؟

- نعم يا مولاي.

- هذا جيد، قال الملك وهو ينسحب، هذا جيد، أنا أعتمد عليكِ.

انحنت الملكة احترامًا ليس مجاملة، وإنما لشعورها بقصف ركبتيها.

غادر الملك مغتبطًا.

- لقد هلكت، تمتمت الملكة، ضعت تمامًا، لأن الكاردينال يعرف كل شيء، وهو الذي يدفع الملك الذي لا يعرف شيئًا بعد، لكنه سيعرف كل شيء قريبًا، أنا هلكة لا محالة! يا إلهي! يا إلهي! يا إلهي!

ركعت على وسادتها وصلت ورأسها مدفون بين ذراعيها النابضتين.

في الواقع، كان الموقف فظيعًا، كان باكنغهام قد عاد إلى لندن، وكانت السيدة دو شيفروز في مدينة تور، كانت الملكة مراقبة أكثر من أي وقت مضى، شعرت خلسة أن إحدى وصيفاتها تخونها، دون أن تتعرف إلى هويتها، لم يستطع لابورت مغادرة اللوفر، وما عادت تثق في أي كائن في العالم.

لذلك، في مواجهة المحنة التي هددتها ومعاناتها من التخلّي، انفجرت بالبكاء.

فجأة قال صوت مليء بالرفق والشفقة:

- هل يمكنني إذًا أن أكون مفيدة لجلالتك؟

التفتت الملكة من حولها، لا يمكن أن تخطئ بخصوص هذا الصوت؛ لقد كانت صديقة من تحدث هكذا.

ظهرت السيدة بوناسيو الجميلة فعلًا على أحد الأبواب المؤدية إلى مخدع الملكة، كانت مشغولة بترتيب الفساتين والملابس الداخلية في الخزانة عندما دخل الملك، فلم تستطع الخروج، وبذلك سمعت كل شيء.

أطلقت الملكة صرخة خارقة على إثر اندهاشها، لأن ارتباكها حال دون التعرف إلى الشابة التي قدمها لها لابورت.

قالت الشابة وهي تضم يديها باكية على معاناة الملكة:

- أوه! لا تخافي يا سيدتي، أنا في خدمة جلالتك جسدًا وروحًا، ومهما كان ضعفي، ومهما كانت مكانتي متدنية، أعتقد أنني وجدت طريقة لإنقاذ جلالتك.

- أنتِ! يا إلهي! أنتم! صاحت الملكة، ولكن انظري إلى وجهي، لقد تعرضت للخيانة من الجهات جميعها، هل يمكنني أن أثق بك؟

- أوه! سيدتي! هتفت الشابة، وسقطت على ركبتيها: روحي فداك، أنا على استعداد للموت من أجل جلالتك!

نبعت هذه الصرخة من أعماق قلبها، ومثل الأولى، لم يكن هناك شك فيها.

- نعم، تابعت السيدة بوناسيو، نعم، يوجد خونة هنا، لكن، أقسم لك إنه لا يوجد أحد أكثر مني إخلاصًا لجلالتك، تلك الماسات التي يطالبك بها الملك، أعطيتها لدوق باكنغهام، أليس كذلك؟ هل كانت تلك الماسات موضوعة في صندوق صغير من خشب الورد كان يحمله تحت ذراعه؟ لست مخطئة أليس كذلك؟

- آه! يا إلهي! يا إلهي! همست الملكة، وأسنانها تصطك خوفًا.

- حسنًا! واصلت السيدة بوناسيو، يجب أن نستعيدها.

صرخت الملكة:

- نعم، بلا شك، يجب أن يحدث ذلك، ولكن كيف نفعل ذلك، وكيف نصل إلى هناك؟

- يجب أن نرسل شخصًا إلى الدوق.

- لكن من؟ من؟ بمن يمكنني أن أثق؟

- ثقي بي يا سيدتي؛ امنحيني هذا الشرف يا ملكتي وأنا سأجد الرسول.

- لكن علينا أن نكتب رسالة!

- أوه! نعم، هذا ضروري، كلمتان بخط جلالتك وختمك الخاص.

- لكن هاتين الكلمتين هما دليل على إدانتي، إنها الطلاق والمنفى!

- نعم، إذا وقعا في أيدٍ دنيئة! لكنني أعدك أن هاتين الكلمتين لن يسلّما إلا إلى عنوانهما.

- آه! يا إلهي! هل يجب إذًا أن أضع حياتي وشرفي وسمعتي بين يديكِ!

- نعم! نعم سيدتي، هذا ضروري، وأنا سأنفذ ذلك كله!

- ولكن كيف؟ قولي على الأقل.

- أطلق سراح زوجي منذ يومين أو ثلاثة، لم يتح لي الوقت لرؤيته بعد، إنه رجل شجاع وصادق لا يكره ولا يحب أحدًا، سيفعل ما أريد، سيغادر بأمر مني، دون أن يعرف ما يفعله، وسوف يسلم خطاب جلالتك، دون أن يعرف أنه من جلالتك، إلى العنوان الذي تشيرين إليه.

أمسكت الملكة كلتا يدي الشابة بحماسة شديدة، ونظرت إليها كما لو أنها تسبر أعماق قلبها، لم ترَ إلا الصدق في عينيها الجميلتين، فحضنتها بحنان.

وهتفت الملكة:

- افعلي ذلك، وستنقذين حياتي، وتصونين شرفي!

- حسنًا، لا تبالغي إن سعادتي في خدمتك، لا أملك ما ينقذ جلالتك، لأنك فقط ضحية مؤامرات غادرة.

- هذا صحيح، هذا صحيح يا بنيتي، قالت الملكة، وأنتِ محقّة.

- سيدتي، أعطني الرسالة، لأن الوقت يداهمنا.

ركضت الملكة إلى مكتبها الصغير حيث الحبر والورق والريشة؛ فكتبت سطرين، وختمت الرسالة بختمها، وأعطتها للسيدة بوناسيو.

قالت الملكة:

- والآن، نسينا شيئًا ضروريًّا.

- ما هو؟

- المال.

تورّد وجه السيدة بوناسيو خجلًا:

- نعم هذا صحيح وسأعترف لجلالة الملكة أن زوجي...

- زوجك لا يملك مالًا، هذا ما تعنيه.

- يملك مالًا، لكنه بخيل جدًّا، هذا عيبه، لكن جلالتك لا تقلقي، سنجد طريقة...

- أنا أيضًا ليس بحوزتي مال، قالت الملكة (أولئك الذين قرؤوا مذكرات السيدة دو موتفيل ولن يفاجؤوا بهذه الإجابة)، لكن انتظري.

ركضت آن النمساوية إلى علبة مجوهراتها.

وقالت:

- خذي هذا خاتم ثمنه باهظ، حسب ما يؤكدون، إنه من أخي ملك إسبانيا، وهو ملكي ويمكنني التخلّص منه، خذي هذا الخاتم واكسبي بعض المال من بيعه، وليذهب زوجك.

- السمع والطاعة، في غضون ساعة سيكون كل شيء على ما يرام.

أضافت الملكة وهي تتحدث بصوت منخفض لدرجة أنها بالكاد سمعت مـــا

كانت تقوله: «إلى اللورد دوق باكنغهام في لندن».

- ستسلم الرسالة إليه شخصيًّا.

- صبية كريمة! هتفت آن النمساوية.

قبّلت السيدة بوناسيو يدي الملكة، وأخفت الورقة في صدريتها واختفت بخفة طائر.

بعد عشر دقائق كانت في منزلها، وكما أخبرت الملكة فهي لم ترَ زوجها منذ إطلاق سراحه، لهذا لم تكن على دراية بالتغيير الذي حدث له بعد لقائه بالكاردينال، وهو التغيير الذي أحدثه إطراء سماحته وماله، والذي تم تأكيده منذ ذلك الحين بزيارتين أو ثلاث زيارات للكونت روشفور، فأصبح أفضل صديق لبوناسيو، الذي جعل الناس يعتقدون بسهولة أنه لم يكن هناك شعور بالذنب من اختطاف زوجته، لكن ذلك كان مجرد إجراء سياسي احترازي.

وجدت السيد بوناسيو بمفرده؛ كان الرجل المسكين يواجه صعوبة كبيرة في إعادة النظام إلى المنزل، إذ وجد أثاثه مكسورًا تقريبًا والخزائن شبه فارغة، ألم يكن العدل أحد الأشياء الثلاثة التي قالها الملك سليمان مشيرًا إلى ضرورة عدم ترك أي أثر لمرور الغزاة، أما الخادمة فقد هربت عندما ألقي القبض على سيدها، إذ استولى الذعر على الفتاة المسكينة لدرجة أنها هربت سيرًا على الأقدام من باريس إلى بورغون، موطنها الأصلي.

وبمجرد عودته إلى منزله، أبلغ تاجر الخردوات المحترم زوجته بعودته السعيدة، فردت زوجته لتهنئته وإخباره أنها ستختلس أقرب لحظة مواتية من واجباتها وستأتي لزيارته.

تأخّرت هذه اللحظة المواتية خمسة أيام، والتي -تحت أي ظرف آخر- كانت ستبدو طويلة بعض الشيء، بالنسبة للسيد بوناسيو، ولكن في الزيارة التي قام بها إلى الكاردينال وفي الزيارات التي حضر فيها روشفور إلى بيته، كان يشغل تفكيره موضوع كبير، وكما تعلم، لا شيء يمضي الوقت مثل التفكير.

خاصة وأن أفكار بوناسيو كانت كلها سعيدة ووردية، فأصبح روشفور يناديه بصديقه، وعزيزه بوناسيو، واستمر في إخباره أن الكاردينال يثني عليه، فشاهد بائع الخردوات نفسه قطعًا على طريق التكريم والثروة.

من جانبها، كانت السيدة بوناسيو قد فكرت في الأمر، ولكن يجب أن نقول إنها فكرت بذلك بطريقة مختلفة تمامًا لطموح زوجها، فقد كانت رغمًا عنها منساقة وراء أفكار مثالية عن هذا الشاب الوسيم الشجاع العاشق على ما يبدو، تزوّجت في الثامنة عشر من السيد بوناسيو وعاشت دومًا بين أصدقاء زوجها، ومن غير المرجح أن تثير أي شعور في امرأة شابة كان قلبها أسمى من وضعها، ظلّت السيدة بوناسيو غير مبالية بالإغراءات المبتذلة، ولكن في هذا الوقت على وجه الخصوص، كان للقب السيد النبيل تأثير كبير على البورجوازية، وكان دارتانيان رجلًا نبيلًا، علاوة على ذلك، كان يرتدي بزّة الحراس، والتي كانت تعد بزّة الفرسان، الأكثر تقديرًا بين السيدات، نكرر ذلك، كان دارتانيان وسيمًا، وشابًّا، ومغامرًا، يتحدث عن الحب كرجل يحب ومتعطشًا إلى أن يكون محبوبًا، كان ثمة ما يكفي لاستمالة قلب فتاة تبلغ من العمر ثلاثة وعشرين عامًا(39)، وكانت السيدة بوناسيو قد بلغت لتوها هذا العمر السعيد من الحياة.

على الرغم من أن الزوجين لم يلتقيا منذ أكثر من ثمانية أيام، وخلال ذلك الأسبوع مرت أحداث جسيمة بينهما، إلا أنه اقترب كل منهما من الآخر بشعور مشوب بالقلق، لكن السيد بوناسيو أظهر فرحًا حقيقيًّا وأقبل على زوجته بذراعين مفتوحتين.

فقدمت السيدة بوناسيو جبهتها له.

وقالت:

- دعنا نتحدث قليلًا.

- كيف؟ قال بوناسيو مندهشًا.

- نعم، بلا شك لدي شيء في غاية الأهمية لأخبرك به.

- بالمناسبة، أنا أيضًا لدي بعض الأسئلة الجادة لك، من فضلك اشرحي لي قليلًا عن اختطافك.

قالت السيدة بوناسيو:

- لا يتعلق الأمر بذلك في الوقت الحالي.

- وبماذا يتعلق الأمر؟ هل باعتقالي؟

- علمت بذلك في اليوم نفسه، لكنك لم تكن مذنبًا بأي جريمة، ولا شريكًا في أي مكيدة، ولا تعرف شيئًا في النهاية يمكن أن يعرضك للخطر، لا أنت ولا أي شخص آخر، لهذا لم أولِ هذا الحدث الأهمية التي يستحقها.

- أنت تتحدثين عنها بسهولة يا سيدتي! أجاب بوناسيو، متألمًا بسبب لامبالاة زوجته، هل تعلمين أني غصت ذات يوم وليلة داخل زنزانة في الباستيل؟

- لكن سرعان ما مر اليوم والليلة، فلنترك اعتقالك جانبًا، ونعود إلى ما سيفرحني منك.

- كيف؟ ما الذي سيفرحك مني؟! أليست الرغبة في رؤية زوج انفصلت عنه منذ ثمانية أيام؟ سأل تاجر الخردوات، وكأنها أصابته في وتر حساس.

- هذا أولًا، ثم هناك شيء آخر.

- تكلمي!

- شيء مرتبط بالمصلحة العليا، ربما قد تعتمد عليه ثروتنا المستقبلية.

- لقد تغيرت حظوظنا كثيرًا منذ أن رأيتك يا سيدة بوناسيو، ولن أتفاجأ إذا أصبحنا بعد بضعة أشهر من الآن مصدر غيرة الكثير من الناس.

- نعم، خاصة إذا أردت اتباع التعليمات التي سأقدمها لك.

- لي؟

- نعم لك؛ هناك عمل جيد ومقدس يجب القيام به يا سيدي، وستجني منه في الوقت نفسه الكثير من المال.

عرفت السيدة بوناسيو أنها عندما ستحدث زوجها عن المال، فإنها ستمسكه من نقطة ضعفه.

ولكن الرجل، حتى لو كان بائع خردوات، فعندما تجاذب أطراف الحديث مدة عشر دقائق مع الكاردينال ريشيليو، لم يعد الرجل نفسه.

- ربح الكثير من المال! قال بوناسيو وهو يمطط شفتيه.

- نعم، كثيرًا.

- كم تقريبًا؟

- ربما ألف بيستول.

- إذن ما تطلبينه جاد جدًّا!

- نعم.

- ما الذي يجب إنجازه؟

- ستغادر على الفور، وسأعطيك ورقة لن تتخلّى عنها تحت أي ظرف من الظروف، بعد ذلك ستسلمها إلى شخص.

- وأين سأذهب؟

- إلى لندن.

- أنا أذهب إلى لندن! هيا، أنت تمزحين، ليس لدي عمل في لندن.

- لكن الآخرين يريدونك أن تذهب.

- من هم هؤلاء الآخرون؟ أنا أحذرك، فأنا لم أعـــــــد أفعل أي شيء مغمض

العينين، وأريد أن أعرف ليس ما أعرض نفسي له فحسب، بل من أعرض نفسي للخطر من أجله أيضًا.

- يرسلك شخص مرموق إلى شخص مرموق سيكون في انتظارك، والمكافأة ستفوق رغباتك، هذا كل ما يمكنني أن أقوله لك.

- مؤامرات أخرى، دائمًا المؤامرات، شكرًا لك، أنا أعترض الآن، وقد وضح لي السيد الكاردينال كل شيء.

- الكاردينال! صرخت السيدة بوناسيو، هل رأيت الكاردينال؟

رد بائع الخردوات بفخر:

- لقد استدعاني.

- واستسلمت لدعوته، يا لك من متهور.

- يجب أن أعترف أني لم أكن مخيرًا، لأنني كنت بين حارسين، ومن الصواب أيضًا أن أقول، بما أنني لم أكن أعرف سماحته آنذاك، فلو كنت قادرًا على الاستغناء عن هذه الزيارة، لكنت سعيدًا جدًّا.

- إذًا أساء معاملتك؟ هل هددك؟

- لقد صافحني وناداني بصديقه، هل تسمعين يا سيدتي؟ صديقه! أنا صديق الكاردينال العظيم!

- الكاردينال العظيم!

- هل تعترضين على هذا اللقب يا سيدتي؟

- أنا لا أجادل في أي شيء، لكني أقول لك إن نعمة الوزير آخذة في الزوال، ويجب أن تكون مجنونًا لترتبط بوزير؛ هناك قوى فوق قوته لا تستند إلى نزوة الرجل أو نتيجة حدث، ومع هذه القوى يجب أن نتحالف.

- أنا آسف يا سيدتي، لكني لا أعرف قوة أخرى غير قوة الرجل العظيم الذي أتشرف بخدمته.

- هل تخدم الكاردينال؟

- نعم يا سيدتي، وما دمت خادمه فلن أسمح لك بالتورط في مؤامرات ضد أمن الدولة، وأن تخدمي من أجل مؤامرات امرأة ليست فرنسية وذات قلب إسباني، لحسن الحظ، فإن الكاردينال العظيم موجود هنا، ونظراته الساهرة تُراقب وتخترق أعماق القلب.

كرر بوناسيو جملة سمعها من الكونت روشفور كلمة كلمة، لكن المرأة المسكينة التي كانت تعتمد وتأمل في زوجها ومن أجل ذلك وعدت على الملكة، لم تجفل البتة، ومن الخطر الذي كادت أن تلقي بنفسها في براثنه، والعجز الذي كانت تشعر به، لكن بالرغم من علمها بضعف زوجها وخاصة جشعه، لم تيأس من أن تصل وإياه إلى النهاية.

صاحت:

- آه يا سيدي! أنت كارديناليّ؛ آه! صرت تخدم العصبة التي تسيء لزوجتك وتهين ملكتك!

قال بوناسيو بشكل قاطع:

- لا قيمة للمصالح الخاصة أمام مصالح الجميع، أنا مع أولئك الذين ينقذون الدولة.

كان هذا اقتباسًا آخر من كونت روشفور، كان قد احتفظ به ووجد فرصة لتوظيفه.

- وهل تعرف ما معنى الدولة التي تتحدث عنها؟ قالت السيدة بوناسيو وهي تهز كتفيها، كن قانعًا بأن تكون برجوازيًّا دون أي براعة، والتفت إلى الجانب الذي يوفر لك أكبر قدر من المزايا.

- مهلًا مهلًا! قال بوناسيو وهو يطرق كيسًا ذا جوف مستدير، فأصدر رنينًا نقديًّا، ماذا تقولين بخصوص هذا يا سيدتي الواعظة؟

- من أين أتيت بهذا المال؟

- ألا يمكنك التخمين؟

- من الكاردينال!

- منه ومن صديقي الكونت روشفور.

- كونت روشفور! لكنه هو من اختطفني!

- قد يكون يا سيدتي.

- وتقبل المال من هذا الرجل؟

- ألم تقولي أن هذا الاختطاف كان سياسيًّا؟

- نعم، لكن الغرض من هذا الاختطاف هو إجباري على خيانة سيدتي، وتعذيبي من أجل اعترافات من شأنها المساس بشرف سيدتي المهيبة وحياتها.

أجاب بوناسيو:

- سيدتي، عشيقتك المهيبة هي إسبانية غادرة، وما يفعله الكاردينال جيد.

قالت المرأة الشابة:

- يا سيدي، كنت أعرف أنك جبان وبخيل وغبي، لكنني لم أكن أعلم أنك دنيء!

قال بوناسيو الذي لم يسبق له أن رأى زوجته غاضبة:

- سيدتي، سيدتي ماذا تقولين؟

- أقول إنك حقير! واصلت السيدة بوناسيو، التي رأت أنها كانت تستعيد بعض التأثير على زوجها، آه! أنت منخرط في السياسة! والسياسة الكاردينالية مـــــــرة

أخرى! حسنًا! أنت تبيع نفسك جسدًا وروحًا للشيطان مقابل المال.

- لا، للكاردينال فحسب.

- إنه الشيء نفسه! صرخت الشابة، من يذكر ريشيليو، يتحدث عن الشيطان.

- اخرسي يا سيدتي، اصمتي، يمكن سماعك!

- نعم، أنت محق، وسأخجل من جبنك.

- مهلًا! ولكن ماذا تطلبين مني؟

- أخبرتك أن تغادر فورًا يا سيدي، أن تقوم بإخلاص بإنجاز المهمة التي كلفتك بها، وفي هذه الحالة سأنسى كل شيء، وأسامحك، وهناك المزيد -مدت يدها- سأمنحك محبتي.

كان بوناسيو جبانًا وخسيسًا، لكنه يحب زوجته، لقد تأثر، لن يحمل رجل في الخمسين ضغينة تجاه امرأة في الثالثة والعشرين فترة طويلة، رأت السيدة بوناسيو تردده فقالت:

- هيا، هل اتخذت قرارك؟

- لكن يا عزيزتي الحبيبة، فكري قليلًا فيما تطلبينه مني؛ لندن بعيدة عن باريس، بعيدة جدًّا، وربما لا تخلو المهمة التي كلفتني بها من مخاطر.

- مهما كانت، إذا تجنبتها!

- أصغي يا سيدة بوناسيو، قال بائع الخردوات، أرفض بالتأكيد، لأن المؤامرات تخيفني! رأيت الباستيل بنفسي، الباستيل فظيع! مجرد التفكير في الأمر يصيبني بالقشعريرة، هددوني بالتعذيب، هل تعرفين ما هو التعذيب؟ أسافين خشبية تدفع بين ساقيك حتى تفجير عظامك! لا، بالتأكيد لن أذهب، وسحقًا! لماذا لا تذهبين بنفسك؟ لأنني كنت في الحقيقة مخطئًا بشأنك حتى الآن، أعتقد أنكِ رجل، ويا لك من رجل مسعور!

- وأنت امرأة، امرأة بائسة، غبية ومغفلة، آه! أنت خائف! حسنًا! إذا لم تغادر على الفور فسوف أوقفك بأمر من الملكة، وسأضعك في الباستيل الذي تخشاه بشدة.

غرق بوناسيو في تفكير عميق، كان يزن بشكل ناضج بين الغضب في دماغه، وغضب الكاردينال وغضب الملكة، لكن غضب الكاردينال يشكل خطرًا هائلًا.

قال:

- اعتقليني نيابة عن الملكة، وسأشتكي إلى سماحته.

وفجأة، رأت السيدة بوناسيو أنها قد ذهبت بعيدًا جدًّا، فشعرت بالفزع لأنها تقدمت بعيدًا إلى الأمام، وحدقت لحظة برعب في هذا الوجه الغبي، الذي يشبه الحمقى الخائفين، وقالت بعزم لا يقهر:

- حسنًا، فليكن، ربما في النهاية أنت محق؛ الرجل يعرف أكثر من النساء في السياسة، وقبل كل شيء أنت السيد بوناسيو الذي تحدث مع الكاردينال. وأضافت أنه من الصعب للغاية أن يعاملني زوجي الرجل الذي اعتقدت أنه يمكنني الاعتماد على عاطفته، معاملة مشينة للغاية ولا يرضي خيالي الجامح.

أجاب بوناسيو منتصرًا:

- هذا لأن تخيلاتك يمكن أن تقودنا إلى ما لا تحمد عقباه.

قالت الشابة وهي تتنفس الصعداء:

- لذلك سأتخلى عن الأمر، هذا جيد، دعنا نتوقف عن الحديث عنه.

تابع بوناسيو متذكرًا بشكل متأخر أن روشيفور أوصاه بمحاولة كشف أسرار زوجته.

- إذا أخبرتني على الأقل بما كنت سأفعله في لندن.

قالت الشابة مستدركة وهي تشعر الآن بارتياب غريزي:

- من غير المجدي أن تعرف ذلك، لقد كان شأنًا تافهًا كما تشتهي النساء بخصوص مشتريات يمكن أن يكون مكسبها كبيرًا.

لكن كلما دافعت الشابة عن نفسها، كان بوناسيو يعتقد على العكس من ذلك أن السر الذي رفضت أن تكشفه مهم، لذلك قرر أن يركض فورًا إلى الكونت روشفور، ويخبره أن الملكة تبحث عن رسول لبعثه إلى لندن.

وقال:

- أعتذر إذا تركتك يا سيدة بوناسيو، لكن لم أكن أعلم أنك ستأتين لرؤيتي، فحددت موعدًا مع صديق لي؛ سأعود الآن، وإذا كنت تريدين الانتظار نصف دقيقة فقط، فبمجرد أن أنهي موعدي مع هذا الصديق سأعود لاصطحابك، ولأن الوقت قد فات سأوصلك إلى قصر اللوفر.

ردت السيدة بوناسيو:

- أشكرك سيدي، أنت لست شجاعًا بما يكفي لتكون مفيدًا لي، سأعود إلى اللوفر بمفردي.

- كما يحلو لك سيدة بوناسيو، هل سأراك قريبًا؟

- دون شك؛ آمل أن تتيح لي خدمتي الأسبوع المقبل بعض الحرية، وسأغتنم هذه الفرصة لأعود لترتيب شؤوننا التي قد أصابها الاضطراب قليلًا.

- هذا جيد، وأنا سأنتظرك، أرجو ألا تعاتبيني..

- أنا! إطلاقًا.

- أراك لاحقًا إذًا..

- إلى اللقاء..

قبّل بوناسيو يد زوجته وابتعد بسرعة.

قالت السيدة بوناسيو عندما أغلق زوجها باب المنزل ووجدت نفسها بمفردها:

- هيا؛ كان الشيء الوحيد الذي ينقص هذا الأحمق أن يصير كاردينالًيا! وأنا التي وعدت الملكة، أنا التي وعدت سيدتي المسكينة... آه! يا إلهي، يا إلهي! ستحسبني واحدة من أولئك البائسات المحتشدات في القصر اللائي وضعن بالقرب منها للتجسس عليها! آه يا سيد بوناسيو! لم أحبك كثيرًا قط، والآن الأمر أسوأ بكثير، أنا أكرهك، وأقسم أنك ستدفع الثمن.

وفي اللحظة التي قالت هذه الكلمات، نبّهتها طرقة على السقف فرفعت رأسها، وصاح صوت وصلها من السقف الخشبي:

- عزيزتي السيدة بوناسيو، افتحي لي الباب الصغير في الممر، وسوف أنزل بجوارك.

18

العاشق والزوج

قال دارتانيان وهو يدخل من الباب بعدما فتحته المرأة الشابة:

- حسنًا، اسمحي لي أن أقول لك إن زوجك شخص بائس.

- إذن سمعت حديثنا؟ سألت السيدة بوناسيو وهي ترمق دارتانيان بقلق.

- كله.

- يا إلهي! لكن كيف فعلت ذلك؟

- من خلال إجراء معهود، سمعت من خلاله المحادثة المشحونة التي وقعت بينك وبين أتباع الكاردينال.

- وماذا فهمت مما قلناه؟

- أشياء عديدة، أولًا أن زوجك أحمق وغبي، ولحسن الحظ، ثم أنك شعرت بالحرج، وهو ما جعلني أكون سعيدًا جدًّا، لأن هذا سيمنحني فرصة لأضع نفسي في خدمتك، والإله يعلم أني مستعد لإلقاء نفسي في النار من أجلك، وأخيرًا، تحتاج الملكة إلى رجل شجاع وذكي ومخلص للقيام بالرحلة إلى لندن من أجلها، وأنا أملك على الأقل اثنتين من الصفات الثلاث التي تحتاجينها، وهأنذا.

لم تجب السيدة بوناسيو، لكن قلبها كان ينبض بالفرح، وأشرق أمل سري في عينيها.

- وما الضمانة التي ستمنحني إياها إذا وافقت على تكليفك بهذه المهمة؟

- حبي لك، هيا اؤمريني؛ ما الذي يجب أن أفعله؟

- يا إلهي! يا إلهي! تمتمت الشابة، هل يجب أن أخبرك بهذا السر يا سيدي؟ أنت ما زلت صبيًّا!

- هيا، أرى أنك لا تثقين في إمكانياتي.

- أعترف أنني أريد أن أكون أكثر اطمئنانًا.

- هل تعرفين آثوس؟

- لا.

- بورثوس؟

- لا.

- أراميس؟

- لا، من هؤلاء السادة؟

- فرسان الملك، هل تعرفين قائد هم السيد دو تريفيل؟

- أوه! نعم أعرف هذا الشخص، ليس بصفة شخصية، ولكني سمعته يتحدث إلى الملكة أكثر من مرة كرجل نبيل شجاع ومخلص.

- لا تخشين أن يخونك من أجل الكاردينال، أليس كذلك؟

- عجبًا! لا بالتأكيد.

- حسنًا، أخبريه بسرك، واسأليه، مهما كان مهمًّا... ثمينًا... ورهيبًا جدًّا، إذا كنت تستطيعين إخباري.

- لكن هذا السر ليس لي ولا يمكنني الكشف عنه هكذا.

قال دارتانيان بانزعاج:

- كنت ستعهدين به إلى السيد بوناسيو.

- كما يوكل المرء رسالة إلى جوف شجرة، إلى جناح حمامة، إلى طوق كلب.

- ولكن، أنا يمكنك أن تلاحظي أنني أحبك.

- أنت من يقول ذلك.

- أنا رجل عاشق!

- أنا أصدقك.

- وأنا شجاع!

- عجبًا! وهذا الأمر، أنا متأكدة منه.

- إذًا اختبريني.

نظرت السيدة بوناسيو إلى الشاب، ما زال تردد أخير يمنعها، ولكن كانت ثمة حماسة هائلة في عينيه، وإقناع مدو في صوته، لدرجة أنها وجدت نفسها منساقة إلى الوثوق به، وإلى جانب ذلك، فقد كانت في أحد تلك الظروف التي يتعين على المرء المخاطرة بكل شيء، من أجل كل شيء، كانت الملكة قد فقدت الكثير بسبب التردد المبالغ فيه أكثر مما فقدته بالثقة الزائدة بالنفس، والحق يقال، إن الشعور اللاإرادي الذي شعرت به تجاه هذا الشاب النصير دفعها إلى أن تتخذ قرار التحدث.

- أصغ إليّ، قالت، أنا أستسلم لاحتجاجاتك وأذعن لضماناتك، لكني أقسم لك أمام الإله الذي يسمعنا، أنك إذا خنتني وغفر لي أعدائي، فسوف أقتل نفسي وأتهمك بقتلي.

قال دارتانيان:

- أقسم لك أمام الإله يا سيدتي أنهم إذا أمسكوا بي وأنا أنفذ الأوامر التي عهدت بها إليّ فسوف أموت قبل أن أفعل أو أقول أي شيء يهدد أي شخص.

عندئذٍ أسرّت الشابة بالسر الرهيب الذي سبق لدارتانيان أن اكتشف بالصدفة جزءًا منه أمام فسقيّة السامرية حينما أعلنا حبهما المتبادل.

كان دارتانيان مبتهجًا فرحًا وكبرياء، كان هذا السر الذي أصبح يمتلكه، وهذه المرأة التي يحبها والثقة والحب قد جعلاه عملاقًا جبارًا.

- سأرحل، قال، سأرحل على الفور.

- كيف سترحل؟ صرخت السيدة بوناسيو، وفرقتك وقبطانك؟

- أقسم، لقد أنسيتني هذا كله يا عزيزتي كونستانس! نعم، أنت محقة، أحتاج إلى إجازة.

- عقبة أخرى، غمغمت السيدة بوناسيو بألم.

صرخ دارتانيان بعد لحظة من التفكير:

- حسنًا هذا الأمر مقدور عليه! سأتغلب عليه، كوني مطمئنة.

- كيف ذلك؟

- سأذهب هذا المساء بالذات عند السيد دو تريفيل، الذي سأكلفه بأن يطلب هذه الخدمة من صهره السيد ديسار.

- والآن، ثمة شيء آخر.

- ما هو؟ سأل دارتانيان، وهو يرى أن السيدة بوناسيو ما زالت مترددة.

- ربما ليس لديك مال!

قال دارتانيان مبسمًا:

- ربما يكون لدي وأكثر من اللازم.

استأنفت السيدة بوناسيو، وهي تفتح خزانة وسحبت منها الكيس الذي كان

يداعبه زوجها قبل نصف ساعة بشغف كبير:

- إذًا، خذ هذا الكيس.

- كيس الكاردينال! صرخ دارتانيان ضاحكًا، كما نتذكر، لم يفقد حرفًا من المحادثة بين بائع الخردوات وزوجته، وذلك بفضل البلاط الذي أزاله.

أجابت السيدة بوناسيو:

- إنه مال الكاردينال، كما ترى، يبدو محترمًا جدًّا.

- بالتأكيد! صرخ دارتانيان، سيكون شيئًا ترفيهيًّا مضاعفًا أن ننقذ الملكة بأموال سماحته.

قالت السيدة بوناسيو:

- أنت شاب جذاب ولطيف، صدقني أن جلالة الملكة لن تنسى شهامتك.

- حسنًا، أنا كوفئت سلفًا وكثيرًا، صرخ دارتانيان: أحبك، اسمحي لي أن أقول ذلك؛ إنها بالفعل سعادة أكثر مما كنت أتمنى!

- اصمت! قالت السيدة بوناسيو وهي ترتجف.

- ماذا؟

- هناك من يتحدث في الشارع.

- إنه صوته...

- زوجي، نعم لقد تعرفت إليه!

ركض دارتانيان إلى الباب ودفع القفل، وقال:

- لن يدخل حتى أرحل، وعندما أرحل تفتحين الباب له.

- لكن يجب أن أذهب أنا أيضًا، كيف سأبرر اخفاء هذه الأموال إذا مكثت هنا؟

- أنت محقة، يجب أن نخرج.

- كيف سأخرج؟ سوف يرانا إذا خرجنا.

- إذًا عليك أن تصعدي إلى شقتي.

- آه! صرخت السيدة بوناسيو، تقول ذلك بنبرة تخيفني.

قالت السيدة بوناسيو هذه الكلمات والدموع تفيض من عينيها، وعندما رأى دارتانيان هذه الدموع، اضطرب وتأثر، فألقى بنفسه أمام ركبتيها، وقال:

- في بيتي، ستكونين آمنة كما لو كنت في معبد، أعدك بشرف رجل نبيل.

- دعنا نذهب، أنا أثق بك يا صديقي.

أعاد دارتانيان فتح القفل بحذر، وتسلل الاثنان، خفيفَين كظلين، فعبرا الباب الداخلي إلى الزقاق، وصعدا السلم بهدوء، ودخلا غرفة دارتانيان.

وبمجرد وصوله إلى المنزل، قام الشاب من أجل مزيد من الأمان بتحصين الباب؛ فاقترب كلاهما من النافذة، ومن خلال فتحة في المصراع رأيا السيد بوناسيو يتحدث إلى رجل يرتدي معطفًا طويلاً.

وعند مرأى الرجل ذي المعطف، قفز دارتانيان، وسحب سيفه واندفع نحو الباب.

كان رجل مونغ.

- ماذا ستفعل؟ صرخت السيدة بوناسيو، أنت تهلكنا.

- لكني أقسمت أن أقتل هذا الرجل! قال دارتانيان.

- حياتك منذورة الآن وليست لك، باسم الملكة، أمنعك من إلقاء نفسك إلى أي نوع من الخطر الغريب عن الرحلة.

- وباسمك، ألا تأمرين بأي شيء؟

قالت السيدة بوناسيو بعاطفة جياشة:

- باسمي، ونيابة عني، من فضلك دعنا نستمع، يبدو أنهما يتحدثان عني.

اقترب دارتانيان من النافذة واسترق السمع.

كان السيد بوناسيو قد فتح بابه من جديد، ولاحظ أن الشقة فارغة، فعاد إلى الرجل ذي المعطف الذي تركه بمفرده للحظة، وقال:

- لقد ذهبت، رجعت إلى قصر اللوفر.

رد الغريب:

- هل أنت متأكد أنها لا تعرف نواياك عندما تركت البيت؟

أجاب بوناسيو متعجرفًا:

- لا، إنها امرأة سطحية جدًّا.

- هل المتدرب في الحرس يوجد في منزله؟

- لا أعتقد ذلك، كما ترى، مصاريع نوافذه مغلقة ولا يمكن رؤية أي ضوء من خلال الشقوق.

- لا يهم، يجب التأكد.

- كيف ذلك؟

- بأن نطرق على بابه.

- سأطلب خادمه.

- هيا.

عاد بوناسيو إلى منزله، ومن من الباب نفسه الذي مرَّ منه الهاربان، وصعد إلى صحن الدرج وطرق باب دارتانيان.

في اللحظة التي دق فيها إصبع بوناسيو على الباب، شعر الشابان أن قلبيهما سيقفزان من صدريهما.

- لا يوجد أحد في المنزل، قال بوناسيو.

- لا يهم، دعنا ندخل إلى المنزل، سنكون أكثر أمانًا من عتبة الباب.

- آه! يا إلهي! تمتمت السيدة بوناسيو، لن نسمع أي شيء آخر.

قال دارتانيان:

- على العكس من ذلك، سنسمع بشكل أفضل.

أزال دارتانيان الألواح الثلاثة أو الأربعة التي جعلت من غرفته أذنًا أخرى لديونيسيوس(40)، ونشر سجادة على الأرض، وجثا على الأرض، وأومأ للسيدة بوناسيو كي تنحني، كما يفعل نحو الفتحة.

- هل أنت متأكد من عدم وجود أحد هنا؟ قال الغريب.

قال بوناسيو:

- أؤكد لك ذلك.

- وهل تعتقد أن زوجتك...

- عادت إلى قصر اللوفر.

- ألم تتحدث إلى أحد غيرك؟

- أنا واثق من ذلك.

- هذه نقطة مهمة، هل تفهم؟

- إذًا الأخبار التي قدمتها لك ذات قيمة؟

- مهمة جدًّا يا عزيزي بوناسيو، لن أخفي عنك ذلك.

- إذًا الكاردينال سيكون سعيدًا بي؟

- أنا لا أشك في ذلك.

- الكاردينال العظيم!

- هل أنت متأكد من أن زوجتك في حديثها معك لم تستخدم أي أسماء شخصية؟

- لا أعتقد ذلك.

- ألم تذكر اسم السيدة دو شيفروز ولا السيد دي باكنغهام ولا السيدة دي فيرنيه؟

- لا، لقد أخبرتني فقط أنها تريد إرسالي إلى لندن لخدمة مصالح شخص مشهور.

- الخائن! تمتمت السيدة بوناسيو.

- اصمتي! قال دارتانيان، ممسكًا بيدها التي تركتها له دون أن تبالي.

- لا يهم، تابع الرجل ذو المعطف، فأنت أحمق لأنك لم تتظاهر بقبول المهمة، ستكون بحوزتك الرسالة الآن؛ وبذلك تنقذ الدولة المهددة وأنت...

- وأنا؟

- نعم أنت! أعطاك الكاردينال خطاب نبالة...

- هل أخبرك؟

- نعم، أعرف أنه أراد أن يفاجئك.

أجاب بوناسيو:

- اطمئن، زوجتي تحبني وما زال هناك متسع من الوقت.

- الأحمق! تمتمت السيدة بوناسيو.

- اصمتي! قال دارتانيان وهو يمسك يدها بقوة أكبر.

- كيف ما زال الوقت؟ استطرد الرجل ذو المعطف.

- سأعود إلى اللوفر، وأطلب السيدة بوناسيو، وأقول لها إنني فكرت في الأمر، وأقبل المهمة، وعندما أستلم الرسالة سأركض عند الكاردينال.

- حسنًا بسرعة، سأعود قريبًا لمعرفة نتيجة محاولتك.

وخرج الغريب.

- الدنيء! قالت السيدة بوناسيو، وهي توجه هذه الصفة مرة أخرى إلى زوجها.

- اصمتي! كرر دارتانيان وهو يمسك يدها بقوة أكبر.

ثم قاطع عواء رهيب أفكار دارتانيان والسيدة بوناسيو، كان زوجها قد اكتشف اختفاء الكيس وبدأ يصرخ وراء اللص.

- أوه! يا إلهي! صرخت السيدة بوناسيو، سوف يوقظ الحي بأكمله.

صرخ بوناسيو لفترة طويلة، لكن صرخاته الضعيفة لم تجذب أي شخص في شارع فوسويور، وبما أن منزل بائع الخردوات كان لبعض الوقت مشبوهًا، وبعد أن رأى أن لا أحد قدم لنجدته، خرج واستمر في السير باكيًا يسمع نحيبه بعيدًا في اتجاه شارع دو باك.

قالت السيدة بوناسيو:

- والآن بعد أن رحل، حان دورك لترحل الشجاعة، ولكن قبل كل شيء الحكمة، وتذكر أن حياتك فداء للملكة.

- لها ولك! صرخ دارتانيان، اطمئني يا كونستانس الجميلة، سأعود جديرًا بامتنانها، ولكن هل سأعود أيضًا مستحقًّا حبك؟

لم تجب المرأة الشابة متورّدة الوجنتين، وبعد لحظات قليلة، خرج دارتانيان بدوره، ملفوفًا أيضًا في معطفه الكبيرة يغطي غمد سيف طويلًا.

لاحقته السيدة بوناسيو بنظرات حب طويلة التي تصاحب بها المرأة الرجل الذي تحبه، لكن ما إن اختفى عند زاوية الشارع حتى سقطت على ركبتيها وهي تشبك يديها مناجية:

- يا إلهي! احمِ الملكة، واحمِني!

19

خطة الرحلة

ذهب دارتانيان مباشرة عند السيد دو تريفيل، لقد فكر أنه في غضون بضع دقائق سيحذر هذا الغريب اللعين العميل الكاردينال، ولذلك لا مجال لإضاعة مزيد من الوقت.

كان قلب الشاب يفيض بالفرح لأنه قد أتيحت له فرصة ليكتسب المجد ويفوز بالمال، وكتشجيع أولي جعلته أقرب إلى امرأة يعشقها، لذلك كانت بالنسبة له هذه الفرصة تقريبًا، أكثر جرأة مما كان سيطلب من العناية الإلهية.

كان السيد دو تريفيل في صالونه مع حاشيته المعتادة من السادة النبلاء، ذهب دارتانيان، الذي كان معروفًا في القصر، إلى مكتبه مباشرة وطلب أن يخطر أنه ينتظره لشيء مهم.

انتظر دارتانيان بالكاد خمس دقائق عندما دخل السيد دو تريفيل ومن النظرة الأولى والفرح المرسوم على وجهه، عرف القائد الجدير أن شيئًا جديدًا كان يحدث حتمًا!

كان دارتانيان طوال الطريق يتساءل عما إذا كان سيثق في السيد دو تريفيل، أو يطلب منه تفويضًا مطلقًا فقط من أجل مهمة سرية، لكن السيد دو تريفيل كان في نظره دائمًا الرجل المثالي، والمخلص الحقيقي للملك والملكة، كما كان يكره الكاردينال بشدة، لذلك قرر الشاب إخباره بكل شيء.

- هل طلبتني يا صديقي الشاب؟ قال السيد دو تريفيل.

قال دارتانيان:

- نعم يا سيدي، آمل أن لا أزعجك، لكنك ستغفر لي، عندما تكتشف ما هو الشيء المهم الذي جئت من أجله.

- قل إذن، أنا أستمع إليك.

قال دارتانيان وهو يخفض صوته:

- إنها مسألة تتعلق بشرف الملكة وربما بحياتها.

- ماذا تقول؟ سأل السيد دو تريفيل، ونظر حوله ليرى ما إذا كانا على انفراد حقًّا، وأعاد نظرته المستفهمة إلى دارتانيان.

- أقول، يا سيدي، إن الصدفة جعلتني أملك سرًّا...

- ويجب أن تبقيه سرًّا، كما أتمنى، أيها الشاب، ولو ضحيت بحياتك.

- لكن ما يجب أن أعهد به، يا سيدي، لأنك وحدك من يستطيع مساعدتي في المهمة التي تلقيتها للتو من جلالة الملكة.

- هل هذا سر يخصك؟

- لا يا سيدي، إنه يخص الملكة.

- هل أنت مخول من قبل جلالة الملكة كي تعهد به إليّ؟

- لا يا سيدي، على العكس من ذلك، لأنني كلفت باللغز الأكثر عمقًا.

- ولماذا ستخونه، إذا قلته لي؟

- أخبرك لأنني دونك لا أستطيع أن أفعل شيئًا! وأخاف أن ترفض لي هذه الخدمة التي أتيت أطلبها منك، حتى وإن كنت لا تعرف لأي غرض أطلبه منك.

- حافظ على سرك أيها الشاب وأخبرني بما تريد.

- أود أن تحصل لي من السيد إيسار على إجازة أسبوعين.

- متى؟

- هذه الليلة بالذات.

- هل ستغادر باريس؟

ة أنا ذاهب في مهمة.

- هل يمكنك أن تقول لي أين؟

- إلى لندن.

- هل هناك من له مصلحة في منعك من بلوغ هدفك؟

- أعتقد أن الكاردينال سيعطي أي شيء، ليمنعني من النجاح.

- وهل ستذهب وحدك؟

- سأرحل وحدي.

- في هذه الحالة لن تتجاوز بوندي(41)، أنا من يخبرك بذلك، ثق بكلام تريفيل.

- كيف ذلك؟

- سيعملون على اغتيالك.

- سأموت وأنا أؤدي واجبي.

- لكن مهمتك لن تتحقق.

قال دارتانيان:

- هذا صحيح.

واستطرد تريفيل:

- صدقني، إن تنفيذ المهام من هذا النوع يجب أن يكون لأربعة، كي يصل واحد.

قال دارتانيان:

- آه! أنت محق يا سيدي، لكنك تعرف آثوس وبورثوس وأراميس، وأنت تعرف ما إذا كان بإمكاني الاعتماد عليهم.

- دون أن تخبرهم بالسر الذي لم أرغب في معرفته؟

- لقد أقسمنا لبعضنا بعضًا، مرة واحدة وإلى الأبد، أن تكون بيننا الثقة العمياء والوفاء اللامشروط، علاوة على ذلك، يمكنك إخبارهم أنك تثق بي تمامًا، ولن يكونوا إلا أكثر ثقة منك.

- يمكنني أن أرسل لهم إجازة أسبوعين، هذا كل شيء: إلى آثوس، الذي ما زال جرحه يؤلمه، للذهاب إلى منابع فورجيس! وإلى بورثوس وأراميس، ليلتحقوا بصديقهم الذي لن يتخلوا عنه في مثل هذا الموقف المؤلم، سيكون إرسال إجازتهم دليلًا على أنني أصرح برحلتهم.

- شكرًا لك يا سيدي، على طيبتك اللامحدودة.

- اذهب وابحث عنهم الآن، ولتنفذ كل شيء الليلة... آه! اكتب أولًا طلبك إلى السيد ديسار، ربما يكون هناك جاسوس يتعقبك، وستكون زيارتك التي يعرفها الكاردينال في هذه الحالة شرعية أيضًا.

قدم دارتانيان طلبه، وأكد له السيد دو تريفيل وهو يستلمه منه، أنه قبل الثانية صباحًا ستكون الإجازات الأربع في محل إقامة المسافرين.

قال دارتانيان:

- تكرّم بإرسال إجازتي إلى آثوس، أخاف إذا عدت إلى بيتي أن أواجه سوءًا هناك.

- اطمئن! وداعًا ورحلة سعيدة! قال السيد دو تريفيل، ثم ناداه مرة أخرى.

عاد دارتانيان أدراجه:

- بالمناسبة هل معك مال؟

قرع دارتانيان الكيس الذي يوجد في جيبه.

- ما يكفي؟ سأل السيد دو تريفيل.

- ثلاثمئة بيستول.

- هذا جيد، نذهب إلى نهاية العالم بهذا المبلغ، اذهب إذن.

حيّا دارتانيان السيد دو تريفيل الذي مدَّ له يده، التي صافحها دارتانيان باحترام ممزوج بالامتنان، منذ وصوله إلى باريس، لم يشعر إلا بالإشادة إزاء هذا الرجل الرائع الذي وجده جديرًا ومخلصًا وعظيمًا دائمًا.

كانت زيارته الأولى لأراميس، لم يعد إلى منزل صديقه منذ الأمسية الشهيرة التي لاحق فيها السيدة بوناسيو، ثم هناك المزيد؛ إذ كان دارتانيان كلما رأى الفارس الشاب، وفي كل مناسبة لرؤيته مرة أخرى، تهيأ له أن حزنًا عميقًا مطبوعًا على وجهه.

هذا المساء مرة أخرى، كان أراميس ساهرًا وشاردًا، سأله دارتانيان بعض الأسئلة حول هذه الكآبة العميقة المترسخة، إلا أن أراميس اعتذر بتعليق على الفصل الثامن عشر للقديس أوغسطين أنه مجبر على الكآبة باللاتينية في الأسبوع الموالي، وهو الأمر الذي يثير قلقه بشدة.

بينما كان الصديقان يتحادثان لبضع لحظات، دخل خادم السيد دو تريفيل حاملًا بريدًا مختومًا.

- ما هذا؟ سأل أراميس.

أجاب الخادم:

- الإجازة التي طلبها السيد.

- أنا لم أطلب إجازة.

- قال دارتانيان اصمت وخذ، وأنت يا صديقي هذا نصف بيستول لقاء مشقتك، ستخبر السيد دو تريفيل أن السيد أراميس يشكره بصدق، هيا انصرف.

- ماذا يعني هذا؟ سأل أراميس.

- خذ ما تحتاجه من أجل رحلة أسبوعين، واتبعني.

- لكن لا يمكنني مغادرة باريس في هذه اللحظة، دون أن أعرف...

توقف أراميس.

- ماذا حدث لها؟ تابع دارتانيان.

- من؟ استأنف أراميس.

- المرأة التي كانت هنا، المرأة ذات المنديل المطرز.

- من قال لك أن هناك امرأة كانت هنا؟ رد أراميس شاحبًا كالموت.

- رأيتها.

- وأنت تعرف من هي؟

- أستطيع، -على الأقل- أن أخمّن.

- اسمع! قال أراميس، بما أنك تعرف الكثير، هل تعرف ما حدث لهذه المرأة؟

- أفترض أنها عادت إلى تور.

- عادت إلى تور؟ نعم هذا صحيح؛ أنت تعرفها، لكن كيف عادت إلى تور دون أن تخبرني؟

- لأنها كانت خائفة من الاعتقال.

- كيف لم تراسلني؟

- لأنها كانت تخشى أن تتورّط.

- يا دارتانيان، أنت تعيدني إلى الحياة! صرخ أراميس، كنت أظن أنني محتقر ومعرض للخيانة! كنت سعيدًا جدًّا لرؤيتها مرة أخرى! لم أصدق أنها كانت تخاطر بحريتها من أجلي، ولكن لماذا عادت إلى باريس؟

- للسبب نفسه الذي يقودنا اليوم إلى إنجلترا.

- وما هو هذا السبب؟ سأل أراميس.

- سوف تكتشفه يومًا ما، يا أراميس؛ لكن، في الوقت الحالي، سأحاكي ضبط النفس الذي تتميز به ابنة أخت الطبيب.

ابتسم أراميس لأنه تذكر الحكاية التي رواها لأصدقائه ذات ليلة.

- حسنًا! وما دامت قد غادرت باريس وأنت متأكد من ذلك، يا دارتانيان، لم يعد هناك شيء يوقفني، وأنا مستعد لمرافقتك! إلى أين قلت إننا ذاهبون؟

- عند آثوس، في الوقت الحالي، وإذا أردت المجيء، فأنا أدعوك للإسراع، لأننا قد فقدنا الكثير من الوقت سلفًا، بالمناسبة، أخبر بازين.

- هل سيأتي بازين معنا؟ سأل أراميس.

- ربما! على أي حال، من الجيد أن يتبعنا في الوقت الحالي عند آثوس.

نادى أراميس بازين، وبعد أن أمره بالحضور والانضمام إليه عند آثوس قال:

- هيا بنا! حمل عباءته وسيفه ومسدساته الثلاثة وفتح دون داع ثلاثة أو أربعة أدراج ليرى ما إذا كان هناك مسدس طائش وقال: «لنذهب إذن»، وبعد أن تأكد من أن هذا البحث لا لزوم له، تبع دارتانيان وهو يتساءل عن الطريقة التي عرف الشاب المتدرب في الحرس وكذلك مـــــــن كانت المرأة التي استضافها في بيته،

ويعرف أكثر منه مآلها.

وعند المغادرة فقط وضع أراميس يده على ذراع دارتانيان وحدّق فيه وقال:

- لم تخبر أحدًا عن هذه المرأة؟

- لا أحد في العالم.

- ولا حتى آثوس وبورثوس؟

- لم يسمعوا مني كلمة واحدة.

- في الوقت المناسب.

وبعد أن اطمأن بشأن هذه النقطة المهمة، استمر أراميس في طريقه مع دارتانيان، وسرعان ما وصل كلاهما عند آثوس.

وجداه ممسكًا بإجازته بيد ورسالة السيد دو تريفيل باليد الأخرى.

- هل يمكن أن تشرح لي ما تعنيه هذه الإجازة وهذا الخطاب الذي تلقيته للتو؟ قال آثوس مندهشًا.

«آثوس العزيز يطيب لي؛ لأن صحتك تتطلب ذلك تمامًا، أن أطلب منك أن تستريح لمدة أسبوعين؛ لذا اذهب إلى منتجع المنابع الطبيعية في فورج أو ما يناسبك، واستعد عافيتك سريعًا.

صديقك الودود،

تريفيل.».

- حسنًا، هذه الإجازة وهذه الرسالة تعني أن تتبعني، يا آثوس.

- إلى منابع فورج؟

- إلى هناك أو إلى مكان آخر.

- من خدمة الملك؟

- للملك أو للملكة، ألسنا في خدمة جلالتهما؟

في هذه اللحظة دخل بورثوس وقال:

- لعمري هذا شيء غريب، منذ متى يمنح الفرسان إجازة دون طلبها؟

قال دارتانيان:

- عندما يكون لديهم أصدقاء يطلبونها من أجلهم.

- آه! آه! قال بورثوس، يبدو أن ثمة شيئًا جديدًا هنا؟

- نعم سنُسافر، قال أراميس.

- لأي بلد؟ سأل بورثوس.

- حسنًا، لا أعرف حقًا، قال آثوس، اسأل دارتانيان عن ذلك.

قال دارتانيان:

- أيها السادة سنذهب إلى لندن.

صاح بورثوس:

- إلى لندن! وماذا سنفعل في لندن؟

- هذا ما لا أستطيع أن أخبركم به، أيها السادة، ويجب أن تثقوا بي.

وأضاف بورثوس:

- لكن لكي أذهب إلى لندن، فأنا بحاجة إلى المال وأنا لا أملكه.

قال أراميس:

- ولا أنا.

وقال آثوس:

- ولا أنا.

استأنف دارتانيان: ولكن أنا معي، وأخرج كنزه من جيبه ووضعه على الطاولة، في الكيس ثلاثة بيستول؛ ليأخذ كل واحد خمسة وسبعين؛ هذا أكبر ما تتطلبه الرحلة إلى لندن والرجوع منها، علاوة على ذلك، اطمئنوا، لن نصل جميعًا إلى لندن.

- ولماذا؟

- لأن حسب الاحتمالات كلها، سيبقى بعضنا على الطريق.

- ولكن هل ما نقوم به هذا حملة؟

- أُحذركم، قد تكون الأخطر.

قال بورثوس:

- حسنًا، لكن بما أننا معرضون لخطر القتل أريد على الأقل أن أعرف لماذا؟

- سوف تكون متقدمًا جدًّا! قال آثوس.

- ومع ذلك، قال أراميس، أنا أتفق مع بورثوس.

- هل الملك معتاد على تبرير أوامره؟ لا؛ يقول لكم بكل بساطة: أيها السادة، نحن نقاتل في الجاسكون أو في الفلاندرز اذهبوا للقتال؛ فتذهبوا! لماذا؟ ليس عليكم أن تقلقوا بشأن ذلك.

- دارتانيان على حق، قال آثوس، هذه إجازاتنا الثلاثة من السيد دو تريفيل، وها هي ثلاثمئة بيستول قد أتت ولا أعرف من أين، وسنذهب لنقتل حيث قيل لنا أن نذهب، هل تستحق الحياة طرح الكثير من الأسئلة؟ يا دارتانيان، أنا مستعد لأتبعك.

قال بورثوس:

- وأنا أيضًا.

- وأنا أيضًا، قال أراميس، أنا لست آسفًا أيضًا لمغادرة باريس؛ أحتاج إلى الترفيه.

- حسنًا! قال دارتانيان، سيكون لديكم مجال للترفيه أيها السادة، كونوا مطمئنين.

- والآن، متى سنرحل؟ قال آثوس.

- الآن! أجاب دارتانيان، ليس أمامنا دقيقة لنضيعها.

صاح الشبان الأربعة وهم ينادون خدمهم:

- مهلًا! يا غريمو، يا بلانشي، موسكيتون، أيا بازين! لمّعوا أحذيتنا واجلبوا الخيول من القصر.

في الواقع، يترك كل فارس جواده وجواد خادمه في القصر العام كما نفعل في ثكنة عسكرية.

انطلق بلانشي وغريمو وموسكيتون وبازين.

قال بورثوس:

- الآن دعونا نضع خطة للرحلة، إلى أين نحن ذاهبون أولًا؟

قال دارتانيان:

- إلى كاليه؛ هذا هو الخط المحيط المباشر للوصول إلى لندن.

- حسنًا! قال بورثوس، إليكم رأيي.

- تكلم.

- أربعة رجال يسافرون معًا أمر مشبوه، سيقدم دارتانيان لكل واحد منا تعليماته، وسأمضي قدمًا على الطريق إلى بولوني لاستطلاع الطريق؛ أما آثوس سوف يغادر بعد ساعتين من طريق أميان؛ سوف يتبعنا أراميس عن طريق نيويون، أما دارتانيان فسيغادر من الطريق الذي يختاره مرتديًا ملابس بلانشي بينما سيتبعنا بلانشي بزي دارتانيان التابع للحرس.

قال آثوس:

- أيها السادة، أنا أرى أنه ليس من المناسب جعل الخدم ينخرطون في مثل هذه الأمور، فالسر يمكن أن يخونه السادة النبلاء بالصدفة، لكن الخدم يبيعونه دائمًا.

قال دارتانيان:

- إن خطة بورثوس تبدو لي غير عملية، لأنني لا أعرف ما هي التعليمات التي يمكنني أن أقدمها لكم؛ أنا حامل لرسالة، هذا كل شيء، لم أقم ولا أستطيع إنجاز ثلاث نسخ من هذه الرسالة لأنها مختومة؛ لذلك من الضروري، في رأيي، السفر بشكل جماعي، هذه الرسالة موجودة في هذا الجيب، (وأشار إلى الجيب حيث كانت الرسالة)، إذا قُتلت سيأخذها أحدكم وستواصلون الرحلة؛ إذا قُتل، فسيكون الدور على آخر، وهكذا دواليك... حتى يصل أحدنا، هذا كل ما يتطلبه الأمر.

- أحسنت يا دارتانيان! قال آثوس، أنا من رأيك، بالإضافة إلى ذلك، علينا أن نكون ثابتين، سأتوجه صوب المنابع، وسترافقني؛ وعوض الذهاب إلى منابع فورج سأسلك الطريق في اتجاه شاطئ البحر، أنا حر! إذا أرادوا إلقاء القبض علينا، سنريهم رسالة السيد دو تريفيل، وأنتما تقدمان إجازتكما؛ أما إذا تعرضنا للهجوم، فسندافع عن أنفسنا، وإذا قدمنا للمحاكمة، سنؤكد بشدة أنه لم يكن لدينا أي نية أخرى سوى الاستحمام عدة مرات في البحر، سنكون هدفًا سهلًا إذا كنا أربعة رجال متفرقين، بينما يشكل أربعة رجال متحدين فرقة قوية، سنسلح الخدم

الأربعة بالمسدسات والبنادق؛ إذا أرسلوا جيشًا ضدنا، فسنقاتل! وسيحمل الناجي الرسالة كما قال دارتانيان.

- أحسنت القول، صرخ أراميس، أنت لا تتحدث كثيرًا يا آثوس، لكن عندما تتحدث، فإنك تجيد الحديث حقًّا، أنا أتبنّى خطة آثوس، وأنت يا بورثوس؟

- أنا أيضًا، قال بورثوس، إذا كان هذا يناسب دارتانيان فهو حامل الرسالة، وهو بطبيعة الحال قائد الحملة، كل ما يقرره سننفذه.

- حسنًا! قال دارتانيان، قررت أن نتبنّى خطة آثوس ونغادر بعد نصف ساعة.

- موافقون! ردد الفرسان الثلاثة بصوت واحد.

ومدّ كل واحد منهم يده إلى الكيس، وأخذ خمسة وسبعين بيستولًا وقاموا باستعداداتهم للانطلاق في الوقت المحدد.

20

الرحلة

في الساعة الثانية صباحًا، غادر مغامرونا الأربعة باريس عبر حاجز سان دوني(42)، وكلما زاد الظلام عتمة استغرقوا في صمت مطبق على الرغم من أنفسهم، فقد كانوا تحت تأثير الظلام المزالق في كل مكان.

مع أول شعاع من النهار، انفكّت عقدة ألسنتهم، ومع طلوع الشمس، عادت البهجة، وكأنهم يشعرون بحماس عشية قتال، القلب ينبض، والعيون تضحك، كانوا يشعرون أن الحياة التي تخلوا عنها كانت، في النهاية، أمرًا جيدًا.

كما كان مظهر القافلة أكثر روعة: الخيول السوداء للفرسان، وعدّتهم العسكرية، تلك العادة في السرب التي تجعل رفاق الجندي النبلاء يسيرون بشكل منتظم خلفهم تبعهم الخدم المسلحون تسليحًا كاملًا.

سارت الأمور على ما يرام حتى شانتيلي، حيث وصلوا حوالي الساعة الثامنة صباحًا، قرروا تناول الغداء، فنزلوا في نزل وأمروا خدمهم بإبقاء الخيول مهيأة والاستعداد للانطلاق على الفور.

دخلوا الصالة العامة وجلسوا على الطاولة.

كان رجل نبيل قد وصل لتوه عن طريق دامارتين جالسًا على الطاولة نفسها ويتناول الغداء، بدأ الحديث عن المطر والطقس الجيد، فأجابه المسافرون، فشرب نخبًا في صحتهم فرد عليه المسافرون تهذيبه بأحسن منه.

ولكن عندما جاء موسكيتون ليعلن أن الخيول جاهزة وهمّوا بالنهوض من على المائدة، عرض الغريب على بورثوس أن يشرب في صحة الكاردينال، فأجاب بورثوس أنه لا يطلب شيئًا أفضل، إذا أراد الغريب بدوره أن يشرب في صحة

الملك، صاح الغريب أنه لا يعرف ملكًا آخر غير سماحته، وهنا وصفه بورثوس بالسكير، فاستلّ الغريب سيفه.

قال آثوس:

- لقد فعلت شيئًا غبيًّا، على أي حال، لا يمكنك التراجع الآن: اقتل هذا الرجل والتحق بنا بأسرع ما يمكن!

وامتطى الثلاثة خيولهم وانطلقوا مرة أخرى بأقصى سرعة، فيما وعد بورثوس خصمه بأن يخرمه بالضربات المعروفة في المبارزة كلها.

قال آثوس بعد أن قطعوا خمسمئة خطوة:

- واحد فقط!

- لكن لماذا هاجم هذا الرجل بورثوس دون سواه؟ سأل أراميس.

قال دارتانيان:

- لأن بورثوس يتحدث بصوت أعلى منا جميعًا، فتهيأ له أنه القائد.

- لطالما قلت إن هذا الطالب العسكري الجاسكوني بئر من الحكمة، همس آثوس.

وواصل المسافرون رحلتهم.

في بوفيه، توقفوا زهاء ساعتين، لترتاح الخيول وينتظروا بورثوس، ولكن بعد ساعتين -بما أن بورثوس لم يحضر ولم تصل عنه أي أخبار- فقد استأنفوا رحلتهم.

في مكان من بوفيه حيث كان الطريق ضيقًا بين جسرين، صادفوا ثمانية أو عشرة رجال، مستغلين حقيقة أن الطريق غير ممهد هناك، فشرعوا يحفرون حفرًا وأخاديد موحلة.

خشي أراميس من تلويث حذائه في هـــــذا الملاط الاصطناعي، فاستفسرهم

بقسوة، أراد آثوس أن يمنعه، لكن فات الأوان! بدأ العمال يستهزئون بالمسافرين، فأغضب هؤلاء، بوقاحتهم آثوس الذي اندفع بحصانه وهاجم أحدهم.

ثم تراجع كل واحد من هؤلاء الرجال إلى الخندق وأخذ منه بندقية مخبأة؛ نتيجة لذلك صار مسافرونا السبعة في موقع ضعيف لا محالة، أصيب أراميس في كتفه، واستقرت رصاصة أخرى في الأجزاء المحمية الممتدة أسفل ظهر موسكيتون، ومع ذلك، فقد سقط موسكيتون وحده من على حصانه، ليس لأنه أصيب بجروح خطيرة، ولكن لأنه لم يستطع رؤية جرحه، لا شك في ظنه أن إصابته أكثر خطورة منه.

قال دارتانيان:

- إنه كمين، دعونا لا نضيع ذخيرة واحدة، وهيا ننطلق.

بعد إصابة أراميس أمسك عرف جواده، فحمله بعيدًا مع الآخرين، كان موسكيتون قد انضم إليهم بعدما ركض وحده خارج الفرقة.

قال آثوس:

- هذا سيمنحنا حصانًا احتياطيًّا.

وقال دارتانيان:

- أنا أريد قبعة أخرى، قبعتي اخترقتها رصاصة وألقتها بعيدًا، من حسن حظي، يا إلهي، أن الرسالة التي أحملها لم تكن موجودة بداخلها.

قال أراميس:

- آه! لكنهم سيقتلون بورثوس المسكين عندما يمر.

قال آثوس:

- لو كان بورثوس واقفًا على قدميه، لانضم إلينا الآن! أعتقد، أن السكير قد زال

سكره ونال منه.

ركضوا بخيولهم زهاء ساعتين إضافيتين، على الرغم من أن الخيول كانت متعبة جدًّا وتوشك أن تنهار.

استقلّ المسافرون العبّارة آملين أن تكون هذه الطريقة أقل إزعاجًا، لكن في كريفكور، قال أراميس إنه لا يستطيع الذهاب إلى أبعد من ذلك، في الواقع، لقد تطلب الأمر الشجاعة الهائلة التي يداريها بمظهره الأنيق وأسلوبه المهذب للوصول إلى هذا الحد، كان يزداد شحوبًا مع مضي الوقت، وكان من الضروري للمرء دعم توازنه على حصانه، أنزلوه عند باب حانة، وتركوه رفقة بازين الذي كان طوال الوقت في مشادة كلامية، ومحرجًا أكثر من كونه مفيدًا، وانطلقوا مرة أخرى على أمل قضاء الليلة في أميان.

- تبًّا! قال آثوس، عندما انطلقوا على الطريق وقد تقلّص عددهم، لن أسقط في خدعتهم بعد الآن، وأعدكم بأنهم لن يجعلوني أفتح فمي أو أسحب سيفي من هنا في كاليه، أقسم على ذلك...

قال دارتانيان:

- دعنا من القسم وهيا نخب ركضًا، بالتأكيد إذا ساعدتنا خيولنا.

ونخس المسافرون بطون خيولهم، فتحفزت بقوة واستعادت قواها، وصلوا إلى أميان عند منتصف الليل، حيث أقاموا في نزل السوسنة الذهبية.

بدا صاحب النزل وكأنه أكثر رجال الأرض استقامة، فقد استقبل المسافرين حاملًا شمعة في يده وقبّعته القطنية في اليد الأخرى؛ أراد أن يبيت كل المسافرين في غرفة لطيفة، وللأسف كانت كل غرفة من هذه الغرف في نهاية النزل، فرفض دارتانيان وآثوس؛ فأجاب المضيف أنه مع ذلك لا توجد غرفة تليق بمقام أصحاب السعادة، لكن المسافرين قرروا أن يناموا في غرفة مشتركة، كل واحد على فراش مطروح على الأرضية، أصر المضيف، وتمسّك المسافرون، كانوا مصرين أن يفعلوا ما يريدون.

كانوا قد رتّبوا للتو فرشهم وأحكموا إغلاق بابهم من الداخل، عندما سمعوا طرقًا على مصراع الباب في الفناء، فسألوا من الطارق، واكتشفوا أن الصوت صوت خادميهما.

في الواقع، كانا بلانشي وغريمو.

قال بلانشي:

- سيتكلف غريمو بحراسة الخيول، إذا أزاد هؤلاء السادة، فسوف أنام على بابهم؛ بهذه الطريقة، سيكونون على يقين أن لا أحد سيصل إليهم.

- وفوق ماذا ستنام؟ قال دارتانيان.

أجاب بلانشي:

- هذا هو سريري.

وأشار إلى حزمة من القش.

- هيا! قال دارتانيان، أنت محق، وجه المضيف لا يريحني، إنه لطيف للغاية.

- وأنا أيضًا لم يعجبني، قال آثوس.

صعد بلانشي عبر النافذة، واستقر عبر الباب، بينما ذهب غريمو ليغلق على نفسه في الإسطبل، وعقب أنه في الخامسة صباحًا سيكون هو والأحصة الأربعة جاهزين.

كان الليل هادئًا كفاية، وحاولوا فتح الباب حوالي الساعة الثانية صباحًا، لكن بلانشي استيقظ بداية وصرخ:

- من هناك؟ فردوا أنهم كانوا مخطئين، وابتعدوا.

لكن في الساعة الرابعة صباحًا سمع ضجيجًا عاليًا في الإسطبلات، أراد غريمو إيقاظ الفرسان، غير أن الفتيان قاموا بضربه، عندما فُتحت النافذة، شوهد الفتى

المسكين فاقدًا للوعي، وقد انشق رأسه بمقبض مذراة.

نزل بلانشي إلى الفناء وأراد أن يسرج الخيول؛ لكن الخيول كانت منهكة، كان بإمكان موسكيتون وحده، والذي سافر دون سيد لمدة خمس أو ساعات في اليوم السابق، أن يواصل الرحلة، ولكن؛ بسبب خطأ لا يمكن تصوره، فإن الجراح البيطري الذي أرسل على ما يبدو لينزف حصان المضيف قد أنزف حصان موسكيتون.

أصبح الأمر قلقًا، هذه الحوادث المتتالية كلها ربما كانت نتيجة الصدفة، لكن كان من الممكن أن تكون بسهولة نتيجة مؤامرة، خرج آثوس ودارتانيان، بينما ذهب بلانشي للاستفسار عمّا إذا كان هناك ثلاثة خيول معروضة للبيع في المنطقة، عند البوابة كان هناك حصانان مجهزان بالكامل، حيويان قويان، كانا سيفيان بالمطلوب بشكل جيد، سأل:

- أين السادة؟

فقيل له إن السادة أمضوا الليل في النزل ويدفعان ما في ذمتهم في ذلك الوقت إلى صاحب النزل.

نزل آثوس لدفع المبلغ المستحق، بينما وقف دارتانيان وبلانشي عند باب الشارع، كان صاحب النزل في غرفة منخفضة وبعيدة، وطُلب من آثوس المرور.

دخل آثوس دون ارتياب ودفع قطعتين ذهبيتين: كان المضيف بمفرده ويجلس أمام مكتبه، أخذ أدراجه كان مواربًا، أخذ النقود التي قدمها له آثوس، وقلبها وأعاد فحصها بين يديه، وفجأة صاح بأن العملة مزوّرة! وأعلن أنه سيعتقله ورفيقيه كمزيفين للعملة.

- مضحك! قال آثوس متوجهًا صوبه، سأقطع أذنيك!

في اللحظة نفسها، دخل أربعة رجال مدججين بالسلاح مسلحين من الأبواب الجانبية وانقضوا على آثوس.

صرخ آثوس بملء رئتيه:

- لقد أُخذت على حين غرة يا دارتانيان! انطلق، اهرب! وأطلق رصاصتين من مسدسيه.

لم يتردَّد دارتانيان وبلانشي لحظة، ففكّا رباطي الحصانين اللذين كانا ينتظران عند الباب، وقفزا عليهما، ونخسا على بطنيهما فانطلقا يركضان بخفة وسرعة.

- هل تعلم ماذا حدث لآثوس؟ سأل دارتانيان بلانشي وهما يركضان.

- آه يا سيدي! قال بلانشي، رأيت اثنين منهما يسقطان بطلقتيه، وبدا لي -من خلال الباب الزجاجي- أنه كان يسايف الآخرين.

- يا له من شجاع آثوس! همس دارتانيان، وعندما أُفكر أننا تخلينا عنه! علاوة على ذلك، قد ينتظرنا الكثير على مرمى حجر، إلى الأمام، يا بلانشي، إلى الأمام! أنت رجل صالح.

أجاب بلانشي:

- أخبرتك يا سيدي، يمكن التعرف على البيكاردي من ملابسه، إلى جانب ذلك، أنا هنا في بلدي، وهذا يستثير حماستي.

وتوجّه كلاهما على وجه السرعة إلى أن بلغا سان أومير، حيث أراحا حصانيهما قليلًا، خوفًا من وقوع حادث، وأكلا قليلًا واقفين في الشارع، وبعد ذلك انطلقا مرة أخرى.

على بعد مئة خطوة من أبواب كاليه، سقط حصان دارتانيان، ولم يكن ثمّة طريقة لإيقافه على قدميه، كان الدم ينزف من أنفه وعينيه، بقي حصان بلانشي، الذي توقف تمامًا، ولم يكن ثمة طريقة لحثه على السير مرة أخرى.

لحسن الحظ، كما قلنا، كنا على بعد مئة خطوة من المدينة، تخليا عن حمليهما على الطريق وركضا إلى الميناء، أشار بلانشي لسيده في اتجاه رجل نبيل

وصل مع خادمه كان يتقدمهم بحوالي خمسين خطوة فقط.

اقتربا بسرعة من هذا الرجل، الذي بدا مشغولًا للغاية، كان قد غطّى الغبار حذاءه، يتساءل عن إمكانية الوصول إلى إنجلترا على الفور.

أجاب صاحب المركب الجاهز للإبحار:

- ليس ثمة شيء أسهل من ذلك، ولكن هذا الصباح وصلت الأوامر بعدم السماح لأي شخص بالذهاب دون إذن صريح من الكاردينال.

قال الرجل، وهو يأخذ ورقة من جيبه:

- أنا أملك هذا الإذن! ها هو ذا.

قال الرئيس:

- ضع عليه تأشيرة محافظ الميناء، ومن الأفضل أن تعطيني إياه.

- أين سأجد المحافظ؟

- في إقامته.

- وأين تقع هذه الإقامة؟

- تبعد حوالي ربع فرسخ عن المدينة هناك، يمكنكم رؤيته من هنا، عند سفح التل الصغير، عند ذلك السقف الصخري.

- جيد جدًا! قال السيد.

وتبعه خادمه، وسلكا الطريق إلى منزل الحاكم الريفي.

تبع دارتانيان وبلانشي الرجل المحترم تاركين مسافة خمسمئة خطوة بينهما، بمجرد خروجه من المدينة، سارع دارتانيان إلى تسريع وتيرة سيره وانضم إلى الرجل المحترم عندما دخل إلى غابة صغيرة.

- سيدي! قال دارتانيان، يبدو لي أنك في عجلة من أمرك؟

- لا يمكن إلا أن نكون في عجلة من أمرنا يا سيدي.

قال دارتانيان:

- أنا آسف، لأنني، وأنا في عجلة من أمري أيضًا، أردت أن أطلب منك أن تقدم لي معروفًا.

- ما هو؟

- أن تدعني أذهب أولًا.

قال الرجل المحترم:

- مستحيل، لقد قطعت ستين فرسخًا في أربع وأربعين ساعة، ويجب أن أكون في لندن غدًا ظهرًا.

- قمت بالرحلة نفسها في أربعين ساعة، وغدًا في العاشرة صباحًا يجب أن أكون في لندن.

- آسف يا سيدي، لكنني وصلت إلى هنا أولًا ولن أعبر ثانيًا.

- آسف يا سيدي! لكنني وصلت ثانيًا، وسأعبر أولًا.

- خدمة للملك! قال السيد.

- خدمة لي! قال دارتانيان.

- لكنني أرى أنك تبحث عن شجار سيئ.

- بالتأكيد! ماذا تريده أن يكون؟

- ماذا تريد؟

- هل تريد أن تعرف؟

- بالتأكيد.

- حسنًا! أريد الإذن الذي تحمله، لأنني لا أملك واحدًا وأحتاج إليه.

- أظن أنك تمزح.

- أنا لا أمزح أبدًا.

- دعني أمر!

- لن تمر.

أيها الشاب الشجاع، سأكسر رأسك! هيا لا لوبين إليَّ بمسدسي.

- بلانشي! قال دارتانيان، اهتم بالخادم، أنا سأهتم بالسيد.

قفز بلانشي الذي شجّعه النجاح الأول على لوبين، ولأنه كان قويًّا وشديدًا، فقد ألقاه وسمره على الأرض ووضع ركبته على صدره.

قال بلانشي:

- افعل ما يخصك يا سيدي، وأنا سأفعل ما يخصني.

وعندما رأى ذلك، سحب السيد سيفه وانقضّ على دارتانيان، لكنه اصطدام بفارس صنديد، في غضون ثلاث ثوانٍ، ضربه دارتانيان ثلاث ضربات بالسيف قائلًا مع كل ضربة:

- واحدة لآثوس وواحدة لبورثوس وواحدة لأراميس.

ومع الضربة الثالثة، سقط الرجل مثل كتلة هامدة.

اعتقد دارتانيان أنه مات، أو على الأقل فقد وعيه، واقترب ليجرّده من الإذن، وبينما مد يده لتفتيشه، طعنه الجريح في صدره قائلًا:

- وواحدة لك!

صاح دارتانيان بغضب:

- وواحدة أخيرة لك!

فسمّره على الأرض بضربة سيف رابعة في بطنه، هذه المرة أغلق الرجل عينيه وأُغمي عليه.

فتّش دارتانيان الجيب حيث رآه يخفي الإذن، فأخذه، كان باسم الكونت ووردس.

ثم ألقى نظرة أخيرة على الشاب الوسيم الذي لم يكد يبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا والذي تركه هناك، راقدًا محرومًا من الإحساس وربّما كان ميتًا، تنهّد متحسرًا على هذا المصير الغريب الذي يقود الرجال إلى تدمير بعضهم بعضًا من أجل مصالح أشخاص أجانب عنهم والذين لا يعرفون في كثير من الأحيان حتى إن كانوا موجودين.

لكنه سرعان ما استيقظ من هذه التأمّلات على صوت لوبين الذي كان يصرخ ويبكي بكل قوته طلبًا للمساعدة.

وضع بلانشي يده على حلقه وضغطها بكل قوته.

قال:

- سيدي! ما دمت أمسكه بهذه الطريقة، فلن يصرخ، أنا متأكد من ذلك، لكن بمجرد أن أتركه، سيبدأ بالصراخ مرة أخرى؛ إنه نورماندي، والنورمانديون عنيدون.

في الواقع، رغم طرحه أرضًا وتمكّن بلانشي من كتم أنفاسه، إلا أن لوبين كان لا يزال يحاول الصراخ:

- انتظر! قال دارتانيان،

وأخذ منديله وقام بتكميمه.

قال بلانشي:

- الآن، لنربطه بشجرة.

تم الأمر بدقة فائقة، ثم سحب كونت ووردس إلى جانب خادمه، وما دام الليل قد بدأ في السقوط وكان المقيّد والمصاب على بعد خطوات قليلة في الغابة، فمن الواضح أنهما سيمكثان هنا حتى اليوم التالي.

- والآن، قال دارتانيان، لنذهب عند الحاكم!

- لكن يبدو أنك مصاب؟ قال بلانشي.

- لا بأس، دعنا نُنهز العمل الأكثر إلحاحًا، ثم سأنظر في أمر جرحي الذي لا يبدو لي خطيرًا جدًا.

وسار كلاهما نحو إقامة الموظف القدير.

قدّم نفسه باسم الكونت ووردس.

- هل لديك طلب موقع من الكاردينال؟ قال المحافظ.

- نعم سيدي، رد دارتانيان، ها هو.

قال المحافظ:

- آه! آه! يقول الحاكم إنه إذن قانوني وموصى به جيدًا.

رد دارتانيان:

- الأمر بسيط للغاية، فأنا من أفضل مخلصيه.

- ويبدو أن سماحته يريد منع أحد من الوصول إلى إنجلترا.

- نعم، المدعو دارتانيان، رجل نبيل من بيرنيه غادر باريس مع ثلاثة من أصدقائه من أجل الوصول إلى لندن.

- هل تعرفه شخصيًّا؟ سأل المحافظ.

- من؟

- هذا المدعو دارتانيان؟

- بشكل يثير الإعجاب.

- وإذن أعطني أوصافُه.

- لا شيء أسهل من ذلك.

وقدم دارتانيان وصفًا مفصلًا ودقيقًا للكونت ووردس.

- هل معه مرافق؟ سأل المحافظ.

- نعم، خادم اسمه لوبين.

- سنترصدهما، وإذا وضعنا أيدينا عليهما يمكن لسماحته أن يطمئن، وسوف يرسلان إلى باريس تحت حراسة جيدة.

- وبقيامك بذلك يا سيادة المحافظ، قال دارتانيان، ستستحق مكافأة من الكاردينال.

- سيدي الكونت هل ستراه مرة أخرى عند عودتك؟

- دون شك.

- أرجو، من فضلك، أن تخبره أنني خادمه.

- سأفعل ذلك.

سعيدًا بهذا التأكيد، قام المحافظ بوضع تأشيرة العبور وسلم الإذن إلى دارتانيان.

لم يُضِع دارتانيان وقته في مجاملات لا داعي لها، حيّا المحافظ وشكره وغادر فورًا.

عندما خرج بصحبة بلانشي أسرعا السير، وقاما بلفة طويلة متجنبين المرور من الغابة ودخلا من باب آخر.

كان المركب ما زال مستعدًّا للمغادرة، والرئيس ينتظر في الميناء.

- حسنًا؟ قال عندما رأى دارتانيان.

قال الأخير:

- هذا جوازي للعبور.

- والرجل المحترم الآخر؟

قال دارتانيان:

- إنه لن يغادر اليوم، لكن اطمئن، سأدفع مقابل مرورنا معًا.

- في هذه الحالة، دعنا نذهب، قال الرئيس.

- هيا بنا! كرر دارتانيان.

وقفز إلى القارب مع بلانشي، بعد خمس دقائق، كانا على متن المركب.

لقد حان الوقت: بعد نصف فرسخ في البحر، رأى دارتانيان ضوءًا يلمع وسمع انفجارًا.

كان المدفع قد أعلن إغلاق الميناء.

حان الوقت ليعتني بإصاباته، لحسن الحظ، وكما فكر دارتانيان، لم تكن أكثر خطورة، فقد اصطدم رأس السيف بضلع وانزلق على طول العظم، إلى جانب

ذلك، كان القميص قد التصق بالجرح على الفور، ولم ينزف منه سوى بقطرات من الدم.

كان دارتانيان منهكًا: فُرِشَ له مرتبة على ظهر السفينة، وألقى بنفسه عليها ونام.

في اليوم التالي، عند الفجر، وجد نفسه على بعد ثلاثة أو أربعة فراسخ فقط من سواحل إنجلترا؛ كان النسيم طوال الليل خفيفًا، فكان الإبحار بطيئًا.

عند الساعة العاشرة رست السفينة في ميناء دوفر.

في العاشرة والنصف، وطأ دارتانيان أرض إنجلترا صارخًا:

- ها قد وصلنا أخيرًا!

لكن لم يكن هذا كل شيء، إذ كان عليهما الذهاب إلى لندن، في إنجلترا، كانت خدمة العربات السريعة تعمل تقريبًا بشكل جيد، أخذ كل من دارتانيان وبلانشي حصانًا لكل واحد، وركض حوذي عربة أمامهما، في غضون أربع ساعات وصلا إلى أبواب العاصمة.

لم يكن يعرف دارتانيان لندن، ودارتانيان لم يكن يعرف كلمة إنجليزية، لكنه كتب اسم باكنغهام على قطعة من الورق، وأشار كل من سأله إلى قصر الدوق.

كان الدوق يصطاد في وندسور(43) رفقة الملك.

سأل دارتانيان خادم الدوق الموثوق به، الذي يرافقه في رحلاته جميعها، ويتحدث الفرنسية بطلاقة؛ أخبره أنه قادم من باريس من أجل مسألة حياة أو موت؛ لهذا من الضروري أن يتحدث إلى سيده الآن.

أقنعت الثقة التي تحدث بها دارتانيان باتريس، كان هذا الأخير كبير الوزراء، فأمر بتجهيز حصانين وتولّى قيادة الحارس الشاب، أما بلانشي، فقد نزل عن مطيته متيبّسًا كعود من قصب؛ كان الشاب المسكين منهك القوى؛ أما دارتانيان فقد صنع من حديد.

وصلا إلى القصر، هناك علما أن الملك وباكنغهام يصطادان الطيور في المستنقعات على بعد فرسخين أو ثلاثة فراسخ.

في غضون عشرين دقيقة وصلا إلى المكان المشار إليه، وسرعان ما سمع باتريس صوت سيده ينادي صقره.

- باسم من سأقدمك إلى مولاي الدوق؟ سأل باتريس.

- قل له الشاب الذي حاول في إحدى الأمسيات مشاجرته فوق جسر نوف مقابل السامرية.

- هل هي توصية فردية!

- سترى أنه يستحق شيئًا آخر.

خب باتريس بحصانه، ووصل إلى الدوق وأخبره بالعبارات التي قلناها وأن رسولًا في انتظاره.

تعرف باكنغهام على دارتانيان على الفور، وشك في أن خطبًا ما حدث في فرنسا ويجب أن يعرفه، ولم يأخذ إلا هنيهة للسؤال عن مكان الشخص الذي حضر ليخبره وبعد أن تعرف على زي الحراس من بعيد، ركض بحصانه مباشرة في اتجاه دارتانيان، فتنحى باتريس جانبًا بدافع التقدير.

- هل حدث سوء للملكة؟ صرخ باكنغهام، وقد غمر سؤاله أفكاره كلها وحبه جميعه.

- لا أعتقد، ومع ذلك، أظن أنها تواجه خطرًا عظيمًا يمكن بفضلكم وحدكم أن تنقذوها منه.

- أنا؟ صاح باكنغهام، من ماذا؟ سأكون سعيدًا غاية السعادة إذا كنت مفيدًا لها في شيء ما! تكلم! تحدث!

قال دارتانيان:

- خذ هذه الرسالة.

- هذه الرسالة! ممَّن هذه الرسالة؟

- أعتقد أنها من جلالة الملكة.

- من جلالة الملكة! قال باكنغهام باهت الوجه لدرجة أن دارتانيان ظنه سيصاب بسوء.

كسر الختم.

ما هذا التمزيق المسيل؟ قال، وهو يظهر لدارتانيان مكان ثقب بارز.

- آه! آه! قال دارتانيان، لم أرَ هذا، إنه سيف الكونت ووردس مسدد هذه الضربة الرائعة فثقب صدري.

- هل تأذيت؟ سأل باكنغهام، وهو يكسر الختم.

- أوه! لا شيء! مجرد خدش. قال دارتانيان.

- يا إلهي! ماذا قرأت! صرخ الدوق، باتريس، ابقَ هنا، أو بالأحرى انضم إلى الملك أينما حلّ، وأخبر جلالة الملك أنني أَلْمَس عذره بكل تواضع، وأن مسألة ذات أهمية كبرى تعيدني إلى لندن، تعال يا سيدي.

وعاد كلاهما على متن حصانه خببًا في اتجاه العاصمة.

21

كونتيسة وينتر

على طول الطريق، لم يستعلم الدوق عن كل ما حدث من دارتانيان فقط، ولكن عن كل ما كان يعرفه دارتانيان نفسه، من خلال التوفيق بين ما سمعه من الشاب وبين ذكرياته الخاصة، وبذلك كان قادرًا على تكوين فكرة دقيقة إلى حدٍّ ما عن مكمن الخطورة، إضافة إلى ذلك، كانت رسالة الملكة قصيرة جدًا ولم تكن صريحة بما يكفي، وعلى قدر المقاس، لكن ما أدهشه قبل كل شيء أن الكاردينال كان مهتمًّا بألا تطأ قدم الشاب أرض إنجلترا، لكنه لم ينجح في إيقافه خلال الطريق، في ذلك الوقت -وعلى ضوء هذه الدهشة- أخبره دارتانيان بالاحتياطات التي اتخذت، وكيف تمكّن من التخلص بفضل تفاني أصدقائه الثلاثة الذين سكبوا دماءهم على الطريق، كما تعرض هو نفسه للإصابة مما جعل رسالة الملكة تتعرض للتمزق. في أثناء الاستماع إلى هذه القصة التي سردها دارتانيان بأكبر قدر من البساطة، كان الدوق ينظر من وقت إلى آخر إلى الشاب باندهاش، كما لو أنه غير قادر على فهم أن هذا القدر الكبير من الحكمة والشجاعة والتفاني قد يجتمع في وجه شاب لم يبلغ العشرين بعد.

سارت الخيول كالريح، وفي غضون بضع دقائق كانا على أبواب لندن، كان دارتانيان يعتقد أنه عند وصوله إلى المدينة، سيبطئ الدوق من وتيرته، لكن لم يكن الأمر كذلك، استمر في طريقه بأقصى سرعة، ولم يقلق كثيرًا بشأن من يسقط من كل ما كان في طريقه، في الواقع، في أثناء عبور المدينة، وقع حادثان أو ثلاثة حوادث من هذا النوع، لكن باكنغهام لم يلتفت حتى ليرى ما حدث لأولئك الذين أسقطهم أرضًا، تبعه دارتانيان وسط صيحات من اللعنات.

عند دخول فناء القصر، قفز باكنغهام من حصانه، ودون أن يشغل نفسه بما

سيحدث له، ألقى اللجام على رقبته واندفع نحو الدرج، فعل دارتانيان الشيء نفسه، لكن بمزيد من العناية بتلك الحيوانات النبيلة التي كان قادرًا على تثمين فضلها، حصل على بعض السلوى عندما رأى أن ثلاثة أو أربعة خدم قد هرعوا بالفعل إلى المطابخ والإسطبلات، وتمكّنوا من السيطرة على الجوادين على الفور.

كان الدوق يسير بسرعة لدرجة أن دارتانيان لم يستطع اللحاق به، مر على التوالي بالعديد من الصالونات الأنيقة أناقة لا يمكن أن يتخيلها أعظم أمراء فرنسا، ووصل أخيرًا إلى غرفة نوم كانت معجزة في الذوق والثراء، في كوّة هذه الغرفة كان هناك باب مخفي تحت ورق الجدران، فتحه الدوق بمفتاح ذهبي صغير كان معلقًا من رقبته بسلسلة من المعدن نفسه، بدافع التقدير والكتمان، بقي دارتانيان في الخلف، ولكن عندما دخل باكنغهام عبر عتبة ذلك الباب، استدار، ورأى الشاب مترددًا، قال له:

- تعال، إذا كنت محظوظًا بما يكفي ووجدت نفسك في حضرة جلالة الملكة، فأخبرها بما رأيت.

تشجع دارتانيان بهذه الدعوة، فتبع الدوق الذي أغلق الباب خلفه.

ثم وجد الاثنان نفسيهما في كنيسة صغيرة مبطنة كلها بالحرير الفارسي ومطرزة بالذهب، مضاءة بقوة بعدد كبير من الشموع فوق مذبح، وتحت مظلة زرقاء مخملية مغطاة بالريش الأبيض والأحمر، كانت صورة بالحجم الطبيعي لآن النساوية، شديدة الشبه بها، لدرجة أن دارتانيان أطلق صرخة ذهول: حتى يخيل للمرء أن الملكة ستتكلم!

على المذبح، وتحت الصورة، كان ثمّة صندوق يحتوي على عقد مرصع بالماس.

اقترب الدوق من المذبح وجلس على ركبتيه، ثم فتح الصندوق.

وقال له وهو يسحب من الصندوق عقدة كبيرة لشريط أزرق يتلألأ بالألماس:

- ها هي، إليك تلك الألماسات الثمينة التي أقسمت أن أدفن وإياها، أعطتنيها الملكة، والملكة تأخذها مني؛ إرادتها ستتحقق في كل شيء..

ثم بدأ في تقبيل هذه الماسات الواحدة تلو الأخرى التي كان لا بد من الانفصال عنها، فجأة أطلق صرخة رهيبة.

- ماذا حدث؟ سأل دارتانيان بقلق، وماذا يحدث لك يا مولاي؟

صرخ باكنغهام شاحبًا مثل ميت:

- ضاع كل شيء، فقدت اثنتين من هذه الماسات، ولم يبقَ سوى عشر.

- هل فقدتهما يا مولاي، أم يعتقد أنهما سرقتا منه؟

تابع الدوق:

- لقد سُرقت مني، والكاردينال هو من فعل ذلك، هنا، انظر، لقد قطع الشريط الذي يضمهم بالمقص.

- إذن تذكر سيدي من ارتكب السرقة... ربما لا تزال بحوزته.

- انتظر انتظر! صاح الدوق، المرة الوحيدة التي ارتديت فيها هذا العقد كانت في الحفل الملكي الراقص قبل ثمانية أيام في وندسور، اقتربت مني الكونتيسة وينتر التي كنت على خلاف معها، وسعت في هذه المناسبة للانتقام بصفتها امرأة غيورة، منذ ذلك اليوم، لم أرها مرة أخرى، هذه المرأة هي عميلة الكاردينال.

- لكن الكاردينال يملك الكثير من العملاء من أنحاء العالم كله! هتف دارتانيان.

- فعلاً! قال باكنغهام، نعم، نعم، وهو يضغط على أسنانه بغضب، نعم، إنه مصارع رهيب، ولكن مع ذلك، متى من المفترض أن يقام الحفل الراقص؟

- الاثنين القادم.

- الاثنين القادم! خمسة أيام أكثر من الوقت الذي نحتاجه! باتريس! صرخ الدوق، فتح باب الكنيسة، باتريس!

ظهر خادمه وكاتم سره:

- إليّ بصائغي وسكرتيري!

غادر الخادم بسرعة وبصمت، أثبت عادته التي اكتسبها من الطاعة العمياء ودون رد.

ولكن على الرغم من أنه استدعى الجواهري أولًا، إلا أن السكرتير هو من حضر أولًا، كان الأمر بسيطًا جدًا لأنه يعيش في القصر، وجد باكنغهام جالسًا على طاولة في غرفة نومه، يكتب بعض الأوامر بيده.

قال:

- السيد جاكسون، ستذهب فورًا إلى اللورد المستشار، وتخبره أنني أعهد إليه بمسؤولية تنفيذ هذه الأوامر، أريد أن ينفذها في هذه اللحظة بالذات.

- لكن يا مولاي، إذا سألني السيد المستشار عن الدوافع التي ربما دفعت فخامتكم إلى اتخاذ مثل هذا الإجراء غير العادي، فبماذا سأجيب؟

- أن هذا ما أرغبه، وأنني لست مضطرًا إلى تبرير إرادتي أمام أي أحد.

قال السكرتير مبتسمًا:

- هل سيكون هذا هو الجواب الذي يجب أن ينقله إلى جلالة الملك، إذا دفعه فضول المعرفة للسؤال عن سبب تمكّن أي سفينة من مغادرة موانئ بريطانيا العظمى؟

أجاب باكنغهام:

- أنت على حق يا سيدي، في هـــــذه الحالة سيخبر الملك بأنني قررت الحرب،

وأن هذا الإجراء هو أول عمل عدائي ضد فرنسا.

انحنى السكرتير وغادر.

- قال باكنغهام ملتفتًا إلى دارتانيان:

- نحن مطمئنون من هذا الجانب، إذا لم تكن الماسات قد غادرت بالفعل إلى فرنسا، فلن تصل إلى هناك إلا بعد وصولك.

- كيف ذلك؟

- لقد فرضت للتو حظرًا على السفن الموجودة كلها في هذه الساعة في موانئ صاحب الجلالة، ودون إذن خاص لن يجرؤ أحد على رفع المرساة.

نظر دارتانيان بذهول إلى هذا الرجل الذي وضع القوة اللامحدودة التي أوكلت إليه بثقة الملك في خدمة من يحبه، رأى باكنغهام من خلال تعبير وجه الشاب ما يدور في ذهنه، فابتسم.

- نعم، قال، نعم، آن النساوية هي ملكتي الحقيقية، بكلمة واحدة منها، سأخون بلدي، سأخون ملكي، طلبت مني عدم إرسال المساعدة التي وعدت بها إلى البروتستانت في لاروشيل، وقد فعلت ذلك، كنت أنقض وعودي، لكن ذلك لا يهم! لأني أطيع رغبتها، ألم أتقاضَ أجرًا كبيرًا على طاعتي لها على سبيل المثال؟ لأن هذه الطاعة أنا مدين بها لصورتها.

أعجب دارتانيان بهذا الخليط الهش والغامض الذي تعلق به أقدار الناس وحياة الرجال أحيانًا.

لقد كان شاردًا في أعماق أفكاره عندما دخل الصائغ: لقد كان إيرلنديًّا ومن أمهر الصاغة في فنه، واعترف بنفسه أنه يكسب مئة ألف جنيه إسترليني سنويًا مع دوق باكنغهام.

قال الدوق الذي قاده إلى الكنيسة:

- السيد أورايلي، انظر إلى تلك الماسات، وقل لي كم يساوي ثمن الواحدة.

ألقى الصائغ نظرة خاطفة على الطريقة الأنيقة التي ركبت بها، وحسب قيمة الماسات الواحدة تلو الآخر، دون أي تردد أجاب:

- ألف وخمسمئة بيستول يا مولاي.

- كم يومًا سيستغرق إعداد ماستين مثل هاتين؟ أنت ترى أن اثنتين مفقودتان.

- ثمانية أيام يا مولاي.

- سأدفع مقابلهما ثلاثة آلاف بيستول للواحدة، أحتاجهما بعد غد.

- ستحصل عليهما يا مولاي.

- أنت رجل جليل يا سيد أورايلي، لكن هذا ليس كل شيء، لا يمكن أن يُعهد بهذه الماسات إلى أي شخص، يجب صنعها في القصر.

- مستحيل يا مولاي، أنا من يستطيع أن يصنعها فقط حتى لا نرى الفرق بين الجديد والقديم.

- وإذن يا عزيزي السيد أورايلي، أنت سجيني، وإذا أردت مغادرة قصري في هذه الساعة فلن تستطيع، لذا خذ قرارك، حدد لي إلى أي من أولادك ستحتاج، وأشر إلى الأدوات التي يجب عليهم إحضارها.

كان الصائغ يعرف الدوق جيدًا، وكان يعلم أن أي ملحوظة لا طائل منها، لذلك اتخذ قراره على الفور.

- هل سيسمح لي بتحذير زوجتي؟ قال.

- حسنًا! بل سيسمح لك برؤيتها، يا عزيزي السيد أورايلي، سيكون سجنك لطيفًا، كن مطمئنًّا، وبما أن أي إزعاج يستحق التعويض، فإليك -بصرف النظر

عن سعر الماسات- قسيمة بألف بيستول لتجعلك تنسى الملل الذي تسبّبت لك فيه.

لم يستطع دارتانيان أن يتغلب على المفاجأة التي سببها له هذا الوزير الذي يحرك الرجال والملايين بكلتا يديه.

أما الصائغ فكتب إلى زوجته، وأرسل لها قسيمة بألف بيستول وأمرها بالعودة إليه في المقابل مع أمهر متعلميه، ومع تشكيلة من الألماس أعطاها وزنها واسمها، وقائمة بالأدوات التي سيحتاجها.

قاد باكنغهام الصائغ إلى غرفته، التي تحوّلت بعد نصف ساعة إلى ورشة، ثم وضع حارسًا عند كل باب، ومنع أي شخص من الدخول، باستثناء خادمه باتريس، وغني عن القول أنه كان ممنوعًا تمامًا على أورايلي ومساعده الخروج تحت أي ذريعة.

ما إن حسم هذا الأمر، حتى عاد الدوق إلى دارتانيان وقال له:

- والآن يا صديقي الشاب، أصبحت إنجلترا ملكنا، ماذا تريد وماذا ترغب؟

رد دارتانيان:

- سريرًا، أعترف أنه الآن الشيء الوحيد الذي أحتاجه أكثر من أي شيء آخر.

أعطى باكنغهام دارتانيان غرفة مجاورة له، لقد أراد أن يبقي الشاب رهن إشارته، ليس لعدم الثقة به، وإنما لرغبته في أن يتحدث معه باستمرار عن الملكة.

بعد ساعة، صدر المرسوم في لندن بعدم السماح لأي سفينة محملة بمغادرة الموانئ إلى فرنسا، ولا حتى خط الرسائل، وبالنسبة للجميع، كان إعلان حرب بين المملكتين.

بعد يومين، وفي تمام الساعة الحادية عشرة، أنهى الصائغ إعداد الماستين المفقودتين، لم تكونا مقلدتين تمامًا، ولكنهما صورة طبق الأصل مع باقي ماسات

العقد، لدرجة أن باكنغهام لم يستطع تمييز الماسات الجديدتين من القديمتين، وحتى بالنسبة للأكثر خبرة في مثل هذه الأمور ستنطلي عليهم الخدعة.

اتصل على الفور بدارتانيان وقال له:

- خذ، ها هما الماستان الكريمتان التي أتيت من أجلهما، وكن شاهدًا لي أن كل القوة البشرية التي يمكن أن تُفعل قد فعلتها.

- كن مطمئنًا يا سيدي، سأقول ما رأيت، لكن أرجو سموك أن تعطيني العقد دون الصندوق.

- الصندوق سيربكك، زيادة على ذلك، فإن الصندوق بالنسبة لي أنفس، حتى إن تُرِك فارغًا، قل لها: إنني سأحتفظ به.

- سأنقل رغبتك كلمة كلمة يا مولاي.

قال باكنغهام وهو يحدق في الشاب:

- والآن، كيف لي أن أُكافِئك؟

احمرّ وجه دارتانيان حتى بياض عينيه، لقد لاحظ أن الدوق يحاول أن يجد طريقة لحمله على قبول شيء ما، فراودته فكرة أن حصوله على ثمن دماء رفاقه ودمه بالذهب الإنجليزي مثير للاشمئزاز بشكل غريب.

رد دارتانيان:

- لنعقد العزم يا صاحب السمو، ودعنا نزن الحقائق مسبقًا، حتى لا يكون هناك أي سوء تفاهم، أنا في خدمة ملك وملكة فرنسا، وأنا عضو في فرقة حرس السيد ديسار، الذي كان هو وصهره السيد دو تريفيل مرتبطين ارتباطًا بجلالتهما، لذلك فعلت كل شيء، من أجل الملكة ولا شيء من أجل سموك، زد على ذلك، ربما لم أكن لأفعل شيئًا من هذا القبيل لو لم يتعلق الأمر بسعادة سيدة تهمني، كما هي الملكة بالنسبة إليكم.

- نعم، قال الدوق مبتسمًا، وأعتقد أنني أعرف هذه السيدة الأخرى، إنها...

قاطعه الشاب بسرعة:

- أنا لم أذكر اسمها يا صاحب السمو.

قال الدوق:

- هذا صحيح، لذلك يجب أن أكون ممتنًّا لهذه السيدة وتفانيك لها.

- لقد قلت ذلك يا سيدي، في هذه الساعة بالتحديد نحن في وضعية حرب، أعترف لك أنني لا أرى في جلالتك سوى رجل إنجليزي فقط، وبذلك فأنت عدو وسأكون أكثر اغتباطًا إذا التقيتك في ساحة المعركة بدل وندسور بارك أو في أروقة قصر اللوفر، لكن ذلك لن يمنعني من تنفيذ مهمتي تنفيذًا دقيقًا، وإذا لزم الأمر، فسأقتل لإنجازها، لكني أكرر لجلالتك، دون أن تشكرني شخصيًا على ما أفعله لنفسي في هذه المقابلة الثانية، أكثر مما فعلت من أجلها بالفعل في المقابلة الأولى.

همس باكنغهام:

- نحن نقول: فخور مثل الاسكتلندي.

أجاب دارتانيان:

- ونقول نحن: «فخور مثل الماسكوني»، آل جاسكون هم اسكتلنديو فرنسا.

حيّا دارتانيان الدوق واستعد للمغادرة.

- حسنًا! ستذهب هكذا؟ من أين وكيف؟

- صحيح.

- يا إلهي! الفرنسيون لا يرتابون في أي شيء!

- لقد نسيت أن إنجلترا كانت جزيرة وأنك ملكها.

- اذهب إلى الميناء، وسلم هذه الرسالة إلى القبطان، سوف يأخذك إلى ميناء صغير حيث لن يتوقع أحد قدومك، وحيث لا توجد فيه عادة سوى سفن الصيد.

- ماذا يسمى هذا الميناء؟

- سان فاليري، لكن انتظر لحظة، عندما تصل إلى هناك، ستدخل نزلًا سيئًا دون اسم ولا لافتة، ماخور بحارة حقيقيًا، ولن تخطئه، فلا يوجد إلا واحد فقط.

- وماذا بعد؟

- سوف تسأل المضيف وتقول له: إلى الأمام.

- ماذا يعني؟

- إلى الأمام: هذه هي كلمة السر، سوف يمنحك حصانًا مجهزًا بالكامل، وسيوضح لك الطريق الذي يجب أن تسلكه، وبذلك ستجد أربع رحلات في مسارك، إذا كنت ترغب في إعطاء كل منهم عنوانك في باريس فستتبعك الخيول الأربعة هناك، أنت تعرف فعلًا اثنين منهما، ويبدو لي أنك تحبهما كشغوف بالخيول، كنا قد امتطيناهما، هذه الخيول الأربعة الجيدة هدية، ولن ترفض قبول أحدها وأن تجعل رفاقك يقبلون الثلاثة الآخرين، بالمناسبة، يجب أن تشنوا حربًا علينا، "الغاية تبرر الوسيلة" كما تقولون أنتم أيها الفرنسيون، أليس كذلك؟

قال دارتانيان:

- بلى يا سيدي، قبلت، سنستفيد من هداياك.

- الآن يدك أيها الشاب، ربما سنلتقي قريبًا في ساحة المعركة، ولكن في هذه الأثناء سنكون صديقين جيدين، كما آمل.

- نعم يا سيدي، ولكن على أمل أن نصبح أعداء قريبًا.

- لا تقلق، أعدك.

- أنا أعتمد على كلمتك يا مولاي.

حيّا دارتانيان الدوق وهرع نحو الميناء.

مقابل برج لندن، وجد السفينة المحددة، وسلم رسالته إلى القبطان، تلك التي أشار إليها حاكم الميناء، وأبحر على الفور.

كانت خمسون سفينة على وشك السفر في الانتظار.

في أثناء مروره بجوار الواحدة تلو الأخرى، اعتقد دارتانيان أنه تعرف على امرأة مونغ، وهي المرأة نفسها التي ناداها الرجل المحترم المجهول باسم «ميلادي»، والتي كان دارتانيان قد وجدها جميلة جدًا، ولكن بفضل تيار النهر والرياح الطيبة، كانت سفينته تسير بسرعة كبيرة، وبعد لحظة صارت بعيدة عن الأنظار.

في اليوم التالي، حوالي الساعة التاسعة صباحًا، نزل في سان فاليري، وتوجه دارتانيان فورًا إلى النزل المعلوم، وتعرّف عليه بالصيحات الصادرة منه، قيل: إن الحرب بين إنجلترا وفرنسا قادمة ولا ريب فيها، وإن البحارة المرحين سيصنعون منها مأدبة فاخرة.

شق دارتانيان الحشد، وقصد المضيف، وذكر له كلمة «إلى الأمام»، طلب منه المضيف على الفور أن يتبعه، وخرج معه من الباب المفضي إلى الفناء، وقاده إلى الإسطبل حيث كان ينتظره حصان، وسأله عما إذا كان بحاجة إلى شيء آخر.

قال دارتانيان:

- أريد أن أعرف الطريق التي يجب أن أسلكها.

- اذهب من هنا إلى بلانجي، ومن بلانجي إلى نوفشاتيل(44)، وفي نوفشاتيل، ادخل إلى لاهيرس دور، واذكر كلمة السر للمضيف، وستجد هناك حصانًا جاهزًا كما حدث هنا.

- هل أدين لك بشيء؟ سأل دارتانيان.

- كل شيء مدفوع ثمنه بزيادة، قال المضيف: فليوفقك الإله في طريقك!

- آمين! أجاب الشاب وهو ينطلق بفرسه مسرعًا.

بعد أربع ساعات كان في نوفشاتيل.

اتّبع بدقة التعليمات التي تلقّاها في نوفشاتيل، كما في سان فاليري، وجد جوادًا مجهزًا بالكامل ينتظره، أراد أن يحمل المسدسات من السرج الذي تركه لتوه إلى السرج الذي كان سيمتطيه، كانت القرابيس مبطّنة بمسدسات مماثلة.

- عنوانك في باريس؟

- قصر الحرس، فرقة ديسار.

- حسنًا.

- أي طريق يجب أن أسلك؟ سأل دارتانيان بدوره.

- عن طريق روان، لكنك ستترك المدينة على يمينك، في قرية إكوي الصغيرة ستتوقف، هناك نُزل واحد فقط: إيكو دو فرانس، لا تحكم عليه من خلال مظهره، ستجد في إسطبله حصانًا ممتازًا مثل الذي تمتطيه.

- كلمة السر نفسها؟

- بالضبط.

- الوداع يا سيدي!

- أتمنى لك رحلة سعيدة يا سيدي! هل تحتاج شيئًا؟

أومأ دارتانيان بالنفي وغادر بأقصى سرعة، في إكوي، تكرر المشهد نفسه: لقد وجد مثل هذا المضيف اللطيف، وحصانًا جديدًا ومريحًا، ترك عنوانه كما فعل في السابق، وغادر متجهًا إلى بونتواز، غيّر جواده للمرة الأخيرة، وفي الساعة التاسعة خب بحصانه داخل فناء السيد دو تريفيل.

لقد قطع ما يقرب من ستين فرسخًا في اثنتي عشرة ساعة.

استقبله السيد دو تريفيل كما رآه في ذلك الصباح بالذات، هذه المرة صافحه بشغف أكثر من المُعتاد، وأخبره أن فرقة السيد ديسار بصدد حراسة قصر اللوفر وأن بإمكانه الذهاب إلى عمله.

(1) نشر مؤلف لوي الرابع عشر وعصره عام 1844م، ونُشِر العمل لأول مرة في ثلاثين عددًا من 9 مارس إلى 8 نوفمبر 1844م، وبذلك فهو مؤلف معاصر لحقبة الفرسان الثلاثة.

(2) تتضمن مذكرات السيد دارتانيان، نقيب ملازم السرية الأولى لفرسان الملك، على العديد من الأشياء الخاصة والسرية التي حدثت في عهد لوي العظيم، بقلم كورتلز دو ساندراس، أمستردام، ب. روجي، 1704م، في 12 مجلدًا.

(3) عملة فرنسية انتشرت في العهود الملكية.

(4) لم يتم تعيين تريفيل قائدًا ملازمًا لفرقة الفرسان، والتي كان ملازمًا ثانيًا لها منذ عام 1625م، حتى 30 أكتوبر 1634م، كما لم يكن رفيق اللعب للوي الثالث عشر.

(5) تاريخيًا كان لدارتانيان ستة إخوة وأخوات على الأقل.

(6) سيرفانتس، دون كيشوت، الجزء الأول، الفصل الثامن (من أجل المطاحن) والثامن عشر (من أجل الأغنام).

(7) نحن ندرك جيدًا أن استعمال اسم ميلادي يجب أن يتبعه الاسم العائلي، لكننا وجدناه بهذه الطريقة في المخطوطة، ولا نريد أن نأخذ على عاتقنا تغييره. (ملاحظة دوما).

(8) يقع على ارتفاع المسرح الفرنسي، كان الباب الثاني سان هونوريه، الذي بني عام 1380م في موقع الشارع الحالي رقم 161 شارع سان هونوريه حصنًا داخل أسوار شارل الخامس، كان يتألف من طابق أرضي وطابق ضخم، يُحيط به من كل زاوية برج دائري، اختفى في نهاية عام 1636م.

(9) البِستول مصطلح استُخدم على وجه الخصوص لتعيين بعض العملات الذهبية التي صدرت أول مرة في إيطاليا وإسبانيا منذ القرن السادس عشر، في عهد فرنسا الملكية، يقصد به على وجه التحديد العملة الذهبية الإسبانية، استعمل

هذا المصطلح في العديد من الكتابات الأدبية بين القرنين: السادس عشر والتاسع عشر، أصبح وحدة حساب غير رسمية إلى حدٍّ ما بين نهاية القرن السابع عشر وبداية القرن الثامن عشر بما يعادل قطعة ذهبية من فئة لوي الذهبي.

(10) كورتيلز: جرت المقابلة مع السيد دو تريفيل بعد المبارزة مع حراس الكاردينال.

(11) يقع الدير بين شارع فوجيرارد وشارع كاسيت وشارع دو روغارد وشارع دو شيرش ميدي.

(12) كوتيلز: ينتمي الحزام المذكور إلى السيد دو بيسمو. (الفصل الثاني).

(13) على رصيف تيتان (حاليًا رصيف فولتير) الذي يربط البري أو سيركل بالضفة اليمنى.

(14) تقاطع شوارع سيفير وغرونيل وشيرش ميدي وفور.

(15) يتعلق الأمر بقصر لوكسمبورغ الصغير الذي لم يتنازل عنه ريشيليو لابنة أخته، السيدة ديجويلون، حتى العام 1639.

(16) انظر بلوتارخ، حياة القيصر، وليكس: في معركة فارسالا.

(17) مضخة مياه السامراتية المدعمة بونت نوف، يعلوها برج يحتوي على ساعة فلكية ومجلجلة أجراس تعزف الألحان كل ساعة.

(18) كورتيلز: سيواجه دارتانيان برناجو الذي لن يظهر هنا إلا في الفصل السادس.

(19) كورتيلز: الفصل الثاني: تقديمه للملك، هدية من الملك.

(20) في 8 أبريل 1620م، قامت كتائب الملك بطرد قوات والدته ماري دي ميديسيس.

(21) لعبة الكف لعبة الرياضية، ظهرت لأول مرة في رواق كرة الكف الوطني زمن الثورة الفرنسية وكانت معروفة منذ عهد الملكية وفي عهد نابوليون حتى عام 1909م.

(22) يقصد امرأة برجوازية من النبلاء، قد تكون زوجة قاضٍ أو محامٍ، وقد عرف آثوس بإغوائه النساء النبيلات. (المترجم).

(23) تقليد يقضي بأن ريشيليو وقع في حب الملكة عندما كان يرقص أمامها مرتديًا زي المهرج، انظر لوي الرابع عشر وعصره (الفصل الأول)، (المصدر: مذكرات غير منشورة للويس هنري دو لوميني، كونت دو برين، وزير الخارجية في عهد لوي الرابع عشر، نُشِر في مخطوطات الأصلية، مع مقال عن أعراف وعادات القرن السابع عشر، بقلم ف. باريير، بوتثيو، 1828م، ص 274 - 276).

(24) شارع صغير يفضي إلى رصيف أورفيفر حيث توجد مديرية الشرطة منذ إنشائها عام 1800 إلى عهد الكومونة، التي جعلتها مقر إدارتها.

(25) حملت هذا الاسم الأخير عام 1628م.

(26) افتتح شارع داساس عام 1798م تحت اسم شارع الغربي: ميلاني والدور، عشيقة دوما، عاشت في البيت رقم 5 من هذا الشارع بعد أن غادرت منزل العائلة في شارع دو فوجيرار.

(27) كان أراميس إذن يعيش في شارع دو فوجيرار، بين الرقمين الحاليين 66 (شارع كاسيت) و42 (شارع سيرفاندوني، أي شارع دو فوسويور حيث يقع منزل دارتانيان).

(28) أعيد بناء حصن الأسقف عام 1652م (في موقع 19 شارع سان جيرمان لوكسيروا)، ليكون سجن الأسقف في باريس.

(29) كان شارع السين الصغير سابقًا، ويمتد من شارع يعقوب إلى نهر السين (زقاق بونابرت).

(30) رصيف ملاكيه ورصيف كونتي الذي كان في ذلك الوقت مجرد ممشى تحفه أشجار الصفصاف.

(31) في الواقع ثلاثين سنة.

(32) جاك الأول وابنه تشارلز الأول.

(33) يستخدم دوما الاعتقال والاستجوابات التي تعرّض لها لابورت (مذكرات، بيتيتو، الجزء الحادي عشر، ص. 346 وما يليها)، في وقت لاحق أي في عام 1637م.

(34) كان مجرمو الدولة يعدمون في ساحة دو غريف، ثم يدفنون في مقبرة سان جان غريف، شرق قصر المدينة.

(35) صليب دو تيروار (لابورت) ملتقى شارع سان هونوريه وشارع لاربر سيك: حيث تنصب مشنقة الإعدام.

(36) عكس الأحداث التاريخية: فانسن دو غونزاغ، دوق مانتو، توفي في 26 ديسمبر 1627م: عبر لوي الثالث عشر وريشيليو جبال الألب في فبراير 1629م لدعم حقوق شارل دو غونزاغو كليف، دوق نيفيرس (معاهدة سوز، أبريل 1629م)، كانت تهدف إلى الاستيلاء على نيم وكاستر وأوزيس أيضًا في عام 1629م.

(37) لم يصبح سيغييه حارس الأختام حتى عام 1633م، لكنه دومًا أراد أن يضمّن رواية التفتيش الذي حدث في جناح الملكة.

(38) إشارة إلى انتقام شمشون، قضاة، الفصل السادس عشر، 22 - 31.

(39) في البداية منحه دومًا خمسة وعشرين أو ستة وعشرين.

(40) زار دوما سيراكوز محجر الصخور الشبيه بأذن والذي قيل إن الطاغية ديونيسيوس اتخذه سجنً لأعدائه (انظر إلى كتاب السيبرونار)، (رحلة إلى إيطاليا قام بها ألكسندر دوما ودوّنها في كتابه السابق الذكر) المترجم.

(41) توجد غابة بوندي، على بعد عشرة كيلومترات من سان دوني، وتعتبر وكرًا لقطاع الطرق.

(42) هدمت بوابة سان دوني عام 1672م ليحل محلها قوس النصر.

(43) على بعد أربعين كيلومترا من لندن تقريبًا.

(44) بلانجي توجد على الثلاثين كيلومترا شمال نوشاتيل أونبراي، على نهر بيثون.

تم تجهيز هده النسخة بواسطة:

• ميساء طه •

جميـع الحقوق محفوظة ©



أمسح

ALEXENDER DUMAS

تعد رواية «الفرسان الثلاثة» لألكسندر دوما تحفة أدبية خالدة. تسرد الرواية حكاية الشاب دارتانيان، البطل الملحمي والروحي الذي ينضم إلى الفرسان الثلاثة: أثوس، ويورتوس، وأراميس، معًا يخوضون مغامرات شائقة مليئة بالمؤامرات والمبارزات والتضحيات في فرنسا القرن السابع عشر، وهم في خدمة الملك لويس الثالث عشر. يواجهون مؤامرات الكاردينال ريشيليو الشريرة، بالإضافة إلى سحر وخبث مبلادي القاتلة. بين أروقة الصداقة الراسخة والمبارزات البطولية والولاء العميق، تعمرنا الرواية في عالم زاخر بالأحداث، حيث تتشابك السياسة مع الشجاعة، والمؤامرات مع البطولة، والصداقة مع الوفاء.

تدور أحداث الرواية في عام 1625، وتتركز حول مغامرات دارتانيان الشاب الغاسكوني الطموح، الذي يسعى للانضمام إلى حرس الملك. خلال سعيه، يصطدم بتحديات عديدة ويتورط هو وأصدقاؤه في الصراعات السياسية المحتدمة في فرنسا تلك الحقبة.

تعتبر «الفرسان الثلاثة» رمزًا للشجاعة والإخلاص والصداقة الحقيقية، فيما تعكس الرواية أحداثًا تاريخية حقيقية، مثل: حرب الثلاثين عامًا وصراعات القوى؛ ما يجعلها وثيقة أدبية تاريخية غنية.

مع مرور الزمن، أصبحت شخصيات الفرسان النلاثة أيقونات ثقافية، وقد أعيد تجسيدها في كثير من الأفلام والمسلسلات التليفزيونية. يعود سر جاذبية الرواية إلى إثارتها، والمغامرات المشوقة التي تأسر القراء على اختلاف أعمارهم، فضلًا عن قوة شخصياتها وكاريزميتها التي تجعلها راسخة في الأذهان، إنها فضة صراع الخير ضد الشر، قصة تسحر القلوب وتستمر جاذبيتها عبر الزمان والمكان.

يعزز من شعبيتها تناولها العميق للقيم الإنسانية النبيلة، مثل: الشجاعة، والأخوة، والوفاء؛ ما يجعلها باقية في الذاكرة الأدبية حتى يومنا هذا.

9 786030 508241

kalemat
www.kalemat.com

جميع كتبنا متوفرة للقراءة والتحميل عبر
GET IT ON Google Play
Available on the App Store